

إصدارات سطور الجديدة

تصوير
أحمد ياسين

تأثير إيران ونفوذها في المنطقة

إلهه روستامى - بوڤى

ترجمة: د. فاطمة نصر

الجمهورية الإسلامية الإيرانية

تأثير إيران ونفوذها فى المنطقة

تأليف: إلهه روستامى - پوفى

ترجمة: د. فاطمة نصر

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

Iran's Influence

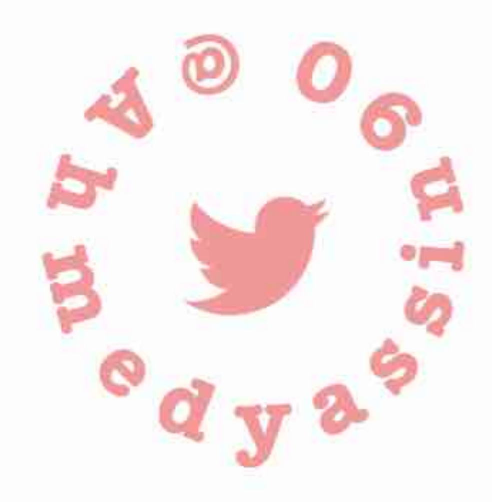
A Religious- Political State and Society in

Its Region

Elaheh Rostami - Povey :تأليف

Zed Books, 2010 :الناشر

طبعة سطور الأولى ٢٠١١


@Ahmedyassin90





تأثير إيران ونفوذها فى المنطقة

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د.فاطمة نصر

المستشار الفنى: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

ـ نفوذ إيران وتأثيرها فى المنطقة
- تأليف: إلهه روستامى - پوقى
- ترجمة: د. فاطمة نصر محمد
ـ غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com
ـ المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shenawy@yahoo.com
ـ إخراج فنى: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com
الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠
رقم الإيداع: 2011-5217
الترقيم الدولى: 3 -82-5868-77

٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى
كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٦٣٥٩٩/٢٥٢٤٠٠٢٠
e.mail address: sutour@link.net
الموقع الإلكترونى
http://sutour-aljadida.blogspot.com
www.sutouralgadida.info

المؤلفة

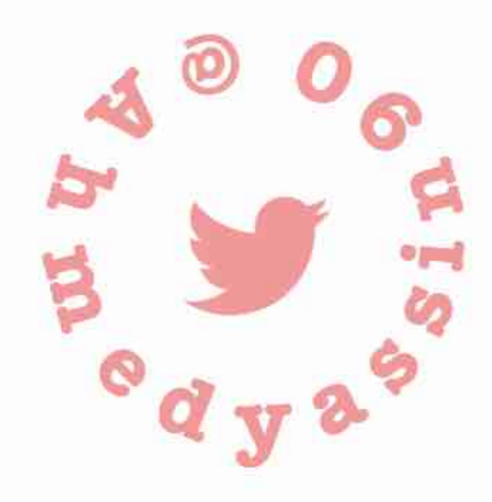
إلهه روستامى - يوفى كاتبة وباحثة. تعمل باحثا مشاركا بمركز دراسات السينما والإعلام، وعضوا بمعهد لندن لدراسات الشرق الأوسط، ومركز الدراسات الإيرانية، ومركز دراسات الجندر بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. تتركز أبحاثها على إيران وأفغانستان والشرق الأوسط، وبخاصة على قضايا الجندر فى إيران وأفغانستان. لها كتاب «الأفغانيات: الهوية والغزو (٢٠٠٧) وكتاب «النساء والعمل والحركات الإسلامية: الأيديولوچيا والمقاومة فى إيران» (١٩٩٩) وصدركلاهما باسمها المستعار، أى مريام پويا.

تمهيد

يقوم هذا الكتاب على أساس شهادات أدلى بها إيرانيون وعراقيون ولبنانيون وفلسطينيون ومصريون - نشطاء، صحفيون، لاجئون، منفيون وأكاديميون - من مختلف التوجهات السياسية التى تراوحت بين التوجهات الإسلامية والحداثية إلى اليسارية العلمانية والقومية والنسوية. حاورتُ هؤلاء طوال الفترة ما بين عامى ٢٠٠٧ و٢٠٠٩، فى إيران وسوريا وفلسطين ومصر وبريطانيا.

وعلى الرغم من أن العنف الذى ساد العراق حال بينى وبين الذهاب هناك، فقد أجريت حوارات مع عراقيين فى سوريا وإيران والمملكة المتحدة. أثرتُ فضول الكثيرين منهم. فعلى الرغم من أننى أشبههم، فلم أكن أتحدث العربية أو أرتدى الحجاب. سألونى «من أين أنت؟» وحينما كنت أقول «من إيران» كان رد فعلهم المباشر هو «أهلا وسهلا، إيران زينة». فى إحدى زياراتى للقاهرة، قال لى حارس لأحذية المصلين فى إحدى ضواحى القاهرة الفاطمية، وكان رجلا فى منتصف العمر «إيران كويسة، إن شاء الله تصنع القنبلة». كانت تلك المشاعر تتكرر على مستوى يومى فى جميع زياراتى لبلدان المنطقة، يرددها سائقو سيارات الأجرة وأصحاب المحال التجارية والناس بالمطاعم. كان تماهيهم مع «إيرانيتى» مذهلا - ليس على أساس أننى امرأة غير محجبة من ذلك الجزء فى العالم، أو لأننى مسلمة

أو شيعية، أو غير مسلمة، أو علمانية، أو أى من هذا. كان يكفيهم أننى إيرانية كى يعبروا عن دعمهم لإيران. كانت تلك المشاعر هى التى حفزت اهتمامى بإجراء الأبحاث، والكتابة عن صورة إيران فى مدركات تلك المجتمعات، كبلد يمر بتغيرات على المستوى الداخلى، وأيضا من حيث دورها فى المنطقة وفى نطاق السياسة الكوكبية. وهكذا، شكلتْ أبحاثى الميدانية، وبخاصة حوارتى، جزءا مهما من تحليلاتى.


@Ahmedyassin90

مقدمة

مهمتى فى كتابى هذا مزدوجة. أولا، سأناقش ديناميات السياسة الداخلية فى إيران منذ عام ١٩٧٩. فعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة، بزغت إيران كدولة دينية/ سياسية – أى دولة دينية ذات تركيز كبير على الأيديولوجيات القومية والمعادية للإمبريالية. سيوضح تحليلى لإيران منذ عام ١٩٧٩ أن التناقضات المتأصلة فى الدولة الإسلامية آخذة فى العمل على تغيير حدود الإسلام المحافظ وفى سبيلها لأن تؤدى إلى ظهور حركة ديموقراطية مهمة.

ثانيا، أناقش المدركات الكوكبية والإقليمية عن سياسة إيران الخارجية منذ ثورة عام ١٩٧٩ والتى اكتسبت تأييدا لدى غالبية شعوب الشرق الأوسط. سأحاول تقديم الحجج على أن تأثير إيران ونفوذها يعكسان كيف أن الجماعات المتنوعة فى البلدان المختلفة ترى سياسة إيران الخارجية نقيضا لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. وعلى الرغم من تنوع الهويات الدينية والقومية، تتماهى غالبية الشرق الأوسط مع موقف إيران ضد الولايات المتحدة وإسرائيل فى مواجهة ما يسمى «الحرب على الإرهاب»، والنيوليبرالية، وتوجهات المحافظين الجدد، والصهيونية.

يضع هذا الكتاب ديناميات سياسة إيران الداخلية، وأثر إيران ونفوذها فى لبنان والعراق وفلسطين ومصر، يضعها فى السياق الأوسع للكلونيالية والإمبريالية والصهيونية. واستنادا على ذلك، يناقش تأثير

التطور الاجتماعى/ الاقتصادى، والتوجهات القومية والإسلامية، والمسار السياسى لتلك التجارب التى أنتجت تغيرات متمايزة فى كل من تلك المجتمعات. وفى هذا السياق، أناقش سقوط اليسار العلمانى، والقوميين العلمانيين، وأوضح خطوط صعود التيار الإسلامى كقوة بديلة، يقتضى هذا تفحص تناقضات الإسلام السياسى وأوجه قصوره وطبيعته الدينامية، وذلك لأن تلك العوامل المتعددة كان لها عميق الأثر على الديناميات الداخلية لإيران، وعلى نفوذها وتأثيرها فى أنحاء الشرق الأوسط.

ديناميات إيران الداخلية:

يصور غالبية الباحثين الغربيين إيران على أنها مجرد ظاهرة دينية «أصولية» ويتجاهلون الإنجازات الاجتماعية/ الاقتصادية الملموسة جداً

على أرض الواقع والتى أنتجتها ثورة ١٩٧٩. يعتبر إنكار هذا الجانب من تطور إيران خطأ، لأن هذا التحول الاجتماعى/ الاقتصادى هو الذى أتى بالحركة الديموقراطية القوية بما فى هذا حركة حقوق المرأة، والنشاط الطلابى والنقابى.

ظل هناك طوال سنوات القرن العشرين الأخيرة وحتى يومنا هذا نقلات وتغيرات متناقضة فى اقتصاد إيران ومجتمعها. فى أعقاب ثورة عام ١٩٧٩، قامت الدولة الإسلامية بتوزيع الثروة، ووفرت الرعاية الاجتماعية لغالبية الإيرانيين. مثّل هذا نقيضا لما كانت عليه الأمور، فى دولة الشاه العلمانية المؤيدة للغرب فى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، والتى عملت على إثراء نخبة صغيرة ولم تقم بتنمية بقية البلد. يعتمد الاقتصاد الإيرانى على عائدات النفط التى تمثل ٨٠٪ من مجموع دخل الدولة.

منذ التسعينيات شهدت إيران تنمية اجتماعية/ اقتصادية وبشرية مستدامة وواسعة المدى. أدى النمو الاقتصادى إلى التحضر (زيادة نسبة المدن بمعدل ٧٪) ومعدل أعلى للإلمام بالقراء والكتابة والقضاء على الأمية (٨٩٪ داخل المناطق الحضرية و٧٥٪ فى المناطق الريفية) وإلى ظهور الطبقة العاملة الحديثة. أصبح تواجد مجموعات الشباب السكانية المتعلمة المندمجة عرقيا، ذات المستويات المختلفة من التدين والعلمانية أصبح مرئيا ملموسا، ومعه مشاركة متزايدة للنساء فى الحياة العامة. تتحدى مثل تلك المجموعات الدولة التى كانت السبب فى وجودهم.

أدى التحسن النسبى فى الصحة والتعليم والعمالة إلى زيادة الوعى الاجتماعى/ السياسى لدى أفراد الشعب، وإلى ارتقاء طموحاتهم، أدى هذا بدوره إلى مزيد من تطور التنظيمات النسائية والطلابية والعمالية.

ديموقراطية القاعدة فى إيران:

فى التسعينيات أدت الضغوط من أسفل إلى انتخاب حكومة محمد خاتمى الإصلاحية (١٩٩٧- ٢٠٠٥). كانت هذه فترة توسع تنظيمات المجتمع المدنى وتمكينها، ومعها الإعلام والحركات الاجتماعية. نادت العناصر الأكثر تقدمية داخل الحركة الإصلاحية بانتشار جماهيرى للديموقراطية، ويعتبر الإسلاميون الحداثيون Roshanfekrane Dini جزءا مهما من هذه الحركة. يؤمن هؤلاء بجدلية العلاقة بين العقيدة والمعرفة ويتبنون انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة. يقترحون، فى سياق التوجهات الفردانية، والديموقراطية وحقوق الإنسان، فصل القيم الدينية عن الواقع العلمانى.

منذ نهاية الحرب الإيرانية/ العراقية (١٩٨٨) تبنت جميع الحكومات، على المستوى الاقتصادى، النيوليبرالية والخصخصة والاندماج مع الاقتصاد الكوكبى فى ظل تحكم الدولة القوية. أدى انتهاء بنية الدولة التدخلية منذ منتصف التسعينيات إلى ارتفاع معدل البطالة وتراجع جودة الخدمات الاجتماعية وانخفاض مستوى المعيشة. فى عام ٢٠٠٥ تم فوز المرشح الرئاسى أحمدى نجاد على أساس برنامج انتخابى يقوم على مكافحة الفقر والفساد. بيد أنه، فمنذ آنذاك، تنامى الفقر والفساد، والخصخصة تحت تحكم الدولة[١]. فاقمت تلك المشاكل الاقتصادية

(١) يرى بعض المراقبين والمتخصصين فى الشأن الإيرانى والشئون الدولية، مثل جيمس بتراس أنه، على حين أن معدل البطالة قد ارتفع فى المراكز الحضرية الثرية، فقد انخفض فى المناطق الريفية والفقيرة حيث تقوم الدولة بدعم الصناعات الصغيرة والمنزلية، والأنشطة الزراعية كما أنه لابد من أخذ العقوبات الاقتصادية والحصار المفروض على إيران فى الاعتبار كسبب فيما تعانيه إيران من مشاكل اقتصادية واجتماعية. (الترجمة).

ومعها القمع السياسى ما يشعر به قسم كبير من السكان من مظالم، حيث أوضح هؤلاء استمرار معارضتهم التى بدأوا فى التعبير عنها فى تظاهرات ما بعد انتخابات ٢٠٠٩.

دعم عدد من رجال الدين البارزين الحركة من أجل الحقوق الديموقراطية. فى أعقاب ثورة ١٩٧٩ رأى كل من آية الله العظمى مطهرى (١٩٢٠- ١٩٧٩) وآية الله العظمى منتظرى (١٩٢٢- ٢٠٠٩) أنه بالإمكان فصل الفكر الدينى والجماعة الدينية عن السياسة وسلطة الدولة. وبعد ذلك، تحدى رجال دين منشقون، وصحفيون، وأكاديميون وهؤلاء الذين رأوا أنفسهم «مفكرين متدينين جداً»، تحدوا الأرثوذكسية المهيمنة. تبنوا الدعوة إلى انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة، مما يعني واقعيا الفصل بين القيم الدينية والواقع العلمانى. يعتقدون أنه بالإمكان إنجاز نظام حكم إسلامى عادل تسود فيه العدالة وحقوق الإنسان. وكما يرى والى نصر، فإن خطاب رجال الدين الإيرانيين هؤلاء يماثل خطاب آية الله العظمى حسين فضل الله، المرشد الروحى لحزب الله فى لبنان، وآية الله العظمى السيستانى فى العراق، حيث ينادى هؤلاء المؤدلجون الشيعة بإحياء مفهوم «حلقة الوصل بين التعاليم الدينية ومتطلبات العصر والمكان» والذى هو المفتاح لتأويل إسلامى للتطورات والملابسات الحديثة، والقوى التى تعمل على تشكيل خطاب الديموقراطية فى الشرق الأوسط.

ثمة إشكالية تحيط بمفهوم الديموقراطية الذى يعنى فى هذا الكتاب النضال ضد الاستبداد وترسيخ الحقوق الديموقراطية والفردية. فى بداية القرن العشرين، ثار جدل فى أوساط الحركات المختلفة فى إيران التى كانت تشمل القوميين والشيوعيين والليبراليين والإسلاميين حول قضية

الديموقراطية وفقاً لأيديولوجيات كل منهم. بيد أن ظاهرة نشطاء المجتمع المدنى، التى بدأت فى أواسط التسعينيات، هى ظاهرة جديدة. يسعى غالبية الإيرانيين إلى إيجاد توازن بين سلطة مؤسسات الدولة وبين المجتمع المدنى من أجل ضمان الحكم الصالح والمحاسبة، والحريات الجمعية والفردية وتحديد مكان الدين فى السياسة.

يعتقد الغالبية فى انتشار الفكر الأيديولوجى الحديث فى سياق إيران والإسلام. يرفضون، فى هذا السياق، الثنائيات المتعارضة مثل «الحديث / التقليدى» و«الغرب / الإسلام» ، ويحرصون على عدم تحديد حركتهم بصفتها مجرد تابعة لـ «الثقافة الغربية» أو محاكية لها. ذهب اليسار العلمانى والقوميون داخل هذه الحركة إلى ما هو أبعد من ذلك ورأوا أن الديموقراطية لابد أن تضم تمثيلاً أكبر للتنوع الاجتماعى فى إيران.

من ثم، وكما رأينا، فإن الحركة الديموقراطية فى إيران قوة قاعدية فاعلة. وعلى الرغم من محاولات الحكومات الغربية فرض «تغيير النظام» من خلال عمليات سرية وتمويلات لـ «الديموقراطية بالأسلوب الأفغانى والعراقى» فإن حركة الديموقراطية – تحت مظلة الحركة الخضراء التى انبثقت فى أعقاب انتخابات ٢٠٠٩– مستقلة ولن يستغلها العملاء الأجانب أو يتلاعبون بها. كانت أهداف ثورة ١٩٧٩ هى الاستقلال والحرية والعدالة. أنجز الاستقلال، بالنسبة للغالبية، مع الإطاحة بنظام الشاه الذى كان قد أبقى على إيران دولة عميلة تابعة للولايات المتحدة. فى ظل الجمهورية الإسلامية، مازال النضال مستمرا من أجل الديموقراطية، مع دعوات إلى التضمين السياسى، وزيادة الحريات المدنية والفردية.

سياسة إيران الخارجية فى الشرق الأوسط:

منذ ثورة ١٩٧٩، وعلى الرغم من التوتر بين القومية الإيرانية والعربية

ووجود المذهبين الشيعي والسنى، علاوة على أشكال متنوعة من التدين والعلمانية، ظلت السياسة الإيرانية الخارجية تحظى بالشعبية لدى غالبية جماهير الشرق الأوسط. كثيرا ما ذكّرنى من حاورتهم بالمثل الشعبى «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب». يناقش هذا الكتاب، بتفحصنا للعلاقة الدينية/ السياسية بين إيران ولبنان، وإيران والعراق، وإيران وفلسطين وإيران ومصر، يناقش السياق الإقليمى للدولة الدينية/ السياسية الإيرانية: سبب بزوغ إيران كقوة فى هذه المنطقة مع إمكانية تأثيرها، فى الوقت المناسب، فى السياسة الإقليمية والكوكبية. بؤرة التركيز هى على تعقيدات القوميات والأديان، وبخاصة التأويلات التاريخية لثنائية السنة/ الشيعة والهويات العربية الإيرانية، المسلمة، الشيعية السنية، غير المسلمة، والعلمانية والمُهجنة.

شعوب الشرق الأوسط غير مطلعين على الواقع الإيرانى. يتحدث العالم العربى بالعربية. فيما يتحدث الإيرانيون بالفارسية، من ثم، لا يوجد سوى قليل من التواصل بين العرب والإيرانيين. قد يتشارك المثقفون فى المنطقة استخدام اللغة الإنجليزية، بيد أن العاديين يميلون للتواصل مع بعضهم من خلال مُدركهم المشترك عن دور أمريكا وإسرائيل فى المنطقة. سيوضح هذا الكتاب كيف أن سبب شعبية إيران فى لبنان وفلسطين ومصر هو ببساطة أنها الدولة الوحيدة فى المنطقة التى تدعم الفلسطينيين واللبنانيين، فيما تعارض الصهيونية والسياسات الغربية – وبخاصة سياسات الولايات المتحدة فى المنطقة[١]. هذا على الرغم من أن إعلام التيار الرئيسى للدول العربية وسياسييها يصورون إيران على أنها تهديد من دولة شيعية غير عربية للعالم العربى السنى.

(١) تُغفل المؤلفة الموقف السورى الرسمى. (الترجمة)

بالطبع، فإن ثنائية الشيعة / السنة هى واقع تاريخى، ثقافى، فقهى وسياسى. لكن، وكما سأناقش فى هذا الكتاب، فإن هجمات إسرائيل على الفلسطينيين واللبنانيين قد عملت على التقريب بين تلك الجماعات وبعضها، وبينها وبين إيران. فهم ينظرون إلى إيران بصفتها حداثة إسلامية، نموذجا للممارسة الإسلامية الثورية؛ ولقوة الدولة الإسلامية ذات الإرث الطويل فى النضال الشعبى ضد الإمبريالية على أنها قوة للمنطقة.

بيد أنه فى حالة العراق، تنتقد غالبية شعوب الشرق الأوسط دور إيران هناك ويتشاركون كثيرا مع العراقيين الرأى فى أن صعود القيادات الشيعية فى العراق إلى السلطة هو نتيجة مباشرة لسياسة الولايات المتحدة حيث يرون أن أمريكا قامت بتدمير العراق لاستخدامه، بين أسباب أخرى، قاعدة لتهديد سيادة إيران. فى ظل تلك الملابسات، يرون أن إيران تناور من أجل التواجد فى العراق لمجابهة التهديد المحتمل من الولايات المتحدة وإسرائيل. من ثم، غدت العراق ميدان قتال للولايات المتحدة وإيران تتقاتلان فيه من أجل تسوية خلافاتهما وغدا العراقيون ضحايا لعلاقات متناقضة تقوم على الصراع والتواطؤ بين القوتين.

يناقش الكثيرون أيضا القمع السياسى فى إيران. فعلى الرغم من الدعم القوى الذى تتمتع به إيران فى لبنان وفلسطين ومصر، أثارت التظاهرات التى حدثت فى إيران فى أعقاب انتخابات ٢٠٠٩ التساؤلات من جانب اليسار العلمانى، والقوميين والإسلاميين فى هذه المجتمعات وبخاصة بعد أن شاهدوا الضراوة ضد المتظاهرين مما جعل الكثيرين يتعاطفون مع الحركة ويشعرون بعدم قدرتهم على الثقة بنظام لا يخضع للمحاسبة من قبل شعبه. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم، وفى وجود الدعم

الغربى والإسرائيلى، ودعم إعلام التيار الرئيسى العربى للحركة الديموقراطية فى إيران فإنهم يتساءلون عما إن كانت الحركة محاولة خارجية لزعزعة الوضع فى البلد. من ثم، كان الدعم المحدود والمبهم من الشعوب العربية للحركة الديموقراطية فى إيران. لقد احتكرت الدولة الإيرانية الموقف المعادى للإمبريالية والصهيونية ولا تسمح بأية مظاهرات أو تنظيمات مستقلة. ولهذا السبب، فإن حركة الديموقراطية الإيرانية، وفى معارضتها للدولة الإيرانية، أخطأت بعدم تعبيرها عن أى دعم للحركات المناهضة للصهيونية فى المنطقة، بل إنها، فى بعض الحالات، أبدت عداء للفلسطينيين واللبنانيين. وللأسف، فإن الانقسامات بين الحركات فى المنطقة ستعمل فقط على تقوية النظام الإيرانى، والأنظمة العربية، والغرب بسياساته القائمة على استراتيجية «فرِق تسُدْ».

فى تلك الأثناء، يُلقى دور إيران فى العراق، ومع القمع الداخلى، بالظلال على تلقى إيران الإيجابى فى المنطقة. وفيما يجرى إعداد هذا الكتاب للطباعة، فقد حلّت تركيا – وهى دولة علمانية تناصر الفلسطينيين – فى أعين الكثيرين محل إيران كبديل للدول العربية التى فقدت مصداقيتها بسبب موقفها السلبى من الصهيونية والإمبريالية.

صعود التيارات الإسلامية فى المنطقة:

يثير تحليل الديناميات الداخلية الإيرانية، والعلاقات الدينية/ السياسة بين إيران ولبنان، إيران والعراق، إيران وفلسطين وإيران ومصر، يثير التساؤلات عن السبب الذى أدى بالإسلاميين أن يترسخوا بصفتهم بديلا فى تلك المجتمعات. ما طبيعة هؤلاء الإسلاميين السياسيين؟ طوال خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وحتى بعد وفاة جمال عبدالناصر – أهم زعيم قومى عربى – لعب اليسار العلمانى والقوميون دورا رئيسيا

كحركات معارضة للأنظمة فى المنطقة وفى حشد الجماهير ضد الهيمنة الإمبريالية والصهيونية. بيد أن نمو الحركات الإسلامية أصبح جلياً فى أعقاب الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. والآن، وفى نهاية العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، غدا الإسلاميون قوة المعارضة المهيمنة بين الفقراء فى المدن، والمهنيين، والطلبة، والنساء، والعمال. لا يقتصر هذا التنامى فى التأثير والنفوذ على قيام دولة إسلامية فى إيران، وصعود حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين فى مصر، بل إن المنطقة كلها تشهد مدى من التنظيمات الإسلامية الأخرى، وتزايداً فى تأثير الكتاب والمفكرين والدعاة الإسلاميين غير المرتبطين بأية تنظيمات.

إن العملية التى انتقلت بها مقاومة الإمبريالية الأمريكية والصهيونية من اليسار العلمانى والقوميين إلى الإسلاميين لها دلالاتها. التوجهات الإسلامية ظاهرة اجتماعية/ سياسية، وبصفتها هذه، ينبغى فهمها من خلال التفسير التاريخى. علينا تعيين وضع الأيديولوجيات والتنظيمات الإسلامية داخل المجال السياسى وفهمها فى سياق القوى الاجتماعية الأوسع قوميا ودينيا وكوكبيا. يرى هذا الكتاب، باستخدامه التحليل التاريخى، أن ثمة عاملَيْن حددا صعود الإسلاميين: أولا، فشل اليسار العلمانى والقوميين فى تحقيق مؤازرة قاعدية؛ ثانيا، دعم الغرب للأنظمة الديكتاتورية.

ثمة تنويعة من اليسار فى الشرق الأوسط تتبنى تأويلات وقراءات مختلفة للماركسية. تاريخياً، كان ثمة نزوع للتمسك حرفياً بـ«الشيوعية السوفييتية والإرث الستالينى». كان الحزب الشيوعى الإيرانى، وبدرجة أقل، حزب توده الشيوعى الإيرانى، يتمتعتان بقاعدة جماهيرية وتمكنا

من تطوير تحالفات ناجحة مع الحركات القومية. وعلى الرغم من ذلك فشل الموروث الستاليني في أنحاء المنطقة في تطوير مشاريع سيطرة ناجحة في إيران. ولبنان والعراق وفلسطين ومصر، لأنهم، ولعقود، عوقهم خضوعهم الكلي لمجموعات حددوها بصفتها «البرجوازية القومية التقدمية»، أو امتناعهم عن الدعم الناقد لقوى مثل القوميين والإسلاميين الذين كانوا يتمتعون بتأييد جماهيري بين قطاعات المجتمع المقموعة. لم يدركوا أنه كان لمثل تلك القوى الإسلامية والقومية علاقات تواطؤ وصراع مع الإمبريالية والرأسمالية، أي أن موقف تلك الحركات المعادي للرأسمالية والإمبريالية كان يقتصر على استخدامه لحشد التأييد الجماهيري من أجل تذليل العقبات التي أوجدتها الرأسمالية الكوكبية للحيلولة دون قيام دول ومجتمعات مستقلة.

وكنتيجة لهذا، لم يدعموا تلك الحركات باسم الحفاظ على استقلالهم السياسي من أجل تأييد الجماهير القاعدية لأيديولوجياتهم. بعد ثورة ١٩٧٩، أذاب الشيوعيون أنفسهم في الدولة التي تماهوا معها بصفتها معادية للإمبريالية، وفي مصر، أيدوا قمع نظام مبارك للإسلاميين.

تاريخيا، تماهت غالبية الشعوب في أنحاء الشرق الأوسط، في وجود ذاكرتهم الجمعية للماضي الإمبريالي، وفي مواجهة الهيمنة الغربية العدوانية، والصهيونية وخضوع أنظمتهم للولايات المتحدة، تماهوا مع التوجهات القومية المعادية للإمبريالية. بيد أنه لم يكن للاتحاد السوفييتي أي اهتمام بأحوال تلك المجتمعات الموضوعية ومن ثم منع الشيوعيين من إقامة تحالفات مناهضة للإمبريالية مع القوميين. نتيجة لذلك، ظهرت الانقسامات في صفوف الحركات الشيوعية وتشكلت جماعات منشقة. وعلى الرغم من أن بعضها تمكنت من البقاء بدرجات متفاوتة إلا أن

جميعها أُضعِفت بدرجة هائلة وتشتت. علاوة على ذلك، كان يهيمن على الاتحاد السوفييتى نخبة ثرية فاسدة من بيروقراطية الدولة تدير مجتمعاً تسوده عدم المساواة الحادة. كان يعنى هذا أن «الشيوعية» قد تخلت منذ وقت طويل عن دورها التقليدى كنصير للشعوب المقموعة فى جميع الأنحاء، وبخاصة فى المجتمعات الخاضعة للسطوة الإمبريالية الغربية. وكان هذا ينطبق بشكل خاص على الشرق الأوسط. قوض قرار ستالين الاعتراف بدولة إسرائيل والمساعدة فى تسليحها الحركات الشيوعية فى أنحاء المنطقة، وهمش هذا الفشل فى فهم الصهيونية بصفتها من خلق الإمبريالية الغربية همّش بأسلوب حاد الإسهام الشيوعى فى تقدم المنطقة وتنميتها وتغييرها.

تاريخيا، ظلت القومية والتحرر من الإمبريالية متداخلتين فى المنطقة. كانت القومية ومعاداة الإمبريالية فى العالم العربى تعززان الدعوة إلى الوحدة العربية. ومنذ الخمسينيات أدمجت القومية العربية معاداة الصهيونية وبناء الأمة والوحدة العربية فى أيديولوجيتها، وكانت مصر فى قلب القومية العربية فى الخمسينيات والستينيات. من ثم، اعُتبِرت هزيمة إسرائيل لمصر فى حرب ١٩٦٧ هزيمة للقومية العربية، وبحلول التسعينيات كانت مصر قد تخلت كلية عن أى مسعى للوحدة العربية وتحرير فلسطين، ونجحت إسرائيل والولايات المتحدة فى عزل مصر عن العالم العربى. يرى المحللون أن هدف الولايات المتحدة هو الإبقاء على العالم العربى منقسما. كان للتحالف الأمريكى الإسرائيلى واستيعاب غالبية الدول العربية والدولة الإيرانية قبل ١٩٧٩ فى هذا التحالف أثر مدمر على القومية فى المنطقة. كما أدت سياسات الباب المفتوح الاقتصادية وتدهور الأوضاع الاقتصادية، واتساع فجوة عدم المساواة،

وفشل الأنظمة القومية العلمانية وتأثير الثورة الإيرانية، أدت كلها مجتمعة إلى صعود الحركات الإسلامية والعداء الشعبى تجاه الحكام وداعميهم الغربيين، ثم أدى احتلال العراق عام ٢٠٠٣ إلى إنزال ضربة قاصمة أخرى بالقومية العربية.

من ثم، كان الدعم الغربى للأنظمة الديكتاتورية فى المنطقة ومعه السياسات العدوانية الغربية/ الإسرائيلية هى العامل المهم الثانى فى انتهاء اليسار العلمانى والحركات القومية وصعود المجموعات الإسلامية الهامشية التى تتبنى العنف والتطرف. بيد أنه، يرى المحللون أن التطورات التاريخية للحركات الإسلامية، والسياق الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى، وأيضا مختلف العوامل الإقليمية والكوكبية كان لها جميعها أثرها على التنظيمات وعملت على تغيير تركيبتها الاجتماعية وحددت طبيعة الإسلام السياسى.

التغيير فى الإسلام السياسى:

يتخذ الإسلام السياسى أشكالا عديدة. وعلى الرغم من ذلك، يصفه الخطاب السائد للسياسيين الغربيين، والإعلام الغربى وبعض الأكاديميين على أنه «معاد للديموقراطية»، «إرهابى» و«أصولى» يتجاهل هذه النظرة وجود التناقض والتغييرات، وتختزل جميع أشكال التوجهات الإسلامية إلى هوية سياسية رجعية. ومن خلال منهج نقدى، يحدد هذا الكتاب موقع الإسلام السياسى فى إيران، لبنان، العراق، فلسطين ومصر داخل سياقاتها التاريخية والسياسية/ الاجتماعية. يذهب هذا الكتاب إلى أنه ينبغى التمييز بين التوجهات المختلفة داخل التيار الإسلامى، بدلا من خلطها والحكم عليها بأنها أصولية ومعادية للديموقراطية وإرهابية. إن تصوير الشرق الأوسط ذى الغالبية المسلمة،

على أنه كتلة صماء جامدة، وتصوير الإسلام بصفته ثقافة وديناً غير قابلين للتغيير، يتجاهل التغيرات الاجتماعية/ الاقتصادية والاجتماعية/ السياسية فى تلك المجتمعات، وبخاصة الحركات التى تناضل من أجل الإصلاح. وكما يبين هذا الكتاب، فإن تلك العوامل الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية هى التى تحدد ثقافات تلك المجتمعات بأكثر ما يحددها الدين، تتجاهل النظرة إلى تلك المجتمعات بصفتها دوغماتية جامدة تتميز بالعنف مقارنة بالعلمانية الغربية، تتجاهل وجود تلك الملامح ذاتها فى المجتمعات العلمانية وتنكر قدرة الإسلاميين على تأويل أحكام الشريعة الإسلامية بما يتفق مع التطورات الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية. وفى هذا السياق فإن خطاب «صراع الحضارات» الذى طرحه صمويل هنتنجتون (١٩٩٨) وبرنارد لويس (٢٠٠٣)، الذى يرى وجود صراع بين الإسلام المعادى للحداثة وبين الحداثة الغربية، هو فى أفضل الأحوال خطاب تبسيطى وفى أسوئها عنصرى.

الحداثة عملية تحدث على مستويات مختلفة ويخبرها الناس بدرجات متفاوتة. توحى فكرة تعددية الحداثة بوجود عوامل مشتركة واختلافات بين تنويعة من الطرق إلى الحداثة وتتحدى الفرضيات القائلة بأنها ظاهرة غربية حصرية وأن أصولها غربية بالكامل. تُضمِر الحداثة أيضا تطورا رأسماليا، وقيام الدولة الحديثة، والتشريعات الدستورية، واحتكار السلطة على الشعب داخل إطار الدولة القومية، وتضمر أيضا إقامة مؤسسات مثل الجيش، والتعليم، والصحة، والتوظيف. والإعلام، مع ظهور طبقات مختلفة وعلاقات بطريركية. فى الشرق الأوسط، حدثت عمليات التطور الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى نتيجة للتلاقى بين الديناميات الداخلية والإمبريالية والكلونيالية، وأدى مزيج العوامل هذا

إلى تطور اجتماعى/ اقتصادى وسياسى غير متوازن نجم عنه استخدام الدول آليات وإجراءات قمعية فى بعض الحالات، مع تعزيز للإجماع والشرعية فى آن. مثلا، تتخذ الدولة الإيرانية إجراءات قمعية ضد معارضيها، وفى نفس الوقت تكتسب الإجماع والدعم من خلال سياستها الحازمة المعادية للإمبريالية والصهيونية والداعية إلى الوحدة الإسلامية.

وكما سنناقش فى هذا الكتاب، قُتل الآلاف من معارضى النظام السياسى فى الثمانينيات، كما تم قمع التظاهرات التى أعقبت انتخابات ٢٠٠٩، ومات عدد من الناس، وأصيب آخرون، واعتُقِل البعض، ووقعت بعض حالات التعذيب. يشكل هذا المستوى من القمع السياسى الوجه غير المقبول للإسلام السياسى الحديث. بيد أنه من المهم أن نبين أن مثل تلك الإجراءات القمعية حدثت فى ظل دولة الشاه العلمانية الموالية للغرب وإسرائيل كما أنها من ملامح الدولة السعودية الدينية المحافظة الموالية للغرب، وللدول العلمانية الموالية للغرب بالمنطقة مثل مصر(١). من ثم، لا يمكن الحكم على السياسات الإسلامية الحديثة بأنها بربرية وعنيفة كما تقترح أطروحة كتاب «صدام الحضارات». يرى عاصف بيات أن دولة إيران الإسلامية ليست نظاماً عتيقاً أو قبل حداثى، بل نظاماً أبوياً استبدادياً يمارس السلطة من خلال مؤسسات دولة حداثية(٢). وكما

(١) تحدث هذه الإجراءات، وبأسلوب أكثر ضراوة، فى روسيا فى قمعها للمعارضة الشيشانية، ناهيك عن الصين وغيرها (الترجمة).

(٢) ثمة تحفظات على هذه المقولة المرسلة. مثلا، يبين ناثان براون الباحث المتخصص فى الشئون الدستورية شرق الأوسطية أن جمهورية إيران الإسلامية هى أكثر الدول ديموقراطية فى المنطقة كما ورد فى كتابه «دساتير من ورق» الذى صدرت طبعته العربية عن سطور (الترجمة).

بينت الأحداث، فكلما قمعت أية دولة استبدادية الديموقراطية، تصاعدت المطالبات بها.

يرى هنتنجتون ولويس أيضا الإسلام بصفته العامل الرئيسى الذى يحدد تشكيل الدولة ويشوه المجتمع. يتعاطى هذا النهج مع المجتمعات ذات الغالبية المسلمة على أنها راكدة لا تتغير ويتجاهل قدرة منظمات وحركات المجتمع المدنى على تحدى الوضع القائم ومجابهة الأيديولوجيات المحافظة. وكما سنرى فإن منظمات المجتمع المدنى مثل الاتحادات النقابية ومجموعات النساء والطلبة والحداثيين الدينيين بخاصة، تتحدى الدول الاستبدادية مثل مصر وإيران. نشهد فى فلسطين ولبنان كيف تتحدى منظمات المجتمع المدنى المتنامية وداعموها، وبخاصة النشطاء الشباب المتعلمون والنساء- سياسات القيادات المحافظة حيث يناضلون ضد احتكار القيادات المحافظة للسلطة الدينية ومن ثم، يقومون بتحويل الحركات الإسلامية باتجاه الحداثة والتسامح والديموقراطية. وعلى سبيل المثال، فإن تنظيمات المجتمع المدنى فى العراق هى التى تقود المقاومة ضد الاحتلال وضد الحكومة التى تدعمها إيران(١). تدين هذه التنظيمات الإرهاب وتدعو إلى إنهاء الاحتلال ووحدة الشعب العراقى. تلعب النساء بخاصة دورا مهما فى توليد المعايير والشبكات والعلاقات المتبادلة ذات الأهمية القصوى فى بقاء الجماعات الأهلية مع وجود الصراع الطائفى والاحتلال الأجنبى.

يرى إسلاميون كثيرون أن الإسلام يتسق مع الأيديولوجيات الحديثة

---

(١) لعل الكاتبة تقصد المقاومة السياسية، إذ إن مقاومة الاحتلال على الأرض تضطلع بها مجموعات لا تشارك فى اللعبة السياسية وينتمى أفرادها إلى جميع أطياف المجتمع العراقى، وتتواجد غالبية قياداتها فى المنفى (الترجمة).

مثل الليبرالية والماركسية وما بعد الحداثة. ومن ثم يرون أن بإمكان الإسلام، ومن خلال الإصلاح، أن يستوعب التغيرات الاجتماعية والتقدم والحريات السياسية. لعب على شريعتى عالم الاجتماع الإيرانى، وخريج جامعة السوربون والذى استخدم المفاهيم الماركسية عن الطبقات ومعاداة الإمبريالية ومزجها بالخطاب الشيعى الإسلامى، لعب دورا حاسما فى نجاح ثورة ١٩٧٩. كان أحد الكثيرين الذين أسهموا فى الفكر الإسلامى الحديث أثناء الفترة الثورية فى إيران من خلال الإصرار على اتساق الإسلام والحداثة وعلى أنه بالإمكان تأويل المفاهيم الإسلامية بما يتفق مع الزمان والمكان. ومن هذا المنطلق، ترى الغالبية فى الشرق الأوسط ثورة عام ١٩٧٩ الإيرانية على أنها نتاج حركة جماهيرية حديثة ناجحة لها جذورها فى المناطق الحضرية، كما فهمت غالبية المجموعات الشيعية فى أنحاء العالم الإسلامى الثورة بصفتها ثورة إسلامية جامعة. من ثم، يرى كثيرون من أهل السنة فى أنحاء المنطقة الثورة الإسلامية الإيرانية وموقف البلد المعادى للإمبريالية والصهيونية كقوة إيجابية فاعلة ويأمل كثيرون فى محو الخط الفاصل بين المذهبين الشيعى والسنى والتحرك باتجاه مقرطة البلاد ذات الغالبية المسلمة. ووفقا للاله خليلى، فقد عزز حزب الله اللبنانى الصورة الثورية للمذهب الشيعى، حيث أدى كفاحه المتواصل ضد إسرائيل إلى انتصاره عليها. نتج عن هذا حفاوة شعوب المنطقة بحزب الله وإيران، كما تبنى أنصار حركة حماس استراتيجيتها.

تاريخيا، ظل الرأى القائل باتساق الإسلام مع الحداثة عنصرا ثابتا فى فكر أهل السنة والشيعة معا. كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨- ١٨٩٧) الذى وُلِد فى إيران وتلقى تعليما شيعيا، كان رائدا

للحداثة الإسلامية - عمل على تحويل الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا دينية/ سياسية مع التركيز على مجابهة الهيمنة الغربية. وبالمثل قاد محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥) ورشيد رضا (١٨٦٥- ١٩٣٥)، اللذان تأثرا بفكر الأفغانى، مدرسة فكرية حداثية إسلامية أصبحت مهيمنة بداية من سنوات القرن التاسع عشر الأخيرة. أكد الحداثيون الإسلاميون، بأساليب مختلفة، على اتساق الإسلام مع الحداثة، بما فى هذا اكتساب العلوم الحديثة، والمساواة بين النوعين، وتعليم النساء. كما كان حسن البنا وسيد قطب من أتباع الأفغانى وعبده ولعب كلاهما دورا مهما ضد الاستعمار البريطانى فى مصر.

منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، زاد زخم المفهوم الغربى عن «تهديد الأصولية الإسلامية» وأعاد توليد أيديولوجيا الإسلاموفوبيا العنصرية. اشتهر عن إدوارد سعيد (١٩٧٨) وليلى أحمد (١٩٩٢) نقاشهما النقدى للاستشراق كوسيلة للهيمنة الغربية. يفند هذا الكتاب، من نفس المنطلق، مفهوم «الأصولية الإسلامية» الغربى حيث ينظر إليه على أنه يحوّل تنوع التيارات الإسلامية إلى ظاهرة واحدة متجانسة ويختزلها إلى جوهر واحد، ومن ثم يعمل على تغذية الاستشراق والإسلاموفوبيا.

تتراوح التيارات الإسلامية اليوم بين الوهابية الجديدة (التى انبثقت عنها القاعدة) والجهاديين المعادين للشيوعية (الذين صنعتهم السى آى إيه ودعمتهم ليقاتلوا الاتحاد السوفييتى فى الثمانينيات) وتبعتهم حركة طالبان، إلى تيارات الوحدة العربية والوحدة الإسلامية التى يمثلها الإخوان المسلمون[١] وحزب الله. أظهر الإخوان المسلمون وحزب الله وحماس قدرتهم على طرح سياسات تتيح الطريق لتقدم مجتمعاتهم ككل،

(١) لا يدعو الإخوان المسلمون جميعهم إلى الوحدة العربية. (الترجمة)

ولهذا السبب فهم يتمتعون بشعبية بين غالبية الجماهير شرق الأوسطية إلا أنه ليس بوسع طالبان أو القاعدة تبنى مشروع كهذا، فهم يستمدون قوتهم بشكل أساسى من غزو أفغانستان، واحتلال العراق وجرائم الصهاينة فى فلسطين. من ثم، يناقش هذا الكتاب شكلا محددا من الإسلام المحافظ فى سياقه، وبالتقابل مع هذا التيار المحافظ يناقش شكلا محددا من الإسلام الإصلاحى الليبرالى الديموقراطى فى سياقه داخل إيران وفلسطين ولبنان ومصر ويذهب إلى أن الأوضاع الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية مازالت ماضية فى تغيير الحدود التى تفصل الإسلام المحافظ عن الإسلام الليبرالى الديموقراطى فى كل من إيران وفى أجزاء أخرى من المنطقة.

يرى البعض أن كثيرا من المحللين بدءا من الماركسيين وحتى ما بعد الحداثيين، والكتاب الذين يتبنون مفهوم الشعبوية، قد تجاهلوا التحولات فى الإسلام السياسى، وهم بتبسيطهم تنوع الإسلاميين والتناقضات الداخلية داخل الحركات الإسلامية، يتجاهلون ديناميات التغيير الداخلية. وكما يذهب هذا الكتاب، فإن الإسلاميين فى إيران، وتنظيمات حزب الله وحماس والإخوان المسلمين لا يختلفون عن بعضهم فحسب، بل إن لدى كل منهم تناقضاته المتأصلة وصراعاته الداخلية. بيد أن العامل المشترك بينهم هو أنهم، وفى غياب اليسار العلمانى والقوميين، فقد تمكنوا من كسب تأييد غالبية شعوب المنطقة وحشدهم ضد الإمبريالية والصهيونية. لا ينحصر دعمهم على أوساط «طبقة صغار البرجوازيين» أو «التجار الرأسماليين»، إذ إنهم يتمتعون بالتأييد بين الفقراء والأغنياء، والعمال والرأسماليين، والنساء والطلبة، ولدى جميع هؤلاء مصالح متعارضة. تبين روايات حزب الله اللبنانى، وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين

فى مصر، فى هذا الكتاب أن تلك التنظيمات قد تغيرت بمرور الوقت، وأن تلك المجموعات الإسلامية المتنوعة تسعى بأساليب مختلفة إلى إيجاد تسوية مع التوجهات الديموقراطية.

يدعو عاصف بيات هذه الحركات «الإسلام الاجتماعى» ويبدو هذا المصطلح مفيدا لأن تلك الحركات تساهم فى الخدمات الاجتماعية - توفير الرعاية الصحية والتعليم والمساعدات المالية للمحرومين. كما أنها تشترك فى تنمية المجموعات المحلية وإيجاد شبكات اجتماعية من خلال نشطاء التنظيمات غير الحكومية. وفى هذا السياق، فإن «الإسلام الاجتماعى» سياسى أيضا: لا تشارك هذه الحركات فقط فى توفير الموارد، بل إنها أيضا تكسب تأييد غالبية شعوبها من خلال عملها كبدائل سياسية وثقافية واقتصادية للأنظمة التى تكرس للنيوليبرالية والسلطوية والصهيونية والإمبريالية، من ثم تعبر عن صراعات شرائح عريضة من الحضريين فى مجتمعاتها.

أيضا، فإن اشتراك تلك المجموعات فى السياسة الانتخابية كتنظيمات سياسية حديثة يحمل دلالات مهمة، إذ إنها، وبصفتها هذه، قد كسبت تأييد شرائح مهمة من مجتمعاتها، وبخاصة بين النساء والشباب. منذ السبعينيات، ظلت جماعة الإخوان المسلمين تتحدى الدولة المصرية وحزبها من خلال الانتخابات وقد كسبت تأييدا بين النقابات المهنية والمجالس المحلية. كما عمل حزب الله منذ الثمانينيات باتساق ومنهجية، على كسب دعم الغالبية بين مختلف المجموعات فى لبنان من خلال المشاركة البرلمانية والاندماج فى السياسة اللبنانية. احتذت حماس حذو جماعة الإخوان وحزب الله وشاركت فى العملية الانتخابية حيث فازت بغالبية أصوات الفلسطينيين من جميع التوجهات والفصائل.

بيد أنه، ووفقا لأطروحة هذا الكتاب فإن من المحتمل للمواقف المعادية للإمبريالية والصهيونية التى ألفت بين النظام الإيرانى وحزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين فى مصر، من المحتمل لها ألا تدوم طويلا فيما تدخل هذه التنظيمات فى علاقات معقدة للتعاون والصراع مع قوى النيوليبرالية والإمبريالية[1]. فى غياب اليسار العلمانى والحركة القومية، تتمتع هذه التنظيمات بدعم شعبى تحشده من أجل تذليل العقبات التى أوجدها الغرب فى الطريق لإقامة دول ومجتمعات مستقلة فعليا داخل إطار الرأسمالية الكوكبية. وعلى الرغم من أوجه قصوره، فإن هذا المسار إيجابى بقدر ما ينتج طريقا لعملية ديموقراطية توفر أرضية اختيار لمختلف الأيديولوجيات والتيارات السياسية لتثبيت قيمتها وأهميتها.

مع الأخذ فى الاعتبار معاناة شعوب المنطقة على أيدى الأنظمة الاستبدادية وإسرائيل والغرب فقد قام نجاح الحركات الإسلامية السياسى على أساس جمعها بين الطموحات القومية ومعاداة الإمبريالية والتأويلات الحديثة للإسلام. وكما يرى عاصف بيات فإن الأديان ليست ديموقراطية أو غير ديموقراطية بطبيعتها حيث يتوقف أمر مقرطة المجتمعات الإسلامية على قناعات الشعوب وإرادتها للصراع من أجل الديموقراطية، لا على جوهر الإسلام.

وكما يذهب هذا الكتاب، فإن غالبية الإسلاميين فى إيران ولبنان والعراق وفلسطين ومصر، من أفراد وجماعات وحركات، قد اعتنقوا فكرة الديموقراطية الإسلامية. يرون فى الإسلام أيديولوجيا لمقاومة القمع والهيمنة السياسية السلطوية.

---

(١) من المستبعد جدا بل يكاد يكون من المستحيل، أن يدخل حزب الله اللبنانى فى علاقات تعاون مع تلك القوى (الترجمة).

تعتبر حالة «المفكرين المتدينين الجدد» فى إيران مهمة بخاصة لأنهم متقدمون عن نظرائهم فى لبنان وفلسطين ومصر. يعتقدون أنه ليس بإمكان الدين فرض شىء على إرادة الشعب، الأحرى أن دوره فى السياسة ينبغى أن يكتسب الشرعية من خلال التأييد الشعبى الذى سيفتح الطريق، ليس فقط للقوانين والأحكام الإصلاحية بل أيضا لإقامة حركة اجتماعية متجذرة فى الديموقراطية.. يتواجد هؤلاء المفكرون الجدد داخل النظام وخارجه، وهم على استعداد غالبا للتحالف مع العلمانيين والقوميين الديموقراطيين واليسار ولديهم قاعدة دعم شعبى أوسع كثيرا من الحركات الديموقراطية الأخرى.

بيد أنه، فمن المعقول القول إن حركة المعارضة السياسية المصرية هى التى أوضحت الطريق قُدُماً من خلال العمل السياسى المشترك، ومحاولة التنسيق بين اليسار والقوميين والإسلاميين. وعلى الرغم من وجود عداوات معينة بين تلك المجموعات المتنوعة، فقد بزغ جيل شاب منفتح على التعاون يقوم بالتخطيط الواقعى لمقرطة المجتمع من خلال حملاته ضد الهيمنة الغربية ومعارضته القمع السياسى الذى يمارسه النظام المصرى. وهم يبرهنون من خلال دعمهم للعراقيين والفلسطينيين واللبنانيين على أنه فقط، ومن خلال الإضعاف الكوكبى لعلاقات الهيمنة، يصبح بالإمكان خلق مساحة للديموقراطية عن طريق النضال الجماهيرى. تاريخيا، ظلت النظم السلطوية فى الشرق الأوسط تقاوم التغيير السياسى. وعلى الرغم من ذلك فإن الحركات المعاصرة فى المنطقة ماضية فى تغيير مجتمعاتها من الداخل. كان للغرب والصهيونية أثر مدمر على الحركات الديموقراطية مما أدى إلى تقوية الإسلاميين المتطرفين من أمثال القاعدة وطالبان. يعتمد مستقبل الديموقراطية فى

إيران والمنطقة على تحدى السياسات المحلية والهيمنة الإمبريالية أيضا، وعلى طمس الخط الفاصل الآخذ فى الاتساع بين الغرب والعالم الإسلامى.

فصول هذا الكتاب:

يبحث الفصل الأول فى الأسباب والموروثات التاريخية لثورة عام ١٩٧٩ فى إيران ويستعرض اللاعبين الرئيسيين – النساء، العمل، الإسلاميين القوميين، واليسار. يذهب إلى أن دعم الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا لنظام الشاه الديكتاتورى ومعه غياب الأفكار والاستراتيجيات المتسقة المقررة محليا لكسب دعم القواعد الشعبية أضعف اليسار العلمانى والقوميين وكان عاملا مساعدا فى ظهور التيار الإسلامى المحافظ فى السنوات التى تلت ثورة ١٩٧٩. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان ثمة حوار ومناظرات بين هؤلاء الذين رغبوا فى الحفاظ على الإسلام التقليدى المحافظ، وأولئك الراغبين فى اعتناق نموذج ديموقراطى حديث. زادت الحرب الإيرانية العراقية (١٩٨٠– ١٩٨٨) من شعبية الإسلام المحافظ فى إيران وفى أنحاء المنطقة مما أدى إلى تطور ممارسات القمع الداخلى، والسياسات الخارجية الإقليمية الشعبية.

يناقش الفصل الثانى تطور المجتمع الإيرانى فى التسعينيات ويدرس ظهور التحدى للإسلام المحافظ. يتفحص هذا الفصل ظهور الحركة الإصلاحية فى التسعينيات؛ ونضال الحركة الديموقراطية الذى مازال مستمرا (الاتحادات العمالية والنقابات، الطلبة، الأقليات الإثنية والدينية والنساء) فى ظل حكومة أحمدى نجاد منذ عام ٢٠٠٥، والتظاهرات التى أعقبت انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية. ينتهى هذا الفصل إلى أنه، وعلى

الرغم من الأشكال المحددة للأيديولوجيا المحافظة والقمع السياسى، ما زالت هذه الحركات مستمرة في نضالها حتى تتحقق الديموقراطية كاملة فى إيران.

يناقش الفصل الثالث التقسيم الشيعى/ السنى تاريخيا، وتغيير الخطاب الشيعى فى إيران: منذ صعود الشيعة إلى السلطة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر إلى تهميش رجال الدين الشيعة فى القرن العشرين، ومن استيلائهم على السلطة السياسية للدولة فى أعقاب ثورة ١٩٧٩ إلى التسعينيات حينما تحدى «المفكرون المتدينون الجدد» كجزء مهم من حركة الديموقراطية، حكم رجال الدين المحافظين. والهدف هو تحليل تضمينات الديناميات السياسية/ الاجتماعية الداخلية فى إيران بالنسبة للمنطقة.

يستعرض الفصل الرابع الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران ولبنان. يقترح أن ظهور حزب الله كان النتيجة المباشرة لاجتياح إسرائيل للبنان ولدعم الغرب لإسرائيل مما أدى إلى إضعاف اليسار العلمانى والحركات القومية وإلى صعود التيارات الإسلامية. ثم يناقش هذا الفصل كيف أن حزب الله، ومنذ بداية التسعينيات وبدعم من إيران، بدأ المشاركة فى السياسة الانتخابية. وكيف أنه يضطلع ببعض وظائف الدولة من خلال توفيره لبعض الموارد وكيف كسب تأييد غالبيته فى أوساط الطائفة الشيعية وأيضا الفلسطينيين السنة وشرائح من الطوائف المسيحية والدرزية. وفى هذا السياق فإننا نذهب إلى أن حزب الله، وعلى النقيض مما يراه عامة الغربيين، ليس امتدادا لإيران. فإن الشعبية التى يتمتع بها حزب الله بين غالبية من اللبنانيين هى رد فعل على حروب إسرائيل فى لبنان.

يتفحص الفصل الخامس الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران والعراق، وبخاصة علاقات الاستمرارية والتغيير بين طوائفهما الشيعية. نرى أنه، وعلى الرغم من الروابط الشيعية التاريخية بين البلدين، فإن غالبية شيعة العراق ظلوا، ومازالوا حتى اليوم، يتماهون مع التيارات القومية العراقية والعربية لا مع الشيعة الإيرانيين. إن صعود القيادات الشيعية إلى مواقع السلطة السياسية فى العراق لنتيجة مباشرة لسياسة الولايات المتحدة وحلفائها لـ «تغيير النظام» فى العراق. ونذهب أيضا إلى أن غالبية العراقيين بمن فيهم المجموعات الشيعية غير راضين عن الدور الإيرانى فى العراق وفى ظل التهديد الأمريكى والإسرائيلى لها تستغل إيران الوضع فى العراق لإلهاء البلدين عن هذه الهجمات. وكنتيجة لذلك، تحول العراق إلى فسيفساء من الفصائل المتناحرة وغالبية العراقيين إلى ضحايا للعنف.

يناقش الفصل السادس العلاقة بين إيران وفلسطين. توضح الخلفية التاريخية لقيام الدولة الصهيونية دعم الدولة الإيرانية فى ظل الشاه للصهيونية، وبالتقابل فقد عُكِست السياسة الإيرانية منذ ثورة ١٩٧٩. يذهب هذا الفصل إلى أن صعود حماس وتوليها السلطة كان نتيجة مباشرة لسياسات الولايات المتحدة والدولة الصهيونية فى المنطقة. بمنتصف التسعينيات، ظهرت حماس، التى تدعمها إيران، كحركة مقاومة. ومثل حزب الله، تُشارِك حماس فى العملية الانتخابية وتوفر الخدمات الاجتماعية. يشهد فوزها فى الانتخابات بوضوح على تأييد غالبية قطاعات المجتمع الفلسطينى (العلمانيين، والإسلاميين، والمسيحيين) للمنظمة. العلاقة بين إيران وحماس متعددة الجوانب سياسية، أيديولوجية وثقافية. ثمة كثير من النقد، وبخاصة من جانب

مؤيدى فتح – للدور الذى تلعبه إيران فى فلسطين، وأيضا فثمة نقد لدور إيران فى العراق وللقمع السياسى فى إيران. بيد أنه، وبالنسبة للغالبية، فإن إيران هى البلد الوحيد فى المنطقة الذى يتصدى للصهيونية وللسياسة الأمريكية.

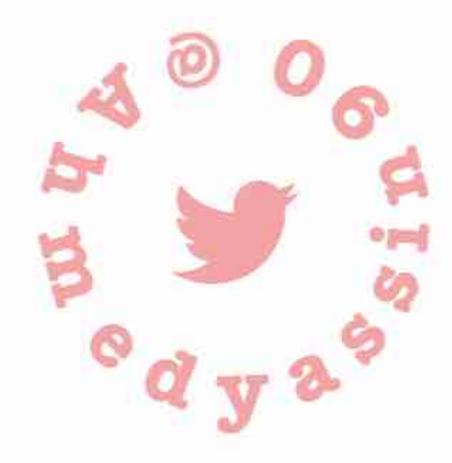
يتفحص الفصل السابع الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران ومصر. نرى أنه، ومثلما هو الحال فى إيران، اقتضى التطور الرأسمالى فى مصر الهيمنة الأجنبية. وكنتيجة لهذا شاركت قطاعات مختلفة– إسلامية، قوميون، شيوعيون، نساء وعمال وأقليات – فى النضال ضد الإمبريالية. أيضا، ومثلما هو الحال فى إيران، غدت التوجهات الإسلامية الحداثية ذات تأثير كبير فى مصر.

منذ بدايات القرن العشرين وحتى ثورة ١٩٧٩ قوت الدولتان العلاقات بينهما من خلال روابطهما مع الدول الغربية المهيمنة ومع إسرائيل(١). وبالمثل، فقد قوت الحركات المعارضة فى البلدين الروابط بينهما – فى مواجهة الحكام وداعميهم الغربيين؛ لقيت التوجهات القومية التى تبناها ناصر ومصدق التأييد من الشعبين. كان صعود الإسلاميين فى مصر نتيجة مباشرة لعدم قدرة اليسار العلمانى والقوميين على توفير البدائل. وعلى الرغم من اختلاف نظام الدولة والحركات فى مصر وإيران، إلا أن الإسلام السياسى فى مصر قد تغير وتماهى الغالبية مع الإسلاميين الديموقراطيين مثلما هو الحال فى إيران. بيد أنه، وبخلاف إيران، فإن الحركة من أجل الديموقراطية فى مصر تقود الطريق بانفتاحها على الحركات الأوسع فى المنطقة.

---

(١) لم يكن للنظام الرسمى فى مصر فى بدايات القرن العشرين وحتى معاهدة كامب ديفيد روابط مع إسرائيل. قامت تلك الروابط منذ نهاية السبعينيات بعد توقيع المعاهدة. (الترجمة)

فى الفصل الثامن أقوم بتحليل السياق الكوكبى للدولة الدينية/ السياسية والمجتمع الإيرانى. أرى أن عداء الغرب لإيران متجذر فى رغبته لعودة البلد لوضع الدولة التابعة العميلة للغرب كى يضمن هيمنته الاقتصادية والسياسية على المنطقة وينكر على إيران استقلالها. تعمل التهديدات المتواصلة بالحرب، والتدخل العسكرى، وفرض العقوبات وتمويل عمليات «تغيير النظام» تعمل على تقويض الحركة الديموقراطية فى إيران. وبالمثل، فإن عداء الغرب للحركات الإسلامية الحداثية سيعمق من العداء السياسى للغرب وللدول العميلة بالمنطقة، مما ينتج عنه فى نهاية المطاف تقوية التيارات الإسلامية المحافظة فى المنطقة وعلى المستوى الكوكبى.





-1-

الإرث الثورى

من المحال فهم خبرة ثورة ١٩٧٩ فى إيران وما تلاها من أسلمة الدولة والمجتمع قبل تفحص جذور التغيير فى القرنين التاسع عشر والعشرين. على الرغم من أن البلد لم يُستعمر أبدا، أو يُحكم رسميا بواسطة قوة أجنبية فإن التطور الرأسمالى فى إيران فى القرن التاسع عشر، ورغم أنه كان على قدر من التفرد، تشارك فى ملامح عديدة من التطور الاقتصادى غير المتوازن مع البلدان التى كانت واقعة تحت الاستعمار. وبشكل أساسى استند هذا التطور إلى حاجة السوق الرأسمالى الأوروبى لاستيراد السلع الإيرانية الأولية وتصدير السلع المُصنّعة إلى إيران.

بالتدريج، أدت زيادة التجارة مع روسيا وبريطانيا إلى تحويل الاقتصاد القائم على مقايضة السلع، إلى اقتصاد مالى. عمل نفوذ الرأسمالية الغربية على زيادة التجارة واستيراد السلع الأجنبية؛ وسارع هذا من تنامى سكان المدن والأنشطة غير الزراعية، والزراعة التجارية. غيّر الاشتراك فى السوق الكوكبى أنماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية التى كانت موجودة من قبل من خلال إعادة تنظيم العمالة إلى قطاعات العمال الأجراء (البروليتاريا) وشبه البروليتاريا وصغار منتجى السلع، وهى القطاعات التى مازالت قائمة حتى اليوم فى أشكالها العريضة.

أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فرضت بريطانيا وروسيا بنوكهما على إيران وبدأتا عملية استغلال غير مباشر بأن حصلتا على

«امتيازات» جباية الضرائب، واستخراج المواد الأولية، واحتكار المنتجات الزراعية لبيعها فى الأسواق نظير مبلغ تافه تدفعه لأسرة الشاه القاجارى الحاكمة. على سبيل المثال، فى عام ١٨٩٠، حصلت شركة بريطانية على احتكار إنتاج التبغ وبيعه وتصديره من إيران، وأثار هذا الامتياز الاستياء الجماهيرى، وتسببت الإضرابات وتفجر التظاهرات فى نجاح كبير للحملة ضد هذا الامتياز، وأدت هذه الأزمة إلى الثورة الدستورية ما بين عامى ١٩٠٦ و١٩١١ وما تبعها من سقوط الأسرة القاجرية الحاكمة. ترى فانسا مارتن (١٩٨٩) أن الثورة الدستورية شكلت جزءا من مسيرة للتغيير وصراعا بين النظام القديم والجديد.

ومع اكتشاف كميات كبيرة من مخزون النفط فى إيران عام ١٩٠٩،

أنشأت بريطانيا شركة النفط الأنجلو/ إيرانية لاستغلال ثروة البلاد الطبيعية التى اكتشفت مؤخرا. وأثناء الحرب العالمية الأولى، احتلت القوات البريطانية والروسية غالبية الأراضى الإيرانية مما أوجد معارضة شعبية منتشرة للقوات المحتلة. بيد أنه، وبعد الثورة الروسية، تخلى البلشفيك سريعا عن الامتيازات القيصرية ومنها الامتيازات المختلفة فى إيران. عمل هذا على تركيز الغضب الشعبى ضد بريطانيا التى كانت تتحكم فى النفط وتساند النظام المستبد الحاكم فى إيران. فى هذه الفترة، ارتبطت الحركة العمالية بالحركات الشيوعية فى إيران وروسيا ولعبت دورا مهما فى النضال ضد شركة البترول الأنجلو/ إيرانية.

فى ديسمبر عام ١٩٢٥، أعلن رضا بهلوى نفسه شاه أسرة بهلوى. وفى ظل النفوذ البريطانى، التزم بناء دولة علمانية حديثة، وتعزيز التوجهات القومية، واستلهام هويات إيران قبل الإسلامية وتقليص دور علماء الدين. تركز التطور الإيرانى فى هذه الفترة على تشييد البنية الأساسية إلى حد كبير، وكان هذا مرتبطا برغبة الشاه فى التحكم فى البلد بفاعلية من خلال الجيش، ورغبة الرأسمال البريطانى فى استغلال الموارد النفطية بسهولة، لكنه أيضا وضع أسسا للتطور الصناعى. قاومت مجموعات الفلاحين وقبائل الرّحل، الذين عانوا من تبعات إعادة التشكيل الاقتصادى، العلاقات الاجتماعية فى ظل رضا بهلوى أثناء الركود الكوكبى فى ثلاثينيات القرن العشرين حينما كانت التبادلات التجارية فى صالح إيران حيث كانت تُصدر البترول نظير سلع إنتاجية. كان اندماج إيران السريع فى الاقتصاد العالمى يعنى زواء الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضى وطبقة الملاك الوسطى من حيث سلطتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لتحل محلها البرجوازية

الجديدة والمهنيين الذين يعملون لقاء رواتب ثابتة. كان هدف رضا بهلوى من بناء الدولة هو العمل على مركزية سلطة الدولة وفرض التحكم الصارم على رجال الدين والمؤسسات الدينية. واكب عملية التنمية قمع ضارٍ شامل للمجموعات السياسية جميعها، من الشيوعيين إلى الليبراليين، ورجال الدين المعارضين، والاتحادات التجارية، والتنظيمات النسائية ومجموعات الأقليات الإثنية.

ظل سكان إيران دائما يتكونون من ثلثين من الفرس المتحدثين باللغة الفارسية (لغة إيران الرسمية) وثلث من مجموعات عرقية مختلفة (الآزار، الأكراد، العرب، البلوش، التركمان، الجيلاكى، القاشقاى، البختيارى، الشاهنسوان، واللور). دين إيران الرسمى هو الإسلام الشيعى، لكن ثمة أقليات دينية أخرى – المسلمون السنة، المسلمون الصوفيون، اليهود، الأرمن، الآشوريون، الكلدانيون، الزرادشتيون، والبهائيون. أُنكرت على هذه الأقليات، فى ظل الشاه، حقوقهم اللغوية والثقافية والدينية والإثنية – هذا علاوة على إنكار الحقوق المدنية على كل السكان. أدى هذا القمع إلى توّلد رغبة فى القتال ضد سلطة الدولة المركزية، وأرى أن هذه الرغبة قد أصبحت جزءا من الحياة السياسية فى إيران.

حينما وصل الركود الاقتصادى إلى إيران، تسببت الأجور المنخفضة، وساعات العمل الطويلة وبيئات العمل الرديئة فى انتشار حالة من التذمر. واجهت دولة رضا شاه، بتزايد المعارضة من قبل النساء والعمال وأيضا المجموعات الإثنية والدينية. غزت القوات البريطانية والروسية إيران عام ١٩٤١، لخوفهم من دعم رضا شاه للنازية، وأجبرت القوات المحتلة الشاه على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا شاه (الذى سيشار إليه من الآن فصاعدا بلقب الشاه) وعلى مغادرة البلد.

طوال الأربعينيات مضت المجموعات السياسية التى كان رضا شاه قد قمعها - القوميون الليبراليون، الشيوعيون، والإسلاميون - فى تنظيم صفوفهم وأتاحوا بذلك بدائل سياسية. فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٧، أنشأ محمد مصدق الجبهة القومية التى طالبت بإجراء انتخابات حرة، وتحسين الأوضاع الاقتصادية، وحرية الصحافة والحق فى المشاركة السياسية. فى عام ١٩٥٠، أدانت الجبهة القومية شركة النفط الأنجلو/ إيرانية لعدم دفعها جزءا كافيا من ريعها، ولتجاوزها الضرائب المحلية وتجاهلها، ورفضها تشغيل العمال الإيرانيين والتدخل فى شئون إيران السيادية القومية. ساند حزب توده الشيوعى، والإسلاميون مصدق وطالبت الجبهة القومية بتأميم شركة النفط. فى عام ١٩٥١، أدت التظاهرات فى الشوارع وإضراب عمال النفط إلى انتصار حكومة مصدق القومية وسياستها لتأميم النفط. ثم مضى مصدق، وبدعم من الجماهير، فى تحدى وضع الشاه، وبفعله هذا، أصبح أيقونة معاداة الإمبريالية، وبخاصة بالنسبة للمصريين الذين عانوا من هيمنة البريطانيين (انظر الفصل السابع).

كان تأميم إيران للنفط بمثابة ركوب موجة حركات معاداة الإمبريالية التى سادت المستعمرات السابقة والقائمة بدءا من الهند فى عهد نهرو إلى مصر جمال عبدالناصر وانتشرت فى أنحاء إفريقيا وأمريكا اللاتينية. كان رد فعل بريطانيا على التأميم هو استبعاد إيران من سوق النفط بشن حملة كوكبية لمقاطعة نفط إيران مما أدخل البلد فى أزمة مالية. نجحت السى آى إيه واستخبارات M16 البريطانية فى تدبير انقلاب ناجح فى إيران عام ١٩٥٣ أطاح بمصدق، ورسخ نظام الشاه الديكتاتورى. وبمساعدة الوكالتين، قمع الشاه بضراوة الجبهة القومية وحزب توده ومضى يحكم دونما معارضة منظمة.

شهدت سنوات الستينيات والسبعينيات، فى ظل الشاه، طفرة نفط اقتصادية ومعها هيمنة أمريكية على الحكومة. فى تلك الفترة، شهد الاقتصاد الإيرانى والمجتمع الإيرانى تحولات بسرعة وزخماً غير مسبوقين. كانت سياسة التصنيع التى حلت محل الاستيراد تعنى مراكمة الصناعات النفطية ثروة إضافية وحصولها على التكنولوجيا الغربية وتمويل التصنيع وتشييد البنية الأساسية ومصانع للتجميع وأيضا لصناعة المكونات الصناعية المختلفة. من ثم كانت الدولة - التى أصبحت دولة ريعية - تستمد جزءا أساسيا من دخلها القومى من نفطها عن طريق استخراجه على نطاق واسع وتصديره إلى البلاد الأخرى.

كانت دولة الشاه، بدعم غربى ومن الولايات المتحدة بخاصة، العامل الرئيسى لمراكمة رأس المال، لكن الدولة أيضا، كانت هى التى نظمت العلاقات الاجتماعية داخل عملية الإنتاج. ومن خلال نفوذ الدولة ورأس المال والدين، تراوح قدر إتاحة الموارد المالية والسلطة السياسية وفقا للطبقة الاجتماعية، والجندر والمجموعة الإثنية والدينية. فى تلك الأثناء أيضا، كان يحدث أنه كما ضعفت سلطة الدولة تقوم الجماعات المقموعة - العمال، النساء، الطلبة، الأقليات الدينية والعرقية بتنظيم نفسها وإجبار الدولة على الإصلاح. أجريت بعض الإصلاحات فى مجالات التعليم والصحة والعمالة وبعض حقوق العمال والأقليات العرقية والدينية وعلاقات الجندر. وعلى الرغم من ذلك ظلت عملية التنمية الاقتصادية غير متوازنة بنيويا ومكانيا. لم يُفد من التعليم العلمانى، وإصلاح القوانين وفرص العمل سوى أقلية ضئيلة.

أثارت الثروة النفطية توقعات عجزت الدولة عن تحقيقها، أو أنها لم ترغب فى تحقيقها. أدت سياسة التصنيع الذى يتطلب رأسمال كبيراً إلى

إهمال قطاعات الإنتاج الصغير والقطاع الزراعى. أدى ذلك إلى نمو سريع للمدن، وعدم المساواة فى الدخول والخلل الاجتماعى والاغتراب الثقافى. أنفق الشاه وعائلته الممتدة وأصفياؤه المقربون المسئولون عن الدولة ومؤسساتها أموال النفط بنفسه وبددوها فى مشروعات فخيمة مثل الاحتفالات السنوية الأسطورية بقيام الإمبراطورية الفارسية. أثار فسادهم، وأنشطتهم فى المضاربات العقارية والمالية، ومعها الإنفاقات الكبيرة على الجيش والشرطة السرية، ومؤسسات الطاقة النووية، والمشروعات العامة غير ذات الجدوى الاقتصادية، أثارت جميعها السخط الاجتماعى والسياسى على نطاق واسع. أقام نظام الشاه مقارا للسى آى إيه والموساد اللذين ساعدا على تدريب السافاك، أى رجال الشرطة السرية الإيرانية الذين مارسوا الإرهاب على الإيرانيين.

وفى تلك الأثناء، مضى غالبية السكان يعانون الفقر والقمع السياسى ولم تتح لهم أدنى فرص التعليم والرعاية الصحية والعمل، وفيما تعاظم القمع زادت قوة حركة الاحتجاجات وواجهت دولة الشاه الاستبدادية معارضة أكثر قوة من جانب النساء والعمال والطلبة والمجموعات العرقية والقوميين والشيوعيين والإسلاميين.

وفى النهاية، أنتجت الحركة المعادية للشاه، بين عامى ١٩٧٨ و١٩٧٩ ثورة سياسية واجتماعية أطاحت بنظام هو أكثر الأنظمة وحشية وضراوة فى الشرق الأوسط. حدثت الثورة فى سياق سخط مدنى عارم، وفوارق اجتماعية واقتصادية متنامية وغضب شعبى ضد القمع السياسى. كان اللاعبون الأساسيون فى الثورة هم النساء والعمال والإسلاميين والقوميين واليسار. بيد أنه سرعان ما اتضحت التوترات الأيديولوجية بين تلك المجموعات. أكانت تلك ثورة من أجل الديموقراطية؟

معاداة الإمبريالية؟ الماركسية؟ التوجهات الإسلامية؟ القومية؟ حقوق النساء والعمال والأقليات؟ بدأت الانقسامات أيضا تظهر داخل تلك المجموعات نفسها كل منها على حدة.

التوترات داخل الحركة الثورية:

النساء:

فى الستينيات والسبعينيات، وبرغم النمو الاقتصادى والإصلاحات فى مجالات تعليم المرأة، وتوظيفها، وخلع الحجاب والاختلاط بين الجنسين فلم تُفِد معظم النساء من تلك التغييرات وظللن يعانين وطأة الفقر، هذا على الرغم من أن أقلية منهن استفادت بل واحتلت بعض منهن مناصب مهمة. حافظت الدولة العلمانية على شرعيتها بعمل بعض التنازلات التى تتوافق مع الأيديولوجيا الدينية المحافظة والتقاليد، من ثم عملت هوية الجندر على الحفاظ على التراتبية بين الجنسين، وتقسيم العمل على أساس الجنس، ونتيجة لذلك، على إخضاع النساء.

تسببت العلاقة بين التطور الرأسمالى الموالى للغرب والأيديولوجيا الدينية المحافظة فى المعاناة لنساء الطبقة الوسطى التقليديات. كان عليهن تحمل الغربنة وأيضا مراعاة القيم الإسلامية المحافظة لعدم الاختلاط وارتداء الشادور وفقا لإملاءات أسرهن وبخاصة الأقارب الذكور الذين كانوا ينظرون لثقافة الحداثة الغربية على أنها غير مناسبة تماما لنسائهم. انقسمت هؤلاء النساء بين قيم أسرهن التقليدية وبين مجتمع خارجى يدعو للقيم الغربية بما فى هذا ارتداء آخر موضات الأزياء الغربية. حاولت الكثيرات حل المشكلة بالجمع بين تلك القيم المتنافرة. كنا يغادرن منازلهن مرتديات الحجاب ويخلعنه قبل الدخول إلى مدارسهن أو جامعاتهن أو أماكن عملهن. بيد أن الكثيرات اتخذن موقفا دفاعيا

وارتدين الحجاب كعلامة للاحتجاج على التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية غير المتوازنة أو العادلة. من جهة أخرى، فهؤلاء، بمراعاتهن تلك القيم والتقاليد دفعن الثمن بتصنيفهن على أنهن متخلفات فى مدارسهن و جامعاتهن وأماكن عملهن فى السبعينيات، تزايدت المشاركة السياسية الاحتجاجية للنساء بشكل لافت حيث أدركت الكثيرات منهن أنه طالما ظل الفقر والقمع فى إيران، ستظل النظرة الدونية إلى النساء مهيمنة. من ثم لعبت النساء دورا مهما فى النضال ضد نظام الشاه.

العمال:

زادت عملية التصنيع فى الستينيات والسبعينيات من أعداد العمال الصناعيين. وفيما ارتفعت الأجور الفعلية ارتفعت مستويات المعيشة إلى أن دهم الركود إيران فى عامى ١٩٧٧/١٩٧٨، حيث ارتفعت معدلات البطالة وهبطت مستويات الأجور. قام عمال الكهرباء والمياه، والمرافق الصحية، وصناعات النسيج، والإعمار، والآلات، وتجميع السيارات بالإضراب فى أنحاء البلاد مطالبين بزيادة الأجور، ونظموا التظاهرات ضد ظروف العمل المزرية، كما قام العمال، فى بعض أجزاء البلد، بتقوية تحالفاتهم مع رجال الدين المحليين. حينما أطلق رجال الشرطة الرصاص على المحتجين وأردوا بعضهم قتلى، اندلعت مزيد من التظاهرات بعد سبعة أيام من وفاتهم ثم أربعين يوما، وفقا لمقتضيات الثقافة الشيعية فى إيران، ومن ثم، مضت وفيات المتظاهرين تؤدى إلى دورات أخرى من التظاهرات تندلع كل أربعين يوما. نتيجة لهذا، بدأ الشاه يتحدث عن الإصلاح وعن درجة من الحرية السياسية. لكن إضرابات العمال استمرت ووقعت تصادمات فى الشوارع بين الأفراد العاديين فى أحياء الطبقة العاملة بالمدن وبين قوات الجيش. وكان كلما

زاد عدد القتلى فى تظاهرات الشوارع، انقلبت غالبية السكان ضد الشاه.

كانت الاتحادات العمالية، وبخاصة عمال النفط، قد لعبت دورا مهما فى تأميم النفط فى الخمسينيات. بيد أنه فى الستينيات والسبعينيات استُخدم مصطلح «النقابات» التى تُشرِف عليها الدولة بدل مصطلح الاتحادات. وفى حالات كثيرة، ارتبط ممثلو العمال بالساڤاك (البوليس السرى)، وقاموا بالتجسس على العمال وكتابة التقارير عنهم. لكن، وعلى الرغم من ذلك تزايد عدد تلك النقابات أُسيا إلى حوالى ٥١٩ نقابة عام ١٩٧٢ بدل ٣٠ نقابة فى نهاية الستينيات. ظل عمال كثيرون مقاتلين وعلى وعى طبقى بمطالبهم الاقتصادية. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعملون فى ظل نظام مستبد، فقد نجحت بعض الإضرابات وحصل العمال على حقوقهم فى التأمينات، والإجازات المرضية مدفوعة الأجر، ومعاشات لدى التقاعد، وبدلات بطالة.

فى سبتمبر وأكتوبر، انضم مزيد من العاملين، بما فيهم العاملون فى صناعات النفط من ذوى الياقات البيضاء والزرقاء إلى حركة الاحتجاجات مطالبين أيضا بالإصلاحات الاقتصادية والسياسية. توقفت الأعمال تماما فى البنوك والمدارس والسكك الحديدية والطيران الداخلى ومكاتب البريد والصحف والجامعات والمكاتب ومصافى النفط ومصانع السيارات. والعقاقير الطبية. ألهمت الإضرابات - وبخاصة مشاركة ٣٠٠٠ من العاملين فى مجال النفط، و١٠٠٠٠٠ موظف حكومى، و٥٠٠٠ من العاملين فى البنوك، ألهمت بقية السكان. تظاهر الناس فى المدن والقرى ضد نظام الشاه والساڤاك سيئ السمعة.

استجاب الشاه بتقديم غصن الزيتون، وأطلق سراح عدد من رجال

الدين المعتقلين وأعضاء حزب توده الذين كانوا قد ظلوا فى المعتقل منذ الخمسينيات. لكن الإضرابات استمرت وحلّت لجان للإضرابات محل النقابات وسيطروا على المصانع ومقار الأعمال. توقف جميع أفراد الجيش، الذى كان يتكون بالكامل من المجندين، عن إطلاق النار على المتظاهرين وانضموا إليهم.

وفى النهاية، بلغت الأحداث ذروتها فى فبراير ١٩٧٩، بإضراب عام، شمل إضراب ٧٠٠٠٠ من العاملين فى النفط، وسقوط النظام الملكى. بعد الثورة شكلت لجان الإضراب - التى كانت قد لعبت دورا جوهريا - القيادات الرئيسية لمجالس الشورى الجديدة، أو مجالس العاملين.

الإسلاميون:

كان آية الله الخمينى قد شجب نظام الشاه فى عامى ١٩٦٢ و١٩٦٣، بصفته فاسدا، لا ديموقراطيا، ولا يأبه لاحتياجات الشعب الاقتصادية، وهاجمه أيضا لمنح الولايات المتحدة «اتفاقية الامتيازات الأجنبية» التى اكتسب بمقتضاها الأمريكون العاملون فى إيران حصانة دبلوماسية. نتيجة لذلك، قام الشاه بإجبار الخمينى على الذهاب إلى المنفى فى العراق الأمر الذى أدى إلى أن يصبح الإسلاميون قتاليين بتزايد. كان الإسلاميون الحداثيون، وبخاصة آية الله تالغانى وآية الله مُطهرى، قد ذهبوا إلى أن الإسلام يتوافق مع الحداثة، وبإمكانه من خلال الإصلاح، أن يستوعب التغير الاجتماعى والتقدم والحريات السياسية.

كان الإسلاميون فى إيران حتى المحافظون منهم، مهتمين بالأفكار الثقافية الغربية بما فيها الفكر الماركسى. رأى آية الله تالغانى أن العدالة الاجتماعية الإسلامية تتفق مع الموقف الماركسى حول توزيع الملكية والثروة والموارد الأخرى، أما عالم الاجتماع على شريعتى، والذى جئنا

على ذكره فى المقدمة، فقد طرح رؤية أكثر توسعا هى مزيج من الإسلام والماركسية حيث رأى أن تعاليم الإسلام الخاصة بالعدالة الاجتماعية تتناغم مع الآراء الماركسية عن المساواة وتوزيع فائض القيمة والملكية الخاصة. تبنت منظمة مجاهدى خلق أيضا مزيجا من الماركسية والإسلامية. كانت لتلك الأفكار شعبية لدى الإيرانيين الذين راقهم الفكر الماركسى لكنهم كانوا أيضا يريدون الإبقاء على روابط ثقافتهم الشيعية. وعلى الرغم من أن على شريعتى توفى عام ١٩٧٧، فقد عملت أفكاره على حشد كثير من الإيرانيين وانضمامهم إلى النضال ضد دولة بهلوى. ألّفت الأيديولوجيا الثورية القائمة على أساس الفكر الماركسى والشيعى وكما عبر عنها شريعتى وتالغانى، ألّفت بين الغالبية العظمى من الإيرانيين من مختلف المجموعات العلمانية والدينية. أتاح موقف الإسلاميين الفكرى الذى انطلق من أسس ثقافية لهم حشد شرائح كبيرة من المجتمع بأكثر ما أتيح لليسار العلمانى والقوميين الذين لم يتمكنوا من جذب غالبية السكان إلى أفكارهم.

كان آية الله الخمينى، الإسلامى المحافظ والتقليدى، قد عارض فى الستينيات حق النساء فى التصويت. لكنه غير موقفه بعد ثورة ١٩٧٩ لأنه أدرك إسهام النساء فى الحركة الثورية، واعترف لهن بهذا الحق. وعلى الرغم من أنه، قبل عام ١٩٧٩، لم يتفق مع شريعتى على المزج بين الأفكار الإسلامية. والماركسية، إلا أنه، بعد الثورة ذهب إلى أن الأيديولوجيا والدولة الإسلامية ستعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية وتمكين الفقراء وتحرير إيران من الاستغلال الإمبريالى، ناقش الخمينى الفقه الإسلامى المتغير الدينامى Fiqh Poya وميز بين «الإسلام الأمريكى والإسلامى المحمدى». كان يعنى بالإسلام الأمريكى أنظمة المنطقة الموالية للولايات المتحدة وإسرائيل.

كما تصدى أيضا للإسلاميين المتخلفين فى ظل الشاه. نقد الأسلوب المحافظ فى النظر إلى تنظيم الأسرة والنظام البنكى، وأنه بالإمكان اتساق الشريعة مع الحداثة. ومن منطلق أفكاره عن ولاية الفقيه، برر مفهوم الدولة الإسلامية المؤسسة على الشريعة (التى لا تتعارض مع الحداثة) والتى يحكمها العلماء. كانت نظريته عن ولاية الفقيه والتى صاغها فى منفاه بمدينة النجف بالعراق أثناء الستينيات تتناقض جذريا مع رأى علماء الشيعة فى القرن التاسع عشر، الذين ذهبوا إلى أنهم، وعلى الرغم من أنهم كان لهم المرجعية السياسية النهائية، إلا أن بإمكانهم ممارسة تلك السلطة فقط حينما تنتهك الحكومة الشريعة بشكل فاضح وتُعرِّض بذلك الجماعة الإسلامية للأخطار. لكن الخمينى رأى أن العلمانية الغربية واستبداد أسرة بهلوى أثبتا أن العلاقات التاريخية بين الحكام والعلماء كما وجدت منذ أن أصبحت إيران ملكية شيعية فى عام ١٥٠١ قد انتهت لأن ملوك أسرة بهلوى قد أضعفوا المذهب الشيعى، ومن ثم عاظمت النقلة التاريخية التى حصلت من سلطة العلماء السياسية.

القوميون:

فى أعقاب الانقلاب الذى دبرته الاستخبارات الأمريكية والبريطانية عام ١٩٥٣، واجه التيار القومى المعادى للإمبريالية الذى دعم مصدق رقابة صارمة وتم قمعه بوحشية بواسطة الشاه. تحولت إيران إلى دولة رئيسية مسلمة غير عربية موالية للغرب – للولايات المتحدة بخاصة. بيد أنه بين عام ١٩٦٠ و١٩٦١ تراخت القبضة على القوميين. أحيت الجبهة القومية التى كانت تقوم على أساس إرث مصدق القومى نفسها وجندت الطلبة والأكاديميين والموظفين والعمال وتجار البازارات. نظموا

إضرابات وتظاهرات كبيرة حشدت بعضها حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص. لكن القبضة أُحكمت مرة أخرى، وحظر الشاه الجبهة القومية واعتقل قادتها.

كانت الجبهة القومية تنظم مظلة ينضوى تحتها أفراد ومجموعات متنوعة مثل حركة التحرر بقيادة الإسلاميين الحداثيين. على سبيل المثال، أقام آية الله تلغانى ومهدى بازارجان (كان قوميا ليبراليا وارتبط اسمه بفترة تأميمات النفط فى عهد مصدق). أقاما علاقات وثيقة مع آية الله الخمينى وصاغا برنامجا إسلاميا إصلاحيا لقيادة المعارضة ضد حكم الشاه. وعلى الرغم من القمع السياسى استمرت هذه المنظمة تمارس نشاطها فى الخارج وفى الداخل الإيرانى بأسلوب سرى. ركز حزب إيران المرتبط أيضا بالجبهة القومية أنشطته فى أوساط كونفدرالية الطلبة الإيرانيين بالخارج، وبالمثل كانت الجماعة الاشتراكية تستمد قاعدة دعمها من الطلبة الإيرانيين فى أوربا وأمريكا.

قبيل سقوط الشاه مباشرة، فتح بعض أعضاء الجبهة القومية تفاوضات معه بشأن إدخال الديموقراطية لكن الحركة الثورية كانت غير معنية بالإصلاحات السياسية. وفيما تنامت الحركة، قام الشاه بتعيين شهبور بختيارى، أحد القياديين فى الجبهة، رئيسا للوزراء. لكن لم يكن بوسع بختيارى إنقاذ الشاه أو منع الثورة. انضم آخرون من المعسكر القومى بمن فيهم كريم سنچابى وكان سياسيا ليبراليا وأحد مؤسسى الجبهة القومية، ومهدى بازارجان من الحركة الليبرالية انضموا إلى معسكر الخمينى حيث كانوا على درجة من الضعف السياسى لا تمكنهم من تشكيل حركة جماهيرية بديلة. عُيِّن بازارچان، بعد الثورة، رئيساً للوزراء فى الحكومة الانتقالية. بيد أنه لم يكن كزعيم على درجة من القوة

تمكنه من طرح بديل علمانى ليبرالى، وكما سنرى فيما بعد، فقد كان نفوذ الخمينى قد بدأ يسيطر على الحركة الثورية.

اليسار:

أسهمت المجموعات الشيوعية والاشتراكية فى الحركة وفى نجاح ثورة ١٩٧٩، كان حزب توده قد ظل ناشطا وكان قد لعب دورا مهما فى تأميم النفط. شاركت فى الحركة الثورية أيضا مجموعات أخرى مثل الماركسيين/ اللينينين، والتروتسكيين، والستاليين، والماوميين وفدائيى خلق، ومعهم كثير من النساء والعمال والمثقفين والطلبة المتعاطفين مع الأفكار الغربية وغير المرتبطين رسميا بأى تنظيم. يمكن القول إنه بإمكان أية حركة شيوعية أو اشتراكية قادرة على إنتاج قيادات مناسبة التعبير الكامل عن مطالب الشعب بالمساواة والقضاء على الفقر والاستخدام الصحيح لموارد إيران الطبيعية الهائلة من أجل تنمية البلاد. بيد أن اليسار ركز على نقد سياسة الشاه التنموية، حيث كان كثيرون يرون أنه، وعلى الرغم من أن عملية التصنيع كانت إيجابية نسبيا، بيد أن التنمية غير المتوازنة منعتهم من الاستفادة الكاملة من التنمية الاجتماعية/ الاقتصادية. أيضا، تجاهل اليسار قضية الديموقراطية الملحة التى لم يكن لها وجود فى ظل حكم أسرة بهلوى نتيجة لهذا، فشل اليسار فى حشد الطبقة العاملة ورغم أنهم كانوا المستفيدين الرئيسيين من عملية التصنيع، إلا أن الأزمة الاقتصادية ألحقت بهم عظيم الأضرار. وعلى الرغم من تأثير اليسار فى أوساط الطبقة الوسطى الحداثية، إلا أن هذا التأثير لم يمتد إلى القطاعات المتدينة.

كان الشيوعيون والاشتراكيون الإيرانيون مرتبطين بأسلوب مباشر أو غير مباشر، بالسياسات الستالينية السوفييتية، وكان ذلك النظام، كما

تبين لاحقا، على وشك إنهاك نفسه، وكانت «الشيوعية» بالفعل قد خذلت شعوب الشرق الأوسط، بمن فيها إيران. كان يهيمن على الاتحاد السوفييتي نخبة ثرية فاسدة من بيروقراطيي الدولة يديرون شئون مجتمع تسوده عدم المساواة، وكان في هذا دلالة أكيدة على أن «الشيوعية» قد تخلت عن دورها التاريخي كنصير للشعوب المقموعة في جميع الأنحاء، وبخاصة تلك التي تستعمرها، أو كانت تستعمرها القوى الإمبريالية الغربية بما في هذا بلدان الشرق الأوسط. وكما ذكرنا، فإن فشل الاتحاد السوفييتي فهم الصهيونية على أنها صنيعة الإمبريالية الغربية واعتراف ستالين بدولة إسرائيل ومساعدته في تسليحها أدى إلى التهميش البالغ للحركة الشيوعية في البلدان الإسلامية. وفي ظل تلك الأوضاع، كانت دهشة العالم بالغة، حينما خطف الإسلام، ذلك الدين العظيم القديم ليملأ الفراغ السياسي القائم، وكانت المساجد، لا المصانع أو حقول النفط، هي التي كانت مصدر توجيه الثورة.

الفترة الثورية: ١٩٧٩ - ١٩٨٠

بين عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩، وطدت الطبقة العاملة والطبقات الوسطى التقليدية تحالفاتها مع الإسلاميين. لم تستطع غالبية الشعب التماهي مع المعارضة العلمانية، عبرت رسائل الإسلاميين عن مشاعر الفقراء في المدن وطموحاتهم بدرجة أكثر تأثيراً من المجموعات الليبرالية واليسارية. اتخذت المعارضة الإسلامية شكل القومية المستقلة عن نظام الشاه القمعي وحليفته أمريكا فيما فشل اليساريون والقوميون في الحفاظ على استقلالهم الذاتي داخل إطار الحركة الثورية أو في إقامة عملية أسلمة بديلة. أدت الضغوط الناجمة إلى إنتاج حركة ثورية جماهيرية استمدت جوهرها من الماركسية والشيعية، ونظمها الإسلاميون، ثم أطاحت بديكتاتورية الشاه البغيضة.

صعّدت الجمهورية الإسلامية من رماد ثورة ١٩٧٩ الإيرانية، والتى يمكن القول إنها الحدث الأكثر ديموقراطية فى القرن العشرين والتى لا يستوعبها سوى القلة القليلة فى العالم. وعلى الرغم من بعض القيود على الحقوق الديموقراطية فى الجمهورية الإسلامية، إلا أنها وُلدت من رحم حركة احتجاجات جماهيرية هائلة. طالبت الحركة بالديموقراطية، وإنهاء العلاقات مع الدول الإمبريالية والقضاء على الفقر، وإتاحة موارد الدولة للجميع. وعلى الرغم من التفسير المباشر الأساسى لمن قاموا بدفع ثورة ١٩٧٩، لكنه غالبا ما يساء فهمه. رأت الغالبية الثورة بصفتها خطوة أولى للتحرر من التنمية الاقتصادية والسياسية غير المتوازنة لدولة بهلوى. كان إعادة بزوغ تنظيمات نسائية وعمالية وإثنية ودينية متنوعة تناضل من أجل حقوقها تعبيرا عن رغبة الشعب فى التغيير بأساليب كثيرة. كان فشل اليسار والقوميين الليبراليين فى تقديم بديل عملى قابل للحياة يعنى تصوت الغالبية دعماً للجمهورية الإسلامية فى الاستفتاء الذى أجرى فى إبريل ١٩٧٩. بيد أن الدولة الإسلامية، وبمجرد أن ترسخت، بدأت تتجاهل نضالات المجموعات المختلفة من أجل حقوقها. كانت النساء أول من تحمل وطأة قمع الدولة التى عزلت العلمانيات وفضلت مشاركة المتدينات فقط، وذلك لصالح الدولة البطريركية. توفرت الفرص المادية للمتدينين من الرجال والنساء، الذين كانوا مهمشين فى ظل دولة بهلوى العلمانية، وأتيح لهؤلاء المجال لممارسة درجة من السلطة. كان قرار الدولة ممارسة تقسيم صارم للعمل يقوم على الجنس وفرضها الحجاب وعدم الاختلاط يعنى أنها ترى أن مكان المرأة المناسب هو المنزل. اعتبرت الأمومة والزوجية أهم أدوار المرأة، أما كسب العيش فهو مسئولية الرجال. غدا سلوك المرأة فى الأماكن العامة قضية مركزية. تم

فصل عدد كبير من النساء من وظائفهن لعدم التزامهن بالزى «الإسلامى» وقواعد السلوك الإسلامية، فيما دُفِعت أخريات إلى التقاعد المبكر أو أصبحت أعدادا زائدة فى أماكن عملهن(١). دعمت سياسات الدولة الخاصة بعمالة النساء تقوية العلاقات البطريركية فى مجالات التعليم والزواج من خلال قوانين وأحكام مؤسسة على التفسير التقليدى للشريعة. تم عكس ما حققته المرأة من تقدم ضئيل فى عصر الشاه. أعيد إلى الرجل الحق الحصرى فى الطلاق وفى الزواج من أربع نساء، وعدد غير محدود من الزيجات المؤقتة (Sighe) بدون إذن الزوجة الأولى. تم التصديق على تشريعات الأحوال الشخصية الإسلامية المحافظة التى كانت تتضمن حق الرجل فى منع زوجته من العمل، تطلب أن تحصل المرأة على إذن من أقاربها الذكور كى تعمل أو تسافر أو تغير مكان إقامتها، و حق الزوج، فى حالة الطلاق فى حضانة البنات بعد سن السابعة والأولاد بعد سن العامين، ثم ينتقل هذا الحق إلى أقاربه فى حالة وفاته؛ وحظرت وسائل منع الحمل والإجهاض. مثّل ذلك نكسة خطيرة لملايين النساء اللائى دعمن الثورة بمن فيهن المتدينات. وعمل ذلك أيضا على كشف المُثل المتناقضة التى حفزت الثورة. بيد أن هؤلاء النساء، وكما سنبين لاحقا، استمررن يناضلن من أجل حقوقهن. منحت أنشطة النساء السياسية فى الفترة الثورية، وعملهن مدفوع الأجر والمجانى فى الثمانينيات، المرأة حسا بالوعى الجمعى بالتقابل مع دورهن المحدود بالمنزل.

---

(١) على الرغم من احتمال صحة كل هذا، إلا أن المؤلفة تلجأ إلى السرد المرسل، ولا تورد إحصائيات أو أمثلة واقعية. حيال ذلك، لا يملك القارئ الناقد سوى تقبله بشىء من التحفظ (الترجمة)

على المستوى الاقتصادى، عانت الطبقة العاملة والفقراء أيضا. تبنت الدولة الإسلامية اقتصادا إسلاميا متحكما به. وسعت القطاع العام على حساب القطاع الخاص. أيضا، أدى الحظر الدولى على التجارة مع إيران إلى عزل البلد عن الاقتصاد الكوكبى وإلى ركود اقتصادى عانت منه جميع قطاعات الاقتصاد ونجم عنه تراجع المخرجات وارتفاع معدل البطالة، علاوة على ذلك، أدى انهيار العملة الإيرانية فى السوق العالمى إلى إلحاق الضرر بتجارة إيران الخارجية وحدوث تضخم وشح فى المعروض من السلع. تمت زيادة الأجور بضغط من مجالس شورى العمال، بيد أنه ونتيجة للتضخم، فقد انخفضت الأجور واقعيا ولم تؤد الزيادات إلى مساعدة كثير من الأسر الأكثر فقرا. كما عملت البطالة والتضخم على تقلص القدرة الشرائية بشكل حاد.

فى تلك الفترة، تزامن القمع المحلى مع شعبية سياسة إيران الخارجية بالداخل وفى المنطقة. وكما سنذكر لاحقا، حظى موقف إيران ضد الإمبريالية الثقافية والهيمنة الأمريكية، ومازال يحظى، بشعبية كبيرة لدى مختلف الحركات في الشرق الأوسط. ألهمت الثورة الإسلامية التنظيمات الشيعية فى أفغانستان وباكستان، ومنطقة الخليج، والعراق ولبنان ودفعتها إلى تنظيم صفوفها. عقب ذلك، غدا حزب الله فى لبنان قوة إقليمية لافتة. تحدت إيران الأنظمة الاستبدادية التابعة للغرب فى المنطقة، فيما استمدت حركات المعارضة فى المنطقة وخارجها الإلهام من نجاح الثورة الإيرانية وتطلعت إلى طهران من أجل الدعم. وكنتيجة للحركات الإسلامية الناشطة فى أنحاء الكوكب، ازدهرت إيران سياسيا، وشعر الغرب بتهديد شعبيتها فى أنحاء المنطقة. فى ظل تلك الملابسات احتلت مجموعة من الطلبة بقيادة بعض رجال الدين الناشطين السفارة

الأمريكية فى طهران فى نوفمبر ١٩٧٩ واحتفظوا بالعاملين فيها رهائن، وطالبوا الولايات المتحدة بتسليم الشاه إلى إيران، والاعتذار للشعب الإيرانى عن تورطها فى الانقلاب ضد مصدق عام ١٩٥٣، ومساندتها لحكم بهلوى. كان لذكريات انقلاب السى آى إيه عام ١٩٥٣ كبير الأثر على هذه الواقعة، وكانت بمثابة تحذير للولايات المتحدة ضد أية عملية محتملة تقوم بها، كما عملت على ترسيخ النظام الإسلامى.

تعاظم القمع السياسى الداخلى فى أعقاب احتلال السفارة الأمريكية. كان حزب توده، والقوميون، والمثقفون الليبراليون وبعض مجموعات اليسار قد تبعوا النظام الإسلامى على أساس أن مواقفه كانت معادية للإمبريالية، لكن بمجرد أن رسخ النظام سلطته وجد كثير من أعضاء تلك الجماعات أنفسهم مضطهدين. فى تلك المرحلة، ردت منظمة مجاهدى خلق بحملة اغتيالات وتفجيرات ضد رموز الدولة الإسلامية وفى مواجهة تلك الهجمات، قامت الدولة بسحق كل المعارضين دونما هوادة. تم تعذيب وإعدام الآلاف، وفر آلاف آخرون خارج البلاد.

وبالرغم من القمع السياسى والقيود الاجتماعية مضت الدولة قدما فى برنامج إعادة توزيع الثروة وسعت إلى أساليب تشرك بها الفقراء والإسلاميين فى المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وكما يبين الفصل الثانى بالتفصيل، تم القضاء على الأحياء الفقيرة القذرة، وعلى الفقر المدقع؛ وارتفع معدل الإلمام بالقراءة والكتابة خلال جيل واحد. أتيحت الرعاية الصحية والتعليم، الأمر الذى أدى إلى ارتفاع التوقعات الشخصية، وإلى مزيد من الضغط من أجل الديموقراطية التى أهملتها الدولة بالرغم من أنها كانت أحد مطالب الثورة المهمة.

الحرب الإيرانية العراقية: ١٩٨٠-١٩٨٨

هددت ثورة ١٩٧٩ المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للولايات

المتحدة وحلفائها بالمنطقة. بعد الثورة، انسحبت إيران من جميع الأحلاف والتحالفات التجارية والعسكرية مع الغرب فى المنطقة، وأبعدت نفسها بخاصة عن الدول المنتجة للنفط فى الخليج التى كانت تربطها بالغرب علاقات اقتصادية تدر عليها الأموال. تمتعت الثورة بشعبية من قبل شعوب المنطقة حيث كان الكثيرون منهم يعانون اقتصاديا وسياسيا على أيدى الأنظمة الموالية للغرب التى لم تكن تأبه بفقرهم وبطالتهم وافتقارهم للحقوق الأساسية ولفرص التعليم والرعاية الصحية ناهيك عن الحقوق الديموقراطية للمشاركة السياسية.

كان آية الله الخمينى يرى أن الثورة ليست قصرا على إيران، فقد كانت ثورة من أجل جميع المحرومين فى العالم. لكنه أكد على أن بإمكانها أن تنتشر فقط إذا اقتنعت شعوب البلدان الأخرى بالحاجة إلى الإطاحة بالأنظمة الموالية للغرب. من ثم، رأى الغرب أن الثورة فى إيران تمثل تحديا للأنظمة الاستبدادية التابعة فى المنطقة.

كانت سياسة إيران الخارجية المعادية للإمبريالية تهدد صدام حسين بخاصة الذى كان قد تولى الرئاسة فى العراق عام ١٩٧٩. قرر غزو إقليم خوزستان الإيرانى الثرى بالنفط وموطن أقلية إيرانية عربية. كان موقف الإدارة الأمريكية التى كانت مشغولة بأزمة الرهائن (نوفمبر ١٩٧٩- يناير ١٩٨١) ملتبسا من اعتزام صدام غزو تلك المنطقة ولم تفعل شيئا لإثنائه عن المحاولة. كما شجع المَلَكيون الإيرانيون والذين كانت لهم روابط وثيقة مع الإدارة الأمريكية العراقيين على احتلال خوزستان باستدعائهم التاريخ الطويل لمظالم الأقلية الإثنية العربية من الحكومة المركزية فى طهران. يرى أديب موغادام أن صدام حسين هو من ابتدع أسطورة العداء العربى / الفارسى المتوطن، وتحت شعار «تحرير عرب إيران المقموعين» هاجم البلاد فى سبتمبر ١٩٨٠.

بعامة، نظر الغرب إلى اجتياح العراق لإيران بصفته وسيلة لإضعاف الثورة وإحلال نظام أكثر إذعانا محلها، أثناء المرحلة المبكرة من تلك الحرب ظلت إيران فى موقف دفاعى، لكنها استعادت خوزستان بحلول عام ١٩٨٢ وأجبرت القوات العراقية على الانسحاب حتى الحدود. وعلى الرغم من عدم تلقى إيران أية مساعدات خارجية، فيما ساعدت دول المنطقة والقوى الدولية العراق بالأموال والسلاح والقوات، فقد التزمت إيران باستمرار القتال حتى الإطاحة بصدام حسين. وكما سنناقش فى الفصل الخامس، كان دعم الدول الغربية لصدام حسين آنذاك يقوم على فرضية أن الحرب ستضعف إيران وتقلص من قدرتها على نشر «الأصولية الإسلامية»(١). من ثم، التزم الغرب الصمت حينما استخدم صدام الأسلحة الكيميائية ضد الجنود الإيرانيين وحينما دمر بلدة حلابجة الكردية بالكامل، ولم تناقش تلك الأفعال علنا إلى أن غزا صدام الكويت عام ١٩٩٠. وكما تكتب شيرين عبادى (الفائزة بجائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٣) قائلة:

«سرعان ما استغنى صدام عن غاز الأعصاب وانتقل إلى استخدام سلاح أصبح مفضلا لديه وهو عامل حارق يعرف بغاز المسطردة. وبخلاف غاز الأعصاب فإن لغاز المسطردة رائحة مميزة مثل الثوم وليس له ترياق ويقتل ببطء بآلام لا تحتمل. بُعيد استنشاق الجنود فى الجبهة الهبة الأولى، كانت أبصارهم تُغْشى ويبدأون فى السعال دونما توقف، و التقيؤ. وفيما كانت الساعات تمضى كانت جلودهم تبدأ فى التقرح وتغمق وتصطبغ بحمرة قاتمة. ثم تبدأ رُقع كاملة من جلودهم فى التساقط وتسودّ إبطهم وأربياتهم. كان من يبقون على قيد الحياة ينقلون

---

(١) الأحرى أن الغرب قد أراد استنفاد قوة إيران والعراق فى آن خدمة لمصالح إسرائيل وأمنها. (الترجمة)

إلى المستشفيات لمدد تتراوح بين بضعة أيام وبضعة أسابيع.. وإذا استعادوا قدراتهم الوظيفية كانوا يعودون إلى الجبهة».

في النهاية، دعت الأمم المتحدة إلى وقف إطلاق النيران وانسحاب القوات إلى الحدود لكنها لم تُدن غزو صدام لإيران واستخدامه الأسلحة الكيميائية سوى بعد سنوات عدة . اتضح فيما بعد أن الاستخبارات الأمريكية كانت على علم باستخدام صدام لتلك الأسلحة، بل إن إدارة ريجان أمدت صدام بصور للأقمار الاصطناعية عن مواقع انتشار القوات الإيرانية. في عام ١٩٨٧، هاجم طيار عراقي، عن طريق الخطأ السفينة الأمريكية ستارك وقتل ثلاثين أمريكيا إلا أن إدارة ريجان ألقت بالمسئولية على «الإيرانيين البرابرة».

وفي يوليو ١٩٨٨، أسقطت سفينة حربية أمريكية كانت راسية بالخليج الفارسي طائرة ركاب إيرانية مما نجم عنه قتل ركابها البالغ عددهم ٢٩٠ شخص. لم يتقبل كثير من الإيرانيين ومن شعوب المنطقة أن الجيش الأمريكي المجهز بأرقى المعدات لم يستطع التمييز بين طائرة ركاب مدنية كبيرة والطائرات الحربية الصغيرة. لم يُدن ريجان هذا العمل الإجرامي بل إن الولايات المتحدة منحت قبطان الباخرة وساما خاصا. وكما تقول شيرين عبادي، كان من المحتم لمثل تلك الأفعال أن تزيد من العداء تجاه الولايات المتحدة في إيران والمنطقة بأكملها.

بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٦، نقلت منظمة مجاهدي خلق مقرها الرئيسي وقيادتها إلى العراق واشتركت مع صدام في الحرب ضد إيران. شن مقاتلوها في عام ١٩٨٨ هجوما على إقليم كرمنشاه بهدف تمكين صدام من «تغيير النظام» في إيران، حيث اعتقدوا، بل مازالوا يعتقدون، أنهم بقتالهم النظام في إيران سيطيحون بالنظام الإسلامي من خلال إشعال انتفاضة ضده.

أثناء الحرب العراقية الإيرانية، توثق التحالف بين إسرائيل والولايات المتحدة حيث كانت الثورة قد تسببت فى فقدانهما حليفا إقليميا ذا قيمة كبيرة ممثلا فى نظام الشاه. ووفقا لما سنذكره لاحقا، لم تعترف الجمهورية الإسلامية بدولة إسرائيل ورفعت شعار «تحرير بغداد من صدام حسين، تحرير فلسطين من الصهاينة ثم فى النهاية مواجهة الولايات المتحدة أو الشيطان الأعظم». حظيت هذه السياسة الخارجية، وبغض النظر عن الملابسات السياسية الداخلية، بشعبية كبيرة فى إيران والمنطقة.

وفى مواجهة شعبية إيران، مضت الولايات المتحدة والحكومات الغربية فى فرض مزيد من العقوبات على إيران ومساندة المعارضة الإيرانية وبخاصة الملكيون وتنظيم مجاهدى خلق الذين تعهدوا بتغيير النظام. كانت سياسة الولايات المتحدة ضد المجموعات الإسلامية غير متسقة، إذ إنهم ساندوا طالبان والقاعدة ضد الاتحاد السوفييتى واتخذوا موقفا عدائيا من النظام الإسلامى فى إيران(١). بيد أنه كلما هاجم الغرب إيران من خلال إعلامه وسياسته زادت شعبية إيران بين جماهير جيرانها. على أية حال، انتهت الحرب الإيرانية العراقية بعد أن فشل حصار إيران لمدينة البصرة. كانت حربا لا يمكن كسبها، وكان حصادها حوالى مليون قتيل ونصف المليون مشوه من الطرفين.

طبيعة الدولة الإسلامية:

منذ بداية القرن العشرين، ظلت الحدود الفاصلة بين الإسلام المحافظ

---

(١) لعل ذلك يرجع إلى أن القاعدة وطالبان مجرد جماعات يمكن استخدامها عند الحاجة، ثم الانقلاب عليها واتخاذها ذريعة لشن الحروب. أما النظام الإسلامى فى إيران فهو نظام دولة أثبت فاعليته وقدرته على التصدى للسلبيات التى تمثلها سياسة الولايات المتحدة. (الترجمة)

والإسلام الليبرالى الديموقراطى فى إيران وخارجها فى حالة سيولة دائمة تؤثر فيها الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كانت الثورة الإيرانية ثورة حداثية حضرية، لكن الدولة الإسلامية استخدمت القمع من أجل البقاء حينما واجهتها التحديات الداخلية والخارجية، وبخاصة حرب صدام حسين. بيد أنه لا بد من توضيح أن الدولة العلمانية الحديثة فى ظل الشاه كانت تفوق الدولة الإسلامية بكثير كدولة بطريركية قامعة. منذ عام ١٩٧٩، ظل جوهر مفهوم «حكم الشعب hoko-mate mardomi» قويا وفاعلا فى إيران. بالطبع، فإن الشعب فى إيران، وفى بعض الحقب التاريخية، كان يعتنق الإسلام المحافظ أحيانا، وأحيانا أخرى الإسلام الليبرالى.

فى الثمانينيات، انتشر مفهوما «الملتزمين Moteahed» و«المتخصصين Motekhases» فى إيران. رأى المحافظون أن المواطنين الصالحين هم من يظهرون التزاما أيديولوجيا للنظام؛ أما المصلحون الليبراليون فقد ذهبوا إلى أن دور المواطنين الصالحين هو التخصص فى مواضيع علمية. أدى الجدل النشط حول الموضوع إلى تبنى الدولة والمؤسسات الأخرى للمصطلحين معا- أى لفكرة أنه ينبغى على المواطنين الصالحين أن يكونوا ملتزمين ومتخصصين فى آن. وفى هذا السياق، فإن نحن عَرّفنا التوجهات المحافظة على أنها الحفاظ على القيم التقليدية، سنجد أن الدولة، ومنذ عام ١٩٧٩، قد نجحت فى تجسير الفجوة بين ما هو محافظ وما هو ليبيرالى بأكثر مما يُفترض بعامة. أما الأهم فهو أن الحرب الإيرانية العراقية خلقت حالة طوارئ أدت إلى مزيد من مركزية الدولة وتحكمها، إذ إنها مضت فى فرض «الأسلمة» وقمع النساء والأقليات العرقية واليساريين والقوميين. أدت تلك الحرب إلى تراجع القومية الإيرانية وتصاعد مستوى متعاظم من التدين ومن ثقافة الجهاد الاستشهادى. كما أنتجت دولة قوية وشكلت طبيعتها وسياساتها القومية والخارجية وأتاحت بذلك للإسلاميين المحافظين ترسيخ سلطتهم.

قامت الدولة، أثناء الحرب، بقمع الحركات العلمانية: مجالس شورى العمال المستقلة، والتى حلت محلها اتحادات إسلامية. كما حلت محل تنظيمات النساء والطلبة العلمانية تنظيمات أخرى ترعاها الدولة. شن النظام حملة ضارية ضد منظمة مجاهدى خلق والجماعات السياسية الأخرى المتعاطفة معها. فى عام ١٩٨٠، أدى انفجار فى المقر الرئيسى للحزب الجمهورى الإسلامى إلى مقتل ٧٢ من قياداته. ردت الدولة على هذا التفجير باعتقال وإعدام الآلاف من أعضاء تلك المجموعات السياسية ولقيت هذه الإجراءات تأييدا شعبيا واسعا. بيد أن بعض رجال الدين عارضوا تلاعب المحافظين بالبيئة السياسية وانتهاك حقوق الإنسان فى المعتقلات. ظل آية الله منتظرى، وحتى وفاته فى ديسمبر ٢٠٠٩ معارضا لاستبداد الدولة، واحتج لدى آية الله الخمينى بأقوى العبارات على الإعدامات والتعذيب فى السجون. نجم عن ذلك أن عزله المحافظون.

بالطبع، يمثل هذا القمع السياسى وجها غير مقبول من الإسلام السياسى الحديث. بيد أن تلك الانتهاكات، وأسوأ منها، تحدث فى ظل الدول العلمانية، من ثم، لا يجوز اعتبار أن الإسلام السياسى الحديث مجرد عودة إلى الاستبداد والبربرية كما يزعم أكاديميو ونشطاء الغرب، ومعهم الإعلام والسياسيون. فقد لجأت كل الثورات العظيمة الحديثة مثل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ والثورة الروسية ١٩١٧ إلى الرعب المؤسسى من أجل ترسيخ سلطتها وإقامة النظام السياسى لما بعد الثورة. ولا تختلف إيران كثيرا عن هذا، على الرغم من أننا نرى أن مثل هذه السلوكيات غير مبررة(١).

(١) هنا يجب إضافة أنه فى حالة إيران، فإن دول الغرب والولايات المتحدة يستخدمون الأدوات الداخلية والخارجية لمحاربة النظام وزعزعة الاستقرار بأساليب أكثر تطورا لم تكن متوفرة أثناء الثورتين الفرنسية والروسية. (الترجمة)

لم يكن ثمة تيارات طالبانية أو وهابية جديدة بالأسلوب السعودى فى إيران أبدا. ومنذ بداية الجمهورية الإسلامية، ظل ثمة صراع بين الإسلام المحافظ والإسلام الديموقراطى لأن غالبية الشعب الإيرانى يؤمنون بالفقه الإسلامى الدينامى المتجدد وبفكرة أن الإسلام يتسق مع الحداثة، فى حين تقوم التوجهات المحافظة للدولة ومؤسساتها على أساس تعزيز المواقف البطريركية تجاه قضايا الجندر وعلى الحد من الحقوق الديموقراطية وإتاحة الأماكن العامة لجميع المواطنين. وفى هذا السياق، هيمن رجال الدين المحافظون، تدريجيا على الدولة وفقد رجال الدين الذين يؤمنون بالفقه المتجدد، مثل آية الله موسوى أردبيلى وغيره، سلطتهم.

غدت نظرية ولاية الفقيه هى الفلسفة السياسية التى تبناها النظام الجديد. أدمجت هذه النظرية فى الفلسفة السياسية الحديثة للفصل بين مؤسسات الدولة - السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية. وفى هذا السياق، تم إضفاء أهمية خاصة على الانتخابات وأصوات الشعب. أقيم مجلس الشورى (الرعاة أو الأوصياء) على غرار ما جاء به دستور الثورة الفرنسية وتشكل من عدد من رجال الدين أعطيت لهم سلطة الإشراف على جميع الانتخابات باستثناء المحلية منها، حيث يشرف هذا المجلس على الانتخابات النيابية والرئاسية ويقيّم صلاحية المرشحين، ويشرف أيضا على انتخابات مجلس الخبراء Majles Khebregan الذى يتألف من ستة وثمانين من كبار رجال الدين الذى يختار بدوره مرشد الثورة الإسلامية (حتى تاريخه، الخمينى ١٩٧٩- ١٩٨٩؛ والخامنئى ١٩٨٩ وإلى اليوم). فيما بعد اكتسبت تلك المؤسسات سلطة كبيرة لدرجة عدم إمكانية ضمان التعيين فى أى موقع دونما موافقة أعضائهما. كان هدف تشكيل «مجمّع تشخيص المصلحة» هو منح أعضاء هذا المجلس سلطة

التوسط فى الصراعات بين البرلمان ومجلس الأوصياء. من ثم، تقتضى عملية انتخاب القادة، وأعضاء البرلمان، ورئيس الجمهورية مشاركة النخب الإسلامية والشعب فى الانتخابات. وعلى الرغم من أن النخب الإسلامية محافظة فإن النظام لا يتضمن الدين والدولة فقط، بل ممارسة الحكم الدينى والديموقراطية معاً.

من ثم، فما يحدث على أرض الواقع هو أن أسلمة إيران تتمتع بتأييد جماهيرى، مثلما يتمتع القادة بتأييد جماهيرى قاعدى كما سنرى فى الفصل القادم. اكتسب كل من خاتمى، وأحمدى نجاد ومير موسوى، على الرغم من اختلاف شخصياتهم وآرائهم السياسية تأييد غالبية من السكان. من ثم، لا يمكن القول بأن الدولة والمجتمع فى إيران «أصوليون» بقدر ما هم حداثيون شرعيون يعتمدون على الحوار والتنافس بين من يريدون الحفاظ على الإسلام المحافظ وهؤلاء الذين يرغبون أن تعتنق الدولة الإسلام الديموقراطى الحديث. وكما سنرى فى الفصل الثالث، فقد ظل ثمة تنافس تاريخى فى مجالات الإسلام الشيعى الإيرانى بين التقاليد المحافظة والليبرالية الديموقراطية، إلا أن كلاً من التوجهين حقق أهدافه من خلال العملية السياسية.

أما فى المجال الاقتصادى فعلى الرغم من اقتصاد الحرب والقمع السياسى أثناء الحرب الإيرانية العراقية - تكريس الإنتاج والموارد للمجهود الحربى - فقد مضت الدولة الإسلامية، عن حق، فى تحسين حياة ملايين الإيرانيين العاديين. فى الثمانينيات أنشئت مؤسسات وصناديق عديدة - مثل مؤسسة المستضعفين، وصندوق المُضحين الذين يشملون الجنود المشاركين فى الحرب الإيرانية العراقية وعائلاتهم؛ ومؤسسة الشهيد التى تُعنى بأسر من ماتوا فى الحرب، والباسيج (المتطوعين غير النظاميين فى الحرب الإيرانية العراقية). أما «لجنة الإمام الخمينى، فكانت مهمتها مساعدة الفقراء؛ وأيضا صندوق كتائب

محو أمية الكبار»؛ وأنشئت أيضا فرق لإعادة الإعمار. مولت الدولة تلك التنظيمات وأمدت الملايين من أفراد الطبقات العاملة الحضرية والريفية بالخدمات الاجتماعية.

نتيجة لهذا، أفاد الكثيرون من المتدينين، رجالا ونساء، ومن أفراد الطبقات العاملة، مادياً من عملية الأسلمة ومنحوا الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى دعمهم وتأييدهم. وفى تلك الفترة، قامت الدولة بتأميم البنوك وشركات التأمين والصناعات الرئيسية وأعادت توزيع الثروة بعد مصادرة ممتلكات الشاه وحلفائه - هرب ملاك رأس المال ونظراؤهم من البلد بعد ثورة ١٩٧٩. تم هدم مدن الصفيح وأُسكن شاغلوها فى الممتلكات المصادرة وأعطيت أولوية التوظيف والتعليم لأفراد الطبقة الوسطى ذوى التوجهات الدينية، ولفقراء المدن والطبقة العاملة الذين أيدوا الثورة. وكان الإسلاميون قد هُمِّشوا واستبعدوا أثناء عمليات التنمية التى تمت فى عهد الشاه فى الستينيات والسبعينيات. أتاحت لهم الثورة الإسلامية الموارد المادية والأيديولوجية والفرصة لممارسة السلطة. من ثم، يمكن القول إن الأسلمة وُلِدت من رحم التحولات المادية.

ظهر، فى فترة ما بعد الحرب، ثلاثة تيارات سياسية رئيسية: البرجماتيون الذين اعتقدوا فى استقرار العلاقات الاقتصادية على المستويين المحلى والدولى؛ والمحافظون الملتزمون بالأيديولوجيا الإسلامية التقليدية والحق فى الملكية الخاصة، والراديكاليون الذين كانوا ينادون بتصدير الثورة من خلال دعم النشطاء الثوريين فى أرجاء الشرق الأوسط. وفى تلك الفترة، غيرت الدولة تدريجيا سياستها الاقتصادية للاكتفاء الذاتى وأنهت محاولة العمل فى عزلة عن الاقتصاد العالمى الذى يهيمن عليه الغرب، وبدلا من ذلك حفزت العودة إلى التصنيع كبديل للاستيراد الذى ساد فترة ما قبل ١٩٧٩.



-2-

الإصلاحيون والمحافظون والنضال من أجل الديموقراطية

كانت إعادة هيكلة الاقتصاد الإيرانى فى التسعينيات خطوة من أجل المزيد من الاندماج فى الاقتصاد الكوكبى. وعلى الرغم من التركيز على الأحكام المالية الإسلامية الأخلاقية، فإنه سرعان ما تكيفت التنمية الاقتصادية غير المتوازنة مع الرأسمالية العالمية، وبالتناقض مع الحقبة الأولى للأسلمة. فقد عُدِّلت القوانين والأحكام الاقتصادية لتتيح العمل لأسلوب إنتاج رأسمالى بنكهة إسلامية يقوم على ملكية الدولة والملكية الخاصة. ساعدت عوائد النفط على توليد التمويلات؛ وكانت حرب الخليج عام ١٩٩١ قد أدت إلى ارتفاع أسعار النفط مما أفاد إيران. وعلى الرغم من ذلك ظل الاقتصاد يعتمد بقوة على العائدات النفطية. الأمر الذى أدى إلى تخلف نمو إيران الاقتصادى عن مثيله التركى والكورى الجنوبى والماليزى التى أتاح لها تنوع اقتصاداتها أداء أفضل.

فى ظل حكومة الرئيس على أكبر رافسانجانى (١٩٨٩- ١٩٩٧)، تولى محمد حسين عادلى محافظ البنك المركزى الإيرانى (١٩٨٩- ١٩٩٤) ريادة حزمة إصلاحات اقتصادية كان لها أثر حاسم فى إعادة إعمار البلد بعد الحرب الإيرانية العراقية. تم الحفاظ على أسعار العملات الأجنبية والسياسية المالية؛ وأقيمت مناطق تجارة حرة فى الجنوب الإيرانى على جزر كيش (قيس) فى الخليج؛ حفز تحرير سعر صرف العملات الأجنبية الخصخصة ومعدلات الاستيراد؛ كما أدت زيادة الضرائب إلى زيادة العائدات الحكومية. تضمَّن تخطيط التنمية الاستثمار فى الصناعات النفطية، والبتروكيمائية والدوائية والغذائية، والزراعية وتصنيع السيارات وصناعات الكهرباء والإعمار كما تم إنشاء سدود وأنفاق ومطارات جديدة. أدت تلك الإجراءات إلى فترة من النمو

الاقتصادى النسبى وارتفاع مستويات الاستهلاك التى أدت بدورها إلى ازدهار نسبى وتوسع الطبقة الوسطى وارتفاع كبير فى مستويات التعليم والمتوسطات المتوقعة لأعمار السكان. بيد أن التوسع الكبير فى الخصخصة تم من خلال الحصول على قروض كبيرة من الأسواق الدولية. أعقبت قروض البنك الدولى بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٤ فرض سياسات لإعادة الهيكلة وإلغاء التحكم فى الأسعار وتقليص الدعم مما أدى إلى ارتفاع معدلات التضخم والبطالة. احتج العمال على تأخير أجورهم أو عدم دفعها، وعلى قضايا الرعاية الصحية وأمان بيئات العمل، وعلى الفوائض فى عدد العمال نتيجة للتعاقدات من الباطن.

فى فترة رئاسة رافسانجانى الثانية، عرض على الولايات المتحدة استثمارات واسعة المدى فى قطاع النفط والغاز بإيران، بيد أن إدارة

كلينتون رفضت العرض وفرضت، بدل ذلك، مزيدا من العقوبات. أدى ذلك بإيران إلى تعميق روابطها التجارية مع أوربا والصين وروسيا والهند. وبحلول سنوات التسعينيات الأخيرة كانت إيران تتبع كبار الدعاة إلى اقتصادات السوق الحرة من خلال تقليص دور الدولة فى الرعاية الاجتماعية وتشجيع الخصخصة فى ظل تحكم الدولة. ومازال هذا التوجه مستمرا حتى اليوم.

تمتعت صناديق ومؤسسات الرعاية الاجتماعية الإسلامية التى أقيمت فى الثمانينيات ومولتها الدولة ووفرت الخدمات الاجتماعية للملايين من الطبقات العاملة بالمدن والريف، تمتعت بدعم قاعدى جماهيرى. تم تشجيع هذه المؤسسات فى سنوات التسعينيات لتصبح مشاريع خاصة مستقلة عن الدولة. من ثم، تحولت تدريجيا إلى تنظيمات رأسمالية من خلال إنشاء الشركات القابضة والجمعيات الخيرية. والآن، فهى تمتلك وتدير بزينسات للإنشاءات، وتصدير واستيراد النفط والغاز والاتصالات. أيضاً، تعمل فى أسواق المال والملكيات العقارية. وبروابطها القوية مع الدولة غدت وسائل للإثراء الذاتى، بدلا من وسائل لتوفير الخدمات الاجتماعية.

وعلى عكس ما يعتقده الغرب عن «الأصولية» الإسلامية، فقد تبنت إيران أثناء تلك الفترة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية وشجعت الحكومة والبرلمان الخصخصة والمنظمات غير الحكومية كشرط مسبق للانتقال إلى نظام السوق والتحرير الاقتصادى الداخلى ونهجٍ أكثر انفتاحا على الاقتصاد الدولى. وعلى الرغم من أن سياسة إيران الاقتصادية تغيرت بحيث تتوافق مع السياسة الاقتصادية الكوكبية، فقد واصلت الدولة الإيرانية كدولة اقتصادٍ ريعى - تعتمد على عائدات النفط فى التنمية الاقتصادية - وتحت ضغط من مختلف تنظيمات المجتمع

المدنى، سياساتها التدخلية على أساس أن الدولة جزء من المجتمع المدنى وتخضع للضغوط السياسية التى تمارسها تنظيماته.

وتحت هذه الضغوط استثمرت الدولة فى الخدمات العامة التى أفادت العائلات منخفضة الدخل فى المناطق الريفية والحضرية معا. تدل المؤشرات التالية على تحسن الأوضاع:

- أفاد ٩٣٪ من السكان من مياه الشرب الصالحة.
- تمتع ٨٤٪ من السكان بالتركيبات والتجهيزات الصحية.
- تطعيم ٩٩٪ من الأطفال.
- معدل انتشار فيروس نقص المناعة HIV بين الكبار ٠,١٪. (الأكثر انخفاضا فى المنطقة).
- ارتفع عدد سكان المدن إلى ٧٠٪ من المجموع الكلى للسكان.
- بلغ متوسط العمر المتوقع ٧١ عاما بين النساء. و٧٠ عاما للرجال.
- نسبة استخدام وسائل منع الحمل ٧٧٪ (الأعلى فى المنطقة).
- ارتفعت نسبة الإلمام بالقراءة والكتابة من ٢٢٪ فى الستينيات إلى ٨٥٪ فى عام ٢٠٠٧ (٨٩٪ فى المناطق الحضرية و٧٥٪ فى المناطق الريفية).
- ٦٥٪ من طلبة الجامعات إناث.
- نسبة وفيات الموليد ٣٩ من كل ألف مولود.
- تحسنت وسائل الاتصالات بمعدل ٤٠٠٪ (توفير الهواتف والإنترنت).
- بلغ معدل نمو السكان ١,٦٪ (مقارنة بمعدل ٣٪ فى الستينيات والسبعينيات) وذلك نتيجة لوسائل تنظيم الأسرة الفاعلة.
- بلغ متوسط عمر الزواج ٢٦ عاما للرجال و٢٣ عاما للنساء (مقارنة بمتوسط ١٨ عاما للنساء و٢٦ عاما للرجال فى عام ١٩٦٦).

وكما ذكرنا من قبل، فإن الأثر المهم لدولة الرفاه الإسلامية كان توفير التعليم لغالبية السكان. بيد أن الأولوية فى التعليم كانت للإسلاميين والطبقات العاملة فى المدن والريف وذلك من أجل تحقيق ازدهار أكبر. وفى هذا دلالة مهمة إذ إن دولة الشاه فى الستينيات والسبعينيات عملت على إثراء نخبة صغيرة ولم تفعل سوى أقل القليل لتنمية بقية البلاد. فى عام ٢٠٠٧/٢٠٠٦ كان ثمة ١٤,٥ مليون طالب فى إيران، كما أن ٩٣٪ من المدارس ملك للدولة؛ ويمثل هذا زيادة مقدارها ٦٠٪ مقارنة بالمعدل الذى كان موجودا قبل الثورة. فى نفس العام كان ثمة ٢,٥ مليون طالب بمراحل التعليم العالى، ٦٪ منهم بأقسام الدراسات العليا.

تغيرت ثقافة التعليم فى تلك الفترة، حيث اعتبر الكثيرون شهادة الثانوية العامة غير كافية، لدرجة أن العائلات فى المناطق الريفية كانت ترسل أبناءها وبناتها إلى البلدات والمدن للالتحاق بالجامعات. كانت معظم البلدات والمدن تضم جامعتين أو ثلاثاً. وعلى الرغم من ذلك كان الطلب على الالتحاق بالجامعات يتزايد كل عام بدرجة تفوق استيعاب الجامعات الموجودة، وكان الطلبة فى أنحاء البلاد يتنقلون بين طهران والمدن الصغيرة وبالعكس بحثا عن الكليات والمعاهد التى تناسبهم. لم يعد التعليم العالى مقصورا على الطبقات الوسطى والعليا فى المناطق الحضرية وأدى هذا الانفتاح إلى زيادة التنوع الطبقى والثقافى. يرى خوسروخافار أنه قد تم إنجاز تقدم حقيقى فى الأبحاث والأنشطة العلمية، وأن غالبية المشاركين هم الجيل الجديد الذى أوْجد واقعيا جماعة علمية بإيران لم يكن لها وجود من قبل.

تشير الإحصائيات التى أجريت على سوق العمل أيضا إلى معدل تنمية اقتصادية أعلى مقارنة بالستينيات والسبعينيات. فى عام ١٩٧٣،

كان عدد الصناعات التى يعمل بها أكثر من عشرة أشخاص هو ٣٩٧٢، وفى عام ٢٠٠٧ زاد عددها ليصبح ١٦٠١٨ يعمل بها أكثر من مليون شخص؛ ٩٦٪ منها مملوكة للقطاع الخاص والبقية ملكية عامة تشرف عليها الدولة. توظف ٢٥٪ من تلك المصانع العامة ما بين ١٠ و٤٩ عاملا و ١٢٪ منها ما بين ٥٠ و١٠٠ عامل، و٦٣٪ يعمل بها أكثر من ١٠٠ عامل. وككل، يشتغل ٢٢٪ من السكان بالزراعة، و٢٧٪ بالصناعة، و٤٩٪ فى مجال الخدمات. يعمل بمؤسسات الدولة حوالى ٢,٣ مليون شخص (٦٦٪ منهم رجال، و٣٤٪ نساء). وككل أيضا، توظف المشاريع الخاصة ٨١٪ من مجموع العاملين، والمؤسسات التى تشرف عليها الدولة ١٩٪.

ومعا، يمكن تصنيف تلك المشاريع على أنها القطاع الرسمى للاقتصاد. ٣٩٪ من المتخصصين نساء (٣٠٪ من النساء اللاتى يعملن فى قطاع الاقتصاد الرسمى متخصصات فى مجالهن). علاوة على ذلك، تؤلف آلاف النساء الكتب، ويصنعن أفلاما، ويمارسن مستويات عالية من الرياضة. ثمة ما يربو على ٢٠٠٠ امرأة عضوات فى مجالس المدن والقرى. كما أن غالبية الصحفيين الذين يحضرون جلسات البرلمان ويغطون الأنباء البرلمانية هم من النساء، وتمارس النساء «التدوين» على الإنترنت بكثافة كما يشاركن فى الإعلام الذى أصبح أنثويا بتزايد.

أيضا، ثمة مئات الآلاف من الصناعات الصغيرة فى القطاع غير الرسمى توظف أقل من ١٠ عاملين. وبالإضافة إلى القطاعين الرسمى وغير الرسمى المعترف بهما رسميا، يسهم عدد كبير من النساء والرجال فى الاقتصاد بأساليب أخرى (بما فى هذا الصناعات المنزلية)، ولا تظهر مئات الآلاف هذه فى الإحصائيات، ذلك لأن الحصول على التراخيص و/أو التسجيل كمكان عمل صغير أو منطقة غير حكومية يستغرق وقتا طويلاً. يلتحق، كل عام، مليون من العمال المهرة بالاقتصاد، بيد أنه لا يتم

استيعاب سوى الثلثين فقط بسهولة. مثلا، يعمل الشبان والشابات من خريجي الجامعات في الكافيهات التي تتزايد أعدادها في المراكز الحضرية، ولا يعد هؤلاء، جزءا من الاقتصاد الرسمي؛ وتفضل كثير من تلك المقاهي توظيف الشابات لأن ذلك يشجع النساء على ارتيادها، مما يؤدي أيضا إلى تغيير طبيعة تلك الأماكن التقليدية.

يدعو كثيرون ممن يكتبون عن إيران إلى مزيد من تحرير الاقتصاد، وبخاصة غالبية مؤسسات الدولة التي يتحكم المحافظون فيها. بيد أن التنمية الاقتصادية المستدامة ومؤشرات التنمية البشرية تشير إلى الدور المهم الذي تلعبه الدولة في توفير الموارد وتسهم في توقعات الشباب والمتعلمين العالية بتزايد. ومثلما حدث في بلدان نامية أخرى، فقد ارتفعت نسبة البطالة وتراجعت الخدمات الاجتماعية وهبط مستوى المعيشة بالنسبة لنسبة كبيرة من السكان، في أعقاب انتهاء تدخل الدولة، مما أدى إلى استياء مدني، في أعقاب ثورة ١٩٧٩، أدى إعادة توزيع الثروة، وتحسن الرعاية الصحية والتعليم ومعدلات العمالة إلى يقظة وعي الشعب الاجتماعي/ السياسي، الأمر الذي أدى بدوره إلى نمو المجتمع المدني واتساع مدى الإعلام وتنامي عدد التنظيمات الطلابية والنسائية والعمالية وأدت كل تلك العوامل معا إلى خلق الحركة الإصلاحية وتولي خاتمي منصب الرئاسة.

الحركة الإصلاحية:

منذ أواسط التسعينيات، ظل العمال والنساء والطلبة يطالبون بالتغيير الاجتماعي والسياسي. بعد سنوات القمع في الثمانينيات، عبّرت الأحزاب والتنظيمات الإسلامية السياسية في التسعينيات عن آراء مختلفة حول الشئون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والسياسة

الخارجية. تشجعت الصحافة فى ظل الرئيس رافسانجانى. وداخل الأطر الإسلامية المحددة، مُنِح حق الاقتراع للجميع دونما استثناءات، وكذلك حرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية التجمع. شعر الكثيرون أنهم يشاركون فى الحياة السياسية وتابعوا بحماس المناقشات البرلمانية وعمل النظام القضائى والحكومة من خلال الإعلام. كانت هذه التعددية السياسية ومعها الحكم البرلمانى جد مختلفة عن أساليب الحكم الأوتوقراطية لدولة الشاه العلمانية. ولم يكن أمام الدولة الإسلامية خيار سوى استيعاب هذا النظام التعددى المحدود.

أدت المشاركة السياسية للعمال والنساء والطلبة إلى الفوز الساحق الذى حققه محمد خاتمى فى الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٧ إذ حصل على نسبة ٩٧٪ من الأصوات. أيضا، شهدت الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٧ هزيمة المحافظين وفوزا ساحقا للإصلاحيين. وبالمثل، فاز الإصلاحيون فى انتخابات المجالس المحلية. وعلى الرغم من منع القوميين العلمانيين من تشكيل أحزاب سياسية، إلا أنه فى أعقاب تلك الانتخابات، انضم الكثيرون ممن يعرِّفون أنفسهم على أنهم يساريون علمانيون وقوميون ليبراليون، إلى صفوف الإصلاحيين للمرة الأولى منذ قيام الدولة الإسلامية. أيضا، أيد عدد من رجال الدين الحركة، وانضمت نساء إسلاميات مثل عزم تالغانى (ابنة آية الله تالغانى) وفاطمة وفائزة هاشمى (ابنتى آية الله هاشمى رافسانجانى) وشهلة حبيبى (ابنة آية الله حبيبى) إلى الإصلاحيين. حاولت حكومة الرئيس خاتمى الإصلاحية بجدية مواجهة مشاكل الحداثة، وسط استقطاب بين جناحها المحافظ وجناحها الإصلاحى.. عكست العناصر الأكثر ديموقراطية داخل الحركة الإصلاحية الجوانب التى لم تستكملها الثورة الإيرانية حيث دعت إلى

توسع هائل فى الديموقراطية فيما قوّت المطالبات المستدامة من قبل غالبية السكان الحركة الديموقراطية. بدأت الفنون والسينما والمسرح، والأدب والموسيقى، وتنوع الأزياء الإسلامية والدوريات والمجلات والصحف تزدهر وتحمل معها حسا جديدا بالإمكانيات. فاتحت الحركة الإصلاحية اليسار العلمانى والمجموعات الليبرالية فى أمر التعاون معها، كما دعمت الاتحادات العمالية الجنينية والتنظيمات الطلابية والنسائية. وبحلول عام ٢٠٠٠ كان ثمة المئات من الإصدارات الجديدة - الصحف والمجلات والدوريات الثقافية. كما تم تداول أعمال المثقفين الأجانب مثل كارل بوبر، وهانا آرندت وإدوارد سعيد، وطونى كليف وألِكس كالينيكوس ونعوم تشومسكى وأرونداتى روى ويورجن هبرماس، وأنطونى جيدنز وبيير بورديو ومعهم ماركس ولينين وتروتسكى وستالين وماو، تداولها بحرية، بل سُمِع أيضا صوت النشطاء الإيرانيين العلمانيين.

تم تشجيع عملية تشكيل المنظمات غير الحكومية من قبل الحكومة والبرلمان طوال الفترة من عام ٢٠٠٠ وإلى عام ٢٠٠٤، إذ نُظر إلى تلك العملية كأسلوب لنقل مسئولية الدولة عن توفير الرعاية الأساسية لمواطنيها إلى التنظيمات غير الحكومية، وتلقف الطلبة والنساء هذه الفرصة وأنشأوا تنظيمات أصبحت مكونا مهما فى الحركة الديموقراطية على الرغم من شن الهيئات القضائية المحافظة كثيراً من الهجمات عليها. كانت تلك فترة صراع مرير على السلطة بين المحافظين الذين كانوا يفقدون كثيرا من التأييد الشعبى، وبين الإصلاحيين. وكنتيجة لذلك، لقيت بعض الجهود المزدهرة من أجل الحرية تبعات مأساوية. قُتل ثمانون من الكتاب والشعراء والنشطاء السياسيين العلمانيين والإسلاميين فى ظروف غامضة. وفى الفترة ما بين فبراير ومايو عام ٢٠٠٠، أغلقت الهيئات القضائية التى يسيطر عليها المحافظون صحفا ودوريات

ومجلات إصلاحية واعتقلت مئات المحررين والصحفيين والكتاب والناشطين(١). وعلى الرغم من ذلك، واصلت حركة الديموقراطية نضالها، ومن ثم، تم الإفراج عن المعتقلين وعادت الإصدارات المحظورة إلى الظهور. نتيجة لذلك، ابتعد بعض الإصلاحيين بأسلوب راديكالى عن الإسلام كمبدأ تنظيمى للحياة العامة، فيما ظل آخرون متدينين وأكثر اعتدالا؛ واتخذ الكثيرون موقفا وسطا بين الطرفين. منذ أواخر التسعينيات، عانى كثير من الإصلاحيين الإسلاميين الذين تدعمهم قطاعات من الطبقة العاملة والنساء والطلبة والشباب، عانوا من اضطهاد لا هوادة فيه على يد الهيئات القضائية. وفى واقع الأمر، فمنذ الثمانينات حينما تم قمع المعارضين اليساريين والقوميين، ركز المحافظون هجومهم على المسلمين الإصلاحيين. وعلى الرغم من الاضطهاد مضت حركة الإصلاحيين فى نضالها من أجل التغيير وتصدت لسلطة المحافظين المؤسسية وحققت إصلاحات لبعض القوانين والأحكام لصالح النساء والعمال والطلبة.

فى عام ٢٠٠٢، دعا مركز الحوار بين الحضارات، الذى أنشأه خاتمى الفيلسوف يورجن هابرماس لزيارة إيران. استضاف آية الله مهاجرانى وزير الثقافة السابق وحليف خاتمى الذى قاتل من أجل تحرير الإعلام أثناء توليه منصبه، استضاف هذا الزيارة. علّق هابرماس قائلاً: «إن الفلاسفة وعلماء الاجتماع والصحفيين يتحدّون الحكم الدينى فى البلد على المستوى الرسمى وغير الرسمى». جادل الطلبة واشترك معهم فى نقاشات بجامعة طهران الموقع الرمزى التاريخى لحركة احتجاجات

(١) مرة أخرى، تلجأ الكاتبة إلى السرد المرسل ولا تذكر أرقاما محددة، أو الأسباب التى استند إليها القضاء لاتخاذ تلك الإجراءات. (الترجمة)

الطلبة، والتى أصبحت منذ عام ١٩٧٩ الموقع الرسمى لأداء صلاة الجمعة حول علمانية الغرب. رأى هابرماس «أن صورة المجتمع الصامت الذى يدار مركزيا والواقع فى قبضة الشرطة السرية لا تنطبق (على هذا المجتمع) على الأقل من الانطباعات التى تلقيتها من لقاءاتى مع مفكرين ومواطنين منطلقين غير مكبوحين وسكان حضريين واثقين بأنفسهم يتحدثون بتلقائية». وجد الشباب جيدى الاطلاع ويستطيعون مناقشة القضايا السياسية علنا وبصراحة. وفى أثناء حوار معه عن العلاقة بين الدولة والمجتمع والدين والعلمانية علّق بالقول «إن المناقشات فى إيران تعطى الانطباع أحيانا أن المشاركين قد عادوا إلى إلى زمن الإصلاح الدينى (فى أوربا)».

بيد أنه، شعر كثيرون من حركة الديموقراطية بالإحباط من مستوى الدعم المنخفض فى البرلمان والحكومة للمضى فى الإصلاحات. أوضحت مقاطعة الانتخابات المحلية درجة الإثباط هذه وأدت إلى فقدان كثير من الإصلاحيين مقاعدهم. أما الانتخابات التشريعية لعام ٢٠٠٤ فقد أنتجت أكثر الأزمات التى واجهت حكام إيران الدينيين خطراً منذ عام ١٩٧٩، قام مجلس الأوصياء، وهى هيئة رقابة دستورية غير منتخبة مؤلفة من رجال الدين المحافظين، باعتبار المرشحين الإصلاحيين، ومن بينهم ثمانون عضوا إصلاحيا بالبرلمان يضمون أربع عشرة امرأة، اعتبارهم غير مؤهلين ورفض ترشحهم. احتج هؤلاء النواب، رجالا ونساء، بتنظيم الاعتصامات وتقديم استقالاتهم. حاولوا تأجيل الانتخابات لإجراء مزيد من التفاوضات، لكن المحافظين رفضوا. نتيجة لهذا، دعت الأحزاب الإصلاحية، بدعم من الحركة الديموقراطية إلى مقاطعة الانتخابات التشريعية. رأوا أن تلك الانتخابات غير عادلة أو حرة، وأنها سيتم حسمها بواسطة الشرطة والجيش. طلب الإصلاحيون والطلاب السماح

لهم بتنظيم عدد من التظاهرات الاحتجاجية لكن طلبهم رُفض. بالرغم من ذلك قاموا بالاحتجاج من خلال كتابة المقالات على مواقعهم الإلكترونية وفى صحفهم الإصلاحية.

نتيجة لهذا، سيطر المحافظون على البرلمان فى ربيع عام ٢٠٠٤، هذا علاوة على سيطرتهم على التليفزيون والإذاعة الإيرانية وعلى الجيش والشرطة. أُثبط كثير من نشطاء القاعدة الشعبية من نهج قيادات الإصلاحيين التصالحية، واعتقدوا أنه كان ينبغى على الرئيس خاتمى التصدى للمحافظين حينما رفضوا إجراء مزيد من الإصلاحات، أو حينما أغلقت الهيئات القضائية الصحف والدوريات واعتقلت الصحفيين والطلبة والعمال والنساء، أو حينما تأجل إصلاح القوانين. أو تم التخلى عنه. نتيجة لذلك، غدا الكثيرون ينظرون، بتزايد، إلى القيادات الإصلاحية بصفتها مدافعة عن نظام الحكم الدينى.

فى عام ٢٠٠٥، أصبح محمود أحمدى نجاد رئيسا للجمهورية الإسلامية فى انتخابات شارك فيها ٦٢٪ من السكان. قاطعت أقلية من المثقفين، بمن فيهم شيرين عبادى الفائزة بجائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٣، الانتخابات الرئاسية على أساس أنها تفتقد الشرعية وذلك لأن مجلس الأوصياء رفض المرشحات النساء. بيد أن عددا كبيرا من الشباب والنساء شاركوا فى الانتخابات وبخاصة فى دورتها الثانية. صوتت الغالبية لأحمدى نجاد، ليس على أسس دينية، بل لأسباب سياسية واقتصادية. لم يطرح مزيدا من الأسلمة، بل كان برنامجه يقوم على أساس حل المشاكل الاقتصادية ومكافحة الفقر والفساد. كانت قيادات حركة الإصلاحيين قد فشلت فى التعاطى مع هذه القضايا، وكما يذهب غيسارى وسنانداجى، فإن لدى المحافظين، وخاصة البرجماتيين منهم، أجندات للإصلاحات الاقتصادية أكثر اتساقا بكثير من نظرائهم

الإصلاحيين. كان انتخاب أحمدى نجاد، جزئيا، احتجاجا من بعض قطاعات السكان الأكثر فقرا ضد الحكومة الإصلاحية التى انتقلت إلى اقتصاد الأسواق الحرة وحاولت تقليص نظام الرفاه الاجتماعى الإسلامى. وعلى المستوى السياسى، أكدت نتيجة الانتخابات الرئاسية على أوجه قصور قيادات الحركة الإصلاحية الذين منيوا بالفشل فى الانتخابات لكنها لم تكن علامة على هزيمة الحركة الديموقراطية ذاتها. وكانت انتخابات ٢٠٠٨ التشريعية دليلا على ذلك، إذ فاز الإصلاحيون بمعدل ٣٠٪ من المقاعد بالرغم من عدم تأهل كثير من المرشحين من قبل القيادات المحافظة.

يبدو أن قصور الدولة الإسلامية ومؤسساتها وتناقضاتها - دولة قامعة سياسيا لكنها ملتزمة برعاية الفقراء - قد عمل على تسييس غالبية العمال والنساء والأقليات العرقية والدينية وبخاصة من يدعمون منهم أسلمة المجتمع. ظلوا يكافحون ضد الظلم وعدم المساواة ولزيادة مشاركتهم فى جميع المجالات. علاوة على ذلك، فقد لعب دعم الغالبية للإصلاح دورا مهما فى تآكل شرعية الحكم الاستبدادى وتعزيز القضايا الديموقراطية. تشارك الجمعيات غير الرسمية للعمال والنساء والطلبة والأقليات فى عملية المقرطة وكانت السبب فى انفصال الإصلاحيين عن المحافظين وبزوغ «مجموعة المحافظين البرجماتيين». بعض هؤلاء محاربون قدماء فى الحرب الإيرانية العراقية الذين يعملون تحت تأثير الإلزامات القومية والاقتصادية لا الأيديولوجيا الإسلامية الثورية.

من ثم، فإن من التضليل، بل والعنصرية، وصف الدولة الإيرانية بأنها «دولة دينية يهيمن عليها ملالى عصر أوسطيون». الدولة الإيرانية كدولة رأسمالية إسلامية، دولة قمعية وقد عملت منهجيا على تقويض الاستقلال الذاتى لمجالات النشاط الاجتماعى. بيد أنها أيضا وفرت التعليم والرعاية

الصحية لغالبية السكان: يسجل شباب وشابات الطبقة العاملة فى المناطق الريفية والحضرية أسماءهم فى معاهد وكليات التعليم العالى بأعداد غير مسبوقة، كما أن لديهم توقعات كبيرة: الحق فى الرعاية الصحية والتعليم والعمل، وحق النساء فى اختيار ارتداء الحجاب أو عدم ارتدائه. أدت هذه العملية إلى زيادة الوعى بالطبقة والجندر والإثنية وبخاصة فى أوساط الجيل الجديد. وكما سنبين لاحقا، فعلى الرغم من كل مخاطر مواجهة سلطة الدولة، فقد شاركت مختلف المجموعات التى شكلت حركة الديموقراطية فى حملات من أجل تحقيق المساواة بين الطبقات والإثنيات وبين الرجال والنساء. تحققت إصلاحات أكثر فى قوانين الأحوال الشخصية، والتعليم والعمل أكثر مما تحقق فى ظل غالبية الأنظمة التى تدعمها الولايات المتحدة فى المنطقة. علاوة على ذلك، وبأسلوبها الخاص، فإنها ماضية بشجاعة فى تحدى الطبيعة الدينية لحكم الدولة.

حركة الديموقراطية:

١- النقابات العمالية: تعتبر النقابات العمالية مركزا مهما للسلطة فى المجتمع المدنى. يوضح تاريخها فى إيران أنها لم تكن دائما مؤسسات متجانسة: تمتع بعضها بدعم قاعدى، وعمل البعض الآخر عملاء للدولة. ظلت باقية بعد فترات طويلة من التواجد فى ظل أنظمة قمعية، وكان لأنشطتها، فى أزمنة مختلفة، دور مهم فى إعادة تنشيط المجتمع المدنى وإحيائه.

بيد أن الحركة العمالية الإيرانية فى السنوات المبكرة للقرن العشرين أنجزت، من خلال الإضرابات واحتلال المصانع والتظاهرات، الحد الأدنى من معايير السلامة وبيئة العمل الصحية، والإجازات المرضية مدفوعة الأجر، و٤٨ ساعة عمل كل أسبوع، وإجازة يوم الجمعة مدفوعة الأجر،

وحقوق العمال الأساسية فى تشكيل الاتحادات. كسبت العاملات بعضا من مطالبهن مثل إجازة الأمومة وحق أمهات حديثى الولادة فى اقتطاع جزء من الوقت مدفوع الأجر لإرضاع أطفالهن أثناء ساعات العمل.

أصبحت تلك الحقوق جزءا من قانون العمل الإيرانى. فى عام ١٩٥١، أدى إضراب عمال النفط إلى انتصار حركة مصدق القومية وإلى تأميم النفط وانتهت تلك الفترة بالانقلاب الذى دبرته السى آى إيه. حلت النقابات محل الاتحادات العمالية وسيطر الحكم الملكى على حركة النقابات العمالية ومعها الحركات الاجتماعية الأخرى. أثناء ثورة ١٩٧٩، تولت لجان الإضرابات، التى حلت محل النقابات، تنظيم الإضرابات. وبعد الثورة أمدت لجان الإضرابات مجالس شورى العمال الجديدة بالقيادات. أدت الحملات التى نظمها العمال العاطلون فى تلك المرحلة إلى إجبار الحكومة على إعادة فتح المصانع المغلقة، وفى بعض الحالات، قام العمال بأنفسهم بفتحها. كانت القيود الثقافية قد أثرت فى حركية النساء قبل ثورة ١٩٧٩، فلم تكن كثيرا من العائلات تسمح لبناتها بالانضمام إلى النقابات. لكن أثناء ثورة ١٩٧٩ وبعدها أصبحت نساء كثيرات عضوات بمجالس الشورى العمالية بما فى هذا مجالس الصناعات الدوائية والغذائية والنسيج. ناضلت هؤلاء العضوات من أجل إقامة حضانات فى أماكن العمل، وفصول لمحو الأمية وتحسين أوضاع الصحة والسلامة وساعدت تلك الأنشطة على يقظة وعى النساء بأنفسهن كنساء وشاركن ولأول مرة فى أنشطة الاتحادات العمالية بصفتهن نساء. وكان لهذا دلالاته المتعددة: كانت مجالس الشورى تتعرض للهجوم؛ وكان الرجال والنساء يناضلون من أجل إنقاذها لكن العمال الرجال كانوا يعارضون تمثيل النساء. اعتقدت النساء أنه ينبغى تمثيلهن فى المجالس بصفتهن عاملات نساء وذلك لأن لديهن مطالب محددة خاصة بهن. فى

عام ١٩٩٨ تم إنشاء الجمعية التجارية للصحفيات النساء، وكانت صحيفتهن «صوت النساء» تناقش قضايا مثل التمييز في الأجور بين النساء والرجال في المنشآت الإعلامية، وساعات العمل الطويلة للنساء، وعدم توليهن المناصب الإدارية وتأثير إغلاق عدد من المؤسسات الإعلامية بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٢ على عمالة المرأة. ومنذ آنذاك، تم إنشاء «الجمعية التجارية للناشرات، والجمعية التجارية للمدرسات والجمعية التجارية للممرضات والجمعية التجارية للمحاميات. كان إنشاء تلك الجمعيات دلالة على أن النساء العاملات يجدن صعوبة في إيجاد ظروف يعمل فيها الرجال والنساء معا لتحديد حقوقهم الديموقراطية والسعى للحصول عليها. ومن ثم، فقد مضين يتحدين النقابات العمالية التى يهيمن عليها الرجال. وقد يؤدى هذا إلى تشكيل المزيد من الاتحادات العمالية للنساء، أو إلى إجبار تلك المؤسسات التى يهيمن عليها الرجال على الاعتراف بهن كعضوات فاعلات.

فى بداية الثمانينيات، حلت جمعيات الشورى الإسلامية، محل جمعيات الشورى المستقلة، لكن مازالت الروح القتالية والإضرابات مستمرة. وعلى الرغم من أن الدولة الإسلامية تشرف على التنظيمات العمالية، إلا أن تلك التنظيمات، وبأسلوبها الخاص، ماضية فى تحدى طبيعة الجمعيات الإسلامية إذ يرى عدد من النشطاء أن تطبيق مصطلح «إسلامية» على التنظيمات العمالية أدى إلى استبعاد عدد من العاملين ومن ثم إضعاف التنظيمات، ولذا تطالب بإنشاء منظمات عمالية مستقلة.

وطوال التسعينيات، قام العمال بتنظيم احتجاجات ضد تأخير الأجور أو عدم دفعها، وأيضا بشأن قضايا الصحة والسلامة، كما قاوموا وجود عمالة زائدة بسبب الخصخصة أو التعاقد من الباطن. فى عام ٢٠٠١، نظم العمال ٣٠٢ احتجاج فى أنحاء البلاد، وفى طهران بخاصة، وبشكل

أساسى فى مجال الصحة والتعليم، وأيضا صناعات النسيج والأحذية والمعادن والسيارات والملابس والنفط والبتروكيميائيات والسجاد. أخذت تلك الاحتجاجات شكل الإضرابات والاعتصامات فى أماكن العمل، أو خارج الوزارات المختصة أو البرلمان وأيضا تقديم التماسات. كانت احتجاجات المدرسين لافتة بخاصة حيث أضرب الآلاف منهم فى جميع أنحاء البلاد، وأغلقت ٤٠٠ مدرسة أبوابها وسار الآلاف فى شوارع طهران وتجمعوا خارج البرلمان وخارج مكتب رئيس الوزراء. اعتُقِل عدد منهم ثم أفرِج عنهم لاحقا.

فى ظل حكومة خاتمى، أدت البيئة السياسية المنفتحة إلى عدد أكبر من الإضرابات والاحتجاجات. أعاد اتحاد عمال النقل العام، الذى كان قد حُظر فى الثمانينيات، تشكيل نفسه. أما فى ظل حكومة أحمدى نجاد، فقد ألقت الشرطة، فى ديسمبر ٢٠٠٥، القبض على اثنى عشر من قادة الاتحاد الذين كانوا يقومون بحملة من أجل الحق فى تنظيم صفوفهم للنضال من أجل أجور وبيئات عمل أفضل من خلال التفاوضات الجمعية. وبعد عدة أيام، تم اعتقال المزيد من أعضاء الاتحاد بعد تنظيمهم إضراباً للحافلات من أجل إطلاق سراح زملائهم. أفرجت الحكومة عن أعضاء الاتحاد المعتقلين باستثناء قائدهم منصور أوسانلو، من ثم، دعا الاتحاد إلى إضراب آخر للمطالبة بإطلاق سراحه، وتم اعتقال عدد آخر من العمال. دعا العمال إلى إضراب عام ونظموا مزيداً من الاحتجاجات وكانت مطالبهم تشمل إطلاق سراح قياداتهم وزملائهم، وعمل عقود لهم يتم التفاوض بشأنها جميعاً، والاعتراف باتحادهم. ردت الحكومة على تلك الإجراءات الجديدة باعتقال المزيد من أعضاء الاتحاد ومن أُسر العمال المعتقلين ومعهم الطلبة والنشطاء الذين دعموا المضربين.

فى عام ٢٠٠٩، أضرب ١٣٠٠ من العاملين فى «شركة عربات السكك

الحديدية» وهى إحدى كبرى شركات تصنيع عربات القطارات فى إيران، للمطالبة بأجورهم التى لم تدفع. أيضا قام أربعمائة من العاملين فى شركة الألمونيوم الإيرانية بالإضراب لنفس السبب وقام عمال صناعات مختلفة فى أنحاء متفرقة من البلاد - بما فى هذا عمال مصنع الأهواز للأنابيب، ومصنع ماهيمان، وجوقه للمعدات الثقيلة، وصناعات إيران للاتصالات، ومصنع هافت تيب للسُكر - قاموا بالإضراب. تم ضرب الكثير من العمال وتعذيبهم، رغم أن الحكومة لم تجرؤ على إعدامهم مثلما كان لابد وأن يحدث لو أن هذا قد وقع فى عهد الشاه. أخبرنى عيسى سهارخيز فى أحد لقاءاتى معه ما يلى:

«فى التسعينيات، تم خلق مساحة للجدل السياسى داخل الاتحادات العمالية ونقابات العمال. ونتيجة لذلك، مازال العمال ماضين فى إعلان مطالبهم حتى فى ظل حكومة أحمدى نجاد المحافظة وبالرغم من الاعتقالات. تم إغلاق وكالة أنباء عمال إيران التى كانت تقوم، بصفتها منشأة إعلامية عمالية، بربط العمال ببعضهم، لكن حل محلها صحيفتان: «العمل» و«العمال». يدرك العمال تماما سر نجاحهم - الوحدة والتكافل وعلى هذا الأساس يحاولون تكوين شبكات اتصال من خلال اتحاداتهم ونقاباتهم المستقلة. وعلى الرغم من أن إقامة تنظيمات عمالية واجهت القمع، إلا أنها نجحت فى ربط حركتهم مع الحركات الأخرى، ونتيجة لذلك، فإن قطاعات واسعة من المجتمع تدعمهم. من المهم أن ندرك أنه بالرغم من توقيف النشطاء واعتقالهم فلا يمكن للسلطات استبعاد النقابات والاتحادات العمالية وقياداتهم تماما أو القضاء عليها. بيد أن الضغوط الخارجية مثل العقوبات المتواصلة والتهديدات المستمرة بالحرب تقوى من وضع المحافظين وتضعف موقف العمال والاتحادات العمالية».

لدى العمال والاتحادات العمالية أعضاء فى البرلمان يقومون بالضغط

على الحكومة. لدى عدد من أعضاء البرلمان قاعدة داخل الاتحادات العمالية، ونخص بالذكر هنا سهيلة جلودا رزاده، عضوة البرلمان الإصلاحية، التي فازت بمقعدها في انتخابات عام ٢٠٠٤ من خلال أصوات العمال والاتحادات. عملت كإحدى قيادات «بيت العمال» التي كانت مؤسسة تشرف على تجميع منظمات العمال المختلفة، وتعمل كمركز لتوزيع حوافز العمال وعلاواتهم في ظل حكومة خاتمي. أُضعف دور هذه المؤسسة في ظل حكومة أحمدى نجاد، لكن جلودا رزاده أنشأت قسما للنساء لتوفير التعليم والتدريب للعاملات. وكان إصلاح بعض القوانين مثل الاعتراف بالعائلات التي تقوم عليها امرأة، وإتاحة القروض والمعاشات للنساء، قد عمل على تحسين مستوياتهن المعيشية. أنشئ اتحاد الصحفيين في التسعينيات وبلغ عدد أعضائه ١٥٠٠. لكن في عام ٢٠٠٩ زاد عدد الأعضاء ليصبح ٤٥٠٠ على الرغم من القمع السياسي. أخبرتني ماشاء الله شمس الواعظين، وهي صحفية والمتحدثة باسم جمعية حرية الصحافة بالتالي:

«حينما يقومون بإغلاق الصحف، نعارض القرارات ونكتب خطابات احتجاج وننظم الاعتصامات والتظاهرات. نعطي أسر المعتقلين مساعدات مالية. نواصل مطالباتنا بحرية الصحافة، وضمان أمن العمل الصحفي، والعدالة، والمحاكمات المنصفة للصحفيين المسجونين. نعمل أيضا على قضايا حقوق الإنسان والمساواة بين الرجل والمرأة. نشعر أننا سننجح تدريجيا في الوقوف والدفع بالحدود لإجبار الحكومة على التصرف بمسئولية».

الطلبة

كانت الحركات الطلابية قبل عام ١٩٧٩ يسيطر عليها الطلاب اليساريون لكن الإسلاميون يسيطرون عليها الآن. لعبت منظمة «تبنى

الوحدة» الطلابية دورا مهما فى احتلال السفارة الأمريكية من نوفمبر ١٩٧٩ وحتى يناير ١٩٨١. ومنذ التسعينيات شهدت الحركة الطلابية تغييرات مهمة. والحركة الطلابية منوعة تجمع بين الطلبة المتدينين والعلمانيين وبينما يعتقد البعض أنه يجب التركيز على المصالح الفئوية للطلبة يرى آخرون أن مدى الحركة ينبغى أن يتوسع ليشمل القضايا السياسية. ينتمى بعض الطلاب إلى جمعيات إسلامية فيما ينتمى آخرون إلى جمعيات يسارية وليبرالية. حدث وأن غيرت بعض الجمعيات الإسلامية أسماءها لتصبح جمعيات طلابية. أثناء فترة رئاسة خاتمى، أصبحت حركة «تبنى الوحدة Tahkime Vahdat» ذات هوية راديكالية والمركز الذى ينظم أنشطة الطلبة واجتماعاتهم ومؤتمراتهم، ثم أنشأت قسما للنساء تحت ضغط الطالبات. أُغلِق عدد من تلك المراكز منذ عام ٢٠٠٧، ولدى محاولة بعض الطلبة إعادة فتحها حدثت مصادمات بين المحافظين والإصلاحيين. سيطر الطلبة المحافظون على بعض المراكز الأخرى بمساعدة الدولة ومؤسسات أخرى.

أصبحت بعض الجمعيات الإسلامية التى تشارك فى الأنشطة السياسية راديكالية فيما حافظت على هويتها الإسلامية. أنشئت جمعية «أدوار تحكيم وحدات Advare Tahkim Vahdat» وهى منظمة للخريجين من طلبة الدراسات العليا الذين أنهوا دراستهم الجامعية ويرغبون أن يظلوا نشطاء فى إطار الحركة الطلابية. وسع بعضهم مشاركتهم لتشمل الحركات النسائية والاتحادات العمالية باستخدام موقعين إلكترونيين يقومون من خلالهما بتوسيع شبكة اتصالاتهم.

فى معظم الحالات ظلت الحركة الطلابية تتحرك خارج نطاق مصالح الطلبة الفئوية. تتراوح أهداف حملاتها بين تحسين قاعات الدراسة ومساكن الطلبة إلى المشاركة فى الحملات الانتخابية، والمطالبة بالإفراج

عن الطلبة والمعلمين الذين يُلقى القبض عليهم. وأحيانا تتحول مصلحة فئوية للطلبة إلى مطلب سياسى. نظمت الحركة تظاهرات واجتماعات داخل الجامعات وخارجها بالإضافة إلى المشاركة فى اللوبيهات وأعمال الدفاع والتأييد.

فى عام ٢٠٠٤، نظم الطلبة حملة للإفراج عن هاشم أغاچارى أستاذ التاريخ وأحد أبطال الحرب مع العراق المعوقين، والذى حكم عليه بالإعدام بعد خطاب ألقاه رأى فيه أن الإسلام ليس حكرا على رجال الدين. وفر حكم الإعدام فرصة لطلبة الجامعات للتعبير عن غضبهم ضد النظام. استمروا فى صراعهم حتى ألغى حكم الإعدام وتم الإفراج عن البروفسور.

ترى كثير من الطالبات أن الحركة الطلابية قد سيطر عليها تاريخيا الطلبة الذكور إذ إنه لا يوجد سوى قلة من النساء بين قياداتها. من ثم، فإن الطالبات الناشطات كثيرا ما يشاركن فى الحركات الطلابية وفى الحركات النسائية معا. عبر دور الطالبات فى الحركة الطلابية عن نفسه فى الأسلوب الذى تغير به زى الطالبات، فعلى حين أنه كان ينبغى على الطالبات فى أواخر الثمانينيات وبدايات التسعينيات ارتداء الشادور الأسود، فقد تنوعت أزياؤهن الآن مع الحفاظ على السمة الإسلامية (الاحتشام). من الحقيقى أنه تم اعتقال بعض الطالبات لتجاوزهن كل الحدود المقبولة، لكنهن مضين يتحدين الحكومة بشجاعة كى يبرهن على أن الإسلام منحهن حق الاختيار. يدعم الطالبات كثير من زملائهن الطلبة الذين يرون أن حقوق النساء هى جزء من النضال من أجل الديموقراطية. فى عام ٢٠٠٨، قادت الطالبات حملة ضد نظام «الكوتة» فى الجامعات الذى يمنح الطلبة الذكور الأولوية فى الجامعات ويميز ضد الطالبات بالحد من خياراتهن وتقييد حريتهن فى الالتحاق بجامعات غير

إقليمية. يرين أن هدف تلك القواعد التمييزية هو التحكم فى الحركة النسائية وتقييد فرصهن فى الحركية الاجتماعية.

فى أعقاب انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية الخلافية، وما أعقبها من تظاهرات، لعب الطلبة دوراً مُهماً طوال العام الدراسى ونظموا تظاهرات داخل الجامعات للمطالبة بالديموقراطية وإنهاء القمع السياسى. تختلف آراؤهم إذ يعتقد البعض فى فصل الدين عن الدولة ويرى آخرون وجوب كسر الأصفاد الدينية التى تقيد البلاد. يؤمن البعض بإجراء إصلاحات حذرة ويرون أن الدين جزء أساسى من حياة الناس لا يمكن للدولة تجاهله. لا يعارضون جميعهم الثقافة الغربية بصفتها تلك، لكن يفضل كثير من الشباب الإيرانى من جميع الطبقات «الموسيقى العالمية» – مزيج من الموسيقى العربية وموسيقى الراپ والموسيقى الإيرانية. بيد أن تفضيل هذه الموسيقى له أبعاد سياسية عميقة تتعلق بحقوق المرأة وإنهاء الصراعات والفقر والجوع والقمع السياسى والتوجهات المحافظة. ثمة أقلية ضئيلة منبهرة بالغرب وبخاصة بالولايات المتحدة، وفى الواقع فقد غادر بعض هؤلاء إيران ومعهم أموالهم واستقروا بلوس أنجيليس. ومن منفاهم الاختيارى كونوا روابط موسيقية بين العالمين – أى موسيقى «طهرانجيليس» وهى مزيج من الموسيقى الغربية والإيرانية – من خلال الإنترنت. ولكى يكون لهم موطئ قدم فى إيران، يكيف، موسيقيو الطهرانجيليس موسيقاهم لتتوافق مع الإيقاع الحقيقى للشارع الإيرانى. وعلى الرغم من تكاثر كافيهات الإنترنت، إلا أنها ليست متاحة للجميع، ومع ذلك، فقد انتشرت موسيقى الطهرانجيليس مثل النار فى الهشيم. ترفض غالبية الطلبة فكرة أن التوجهات التقدمية مقصورة على الغرب. وفى نفس الوقت فهم يعارضون القواعد والأحكام التقليدية الجامدة التى يضعها رجال الدين المحافظون فى إيران وينشطون فى محاولتهم

لتشكيل نماذج تحررية تستند على خبراتهم، تتمازج فيها الثقافة الشرقية والإسلامية والإيرانية والغربية - مثل موسيقى طهرانجيليس.

تربك الحروب الأمريكية فى العراق وأفغانستان الشباب، وفى نفس الوقت يغضبهم احتكار الدولة للمشاعر المعادية للإمبريالية، مع فرض المؤسسات المختلفة القيود عليهم وتعرض قيمهم للهجوم المستمر من قبل المحافظين. بالإمكان سماع أصوات الشباب والشابات فى غرف الدردشة على الإنترنت، وعلى مواقعهم الإلكترونية وفى اجتماعات الطلبة. يقولون «إننا الضحايا الحقيقيون للمحافظين الأمريكيين والإسلاميين. لقد ناضلنا من أجل إقامة حكم إصلاحى لكن لم يتم الوفاء بمطالبنا. نطالب بالحريات المدنية، والحق فى المشاركة فى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، الحق فى اختيار ما نلبسه والحق فى أن نحب الحياة وننعم بها».

الأقليات العرقية والدينية:

حوالى ٩٩٪ من سكان إيران مسلمون، تشكل الجماعات الشيعية ٨٩٪ من هؤلاء والسنية ١٠٪ أما نسبة ١٪ الباقية فيتكونون من أقليات دينية من غير المسلمين مثل الأرمن والآشوريين والكالدانيين واليهود والزرداشتيين والبهائيين والإيرانيين الذين تحولوا إلى المسيحية. تتكون تشكيلة إيران الإثنية من ٣٥٪ من الفرس و١٦٪ آزاريين، و١٣٪ أكراد و١٠٪ جيلاكى/ مازادرانى، و٧٪ من اللور و٣٪ عرب و٢٪ بلوشيين، و١٤٪ مجموعات إثنية وقومية أخرى بما فيها القاشقاى والبختيارى وأناس من أصول أفغانية وعربية. الفارسية هى اللغة الرسمية ويتحدث بها غالبية السكان. يتحدث البعض أيضا باللغات التركية والكردية والبلوشية واللورية والعربية والجيلاكية والآشورية، وتستمر تلك التعددية اللغوية في النمو. يرى لوا بك أن المجموعات القبلية فى إيران قد قاموا

تاريخيا باختراع هوياتهم وإعادة اختراعها وفقا للأحوال الاجتماعية الاقتصادية والاجتماعية السياسية المتغيرة. كانت كل قبيلة تتكون من أصول إثنولغوية وإثنودينية متنوعة. وطوال التاريخ تمكنت المجموعات من البقاء من خلال اختلاطها بالآخرين ونقل مزاياها السياسية والاجتماعية والثقافية بأسلوب مستدام.

الشيعة الإيرانيون متنوعون، يشكلون غالبية من الإيرانيين المتحدثين بالفارسية، وبعض العرب، والأزاريين المتحدثين بالتركية. من ثم فليست الغالبية الشيعية فارسية فى مجموعها. أما غالبية الأكراد والبلوشيين فينتمون إلى المذهب السنى، وتعى الأقلية السنية جيدا تمايزها عن الشيعة. لم يحدث تاريخيا أبدا أن تكونت جبهة سنية فى مواجهة الشيعة وذلك لأن كل مجموعة منهم مقسمة على أساس الطبقة والإثنية والنوع والجغرافيا واللغة وأيضا الدين. تعتبر المجموعة المتحدثة بالتركية أكبر أقلية إثنية ولغوية فى إيران، وهى منقسمة بين مجموعات فرعية من الشيعة والسنة، وتم استيعاب غالبيتها، والأزاريين بخاصة، فى الوسط الفارسى. يتركز الأكراد فى غرب إيران بالمنطقة الحدودية مع العراق، فيما يتركز البلوشيون فى جنوب شرقى إيران فى المنطقة الحدودية مع باكستان ولم تبد أى من هاتين المجموعتين اهتماما كبيرا بـ «الفرسنة». أما العرب فيتركزون فى جنوبى غرب إيران فى المنطقة الثرية بالنفط بالقرب من الخليج الفارسى وفى المناطق الحدودية مع العراق والسعودية والكويت، ولتلك المجموعات الثلاث تاريخ طويل فى الحركات الانفصالية، أما التركمان السنة والأزاريون الشيعة فليس لديهم ميول انفصالية واضحة.

يبين تاريخ إيران أن الحركات الاجتماعية الأهلية ذات الطبيعة المعادية للكلونيالية والإمبريالية (مثل احتجاجات التبغ بين عامى ١٨٩٠ –

١٨٩٢، والثورة الدستورية بين عامى ١٩٠٦ و١٩١١، وحركة تأميم النفط عام ١٩٥١، وثورة ١٩٧٩) نجحت وذلك لدعم الجماهير القاعدية بشكل أساسى. ويناقض هذا الحركات القومية/ الانفصالية فى القرن العشرين والتى لم تنجح لعدة عوامل. أولا، كان حزب توده الشيوعى والاتحاد السوفييتى يدعمان الحركات الانفصالية القومية فى أزربيجان وكردستان فى أربعينيات القرن العشرين وتمكنا من استغلال الفروق والاختلافات الاجتماعية والاقتصادية التى كانت موجودة. بيد أن الاتحاد السوفييتى سحب دعمه لتلك الحركات بمجرد أن توصل إلى اتفاق مع الشاه. وكنتيجة لهذا، رفض الكثيرون التوجهات الانفصالية الإثنية التى تقوم على أساس من التدخل الأجنبى. وكما ذكرنا، فقد فشلت تلك الحركات أولا لأنها لم تتمتع بدعم شعبى. ثانيا لو أن هؤلاء أعطوا الخيار للانضمام إلى العراق، فى حالة الأكراد، أو الانتقال إلى السعودية والكويت فى حالة العرب، أو لو خُير البلوشيون بين العيش فى باكستان والعيش فى إيران، أو لو خيرت كل من تلك الجماعات بين البقاء فى إيران والإقامة فى بلدها الخاص بها لاختار الجميع البقاء فى إيران، وذلك لأنهم، وبالرغم من القمع السياسى، فإن تلك المجموعات تتمتع بإتاحة جميع الموارد مثل التعليم والرعاية الصحية والوظائف فى إيران، أكثر بكثير من تلك التى ستتاح لها فى البلدان المجاورة. ثالثا، تم قمع جميع تلك الحركات الانفصالية بوحشية سواء فى ظل حكم الشاه أو الجمهورية الإسلامية. من ثم، ظل نضال الأقليات القومية والإثنية ضمن سياق سياسات الحقوق والهوية.

أثناء حكم رضا شاه (١٩٢٥ - ١٩٤١) تم فرض عملية «الفرسنة» على جميع المجموعات الإثنية كجزء من التوجه نحو تقوية الدولة وتشجيع التصنيع والغربنة. هدف التدريس الإجبارى للغة الفارسية، وإعادة

تسمية البلاد إيران بدلا من فارس، وإعادة تسمية عدد من الأقاليم (أصبحت لورستان كرمانشاه، وعربستان خوزستان)، هدف إلى نزع إثنية إيران، وإقامة دولة قومية موحدة: أُجبِرت المجموعات الإثنية على الإذعان للقواعد والأحكام الجديدة، واتبع محمد رضا شاه (١٩٤١-١٩٧٩) نفس السياسة. وفي الستينيات، عملت سياسة إصلاح الأراضي على المزيد من تقليص سلطة المجموعات الإثنية والدينية. تحكمت الدولة في عدد من قادة المعارضة الإثنية والدينية واستوعبتهم في الدولة والمؤسسات الأخرى. تم حظر نشر أية إصدارات للغة التركية أو البلوشية أو الكردية وآدابها، على الرغم من أن تلك المجموعات استمرت تتحدث لغاتها ولهجاتها المتنوعة ولم يؤد تعلم اللغة الفارسية وتدريسها إلى تعميم «الفرسنة».

دعت الجمهورية الإسلامية إلى إسلام عبر/ دولي من أجل خلق هوية إسلامية، من ثم تم قمع أية محاولة للانفصال بضراوة. بيد أن الأقليات الإثنية مازالت مستمرة في محاولاتها من أجل التضمين في الحياة الاجتماعية الاقتصادية في إيران. وفي نفس الوقت، عملت الدولة على تضمين الأقليات في مؤسسات صناعة السياسة الرسمية مثل البرلمان والمجالس المحلية كما اعترفت بالديانات الزرادشتية واليهودية والمسيحية (السابقة على الإسلام)، وتُمثل هذه الأقليات في مؤسسات الدولة ولها الحق في ممارسة شعائرها وطقوسها الدينية وإجازاتها وأعيادها باستثناء البهائية التي لم يعترف بها كعقيدة دينية ويتعرض أتباعها للاضطهاد.

يفتقد ممثلو الأقليات السياسيون في مؤسسات الدولة السلطة السياسية. بيد أن باستطاعتهم التعبير عن معارضتهم ومناقشة احتياجات جماعاتهم ومطالبها. مثلا، أثناء حكومة مهدي بازرجان

الانتقالية عام ١٩٧٩، وفى أثناء صياغة الدستور والموافقة عليه، كانت المادة ١٢ منه تنص على أن الدين الرسمى لإيران هو العقيدة الشيعية الإثنى عشرية. جرى جدل ساخن فى «مجلس الخبراء» حيث اعترض النواب السُّنة وتم التصويت على المادة (أيدها ٥٢ عضوا، وعارضها عضوان وامتنع ثلاثة عن التصويت) وأُقر المذهب الشيعى الإثنى عشرى دينا رسميا للبلاد. أيضا اعترض النواب السنة من مختلف المناطق على المادة ١٤ التى تعترف بالزرادشت واليهود والمسيحيين أقليات دينية لكنها لا تذكر السنة. رد رئيس المجلس بالقول إن الاعتراف بالمذهب الشيعى دينا رسميا لا يعنى أن الجماعات السنية غير معترف بها، الأحرى أنهم معترف بهم جزءا من الغالبية المسلمة. بيد أن ممثلى الأقليات أصروا على مبدأ التعددية الدينية واحترام الخصوصيات الإثنية والمناطقية. أيضا، ارتفعت أصواتهم ضد التمييز الذى تفرضه عليهم الدولة والمؤسسات الأخرى – مثل عدم السماح لهم بتولى منصب رئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء، أو مناصب أخرى كسفراء أو رئاسة القوات المسلحة. توضح تلك الجدالات حول الإثنية والدين واللغة أن كل مجموعة فى إيران تؤكد على جذورها التاريخية فى التعايش مع المسلمين. مثلا، يرى الزرادشت واليهود والمسيحيون أنهم ظلوا يعيشون فى إيران منذ أكثر من ألفى عام، وعلى هذا الأساس يتحدون مفهوم كونهم أقلية. إذ إنهم كانوا فى البلد قبل وقت طويل من تحول إيران إلى مجتمع مسلم.

يدافع نواب الأقليات فى البرلمان بقوة وإقناع عن مصالح جماعاتهم. فى عام ٢٠٠٦ تحدى موريس معتمد، النائب اليهودى بالبرلمان، الرئيس أحمدى نجاد بسبب إنكاره للهولوكوست. وعلى الرغم من حدود الجدل داخل البرلمان، إلا أن هذه الظاهرة تمثل قطيعة راديكالية مع الماضى.

كان نظام الشاه يؤكد على التجانس والتماثل فى الآراء ومن ثم لم تُسمع أبدا نقاشات وجدالات علنية صريحة بين مختلف المجموعات. وعلى الرغم من وجود قدر من التمييز، فقد أوجد المناخ السياسى لما بعد الثورة فرصة لنواب الأقليات بالبرلمان لعرض قضاياهم ومناقشتها علنا. ويمثل هذا بوضوح نقلة باتجاه الديموقراطية وحقيقة وجود تنوع فى المجتمع الإيرانى لن تستطيع الدولة الإسلامية تجاهله.

يثبت عبدالعزيز المولودى، عالم الاجتماع الإيرانى الكردى السنى، بالوثائق أن وضع الأكراد فى إيران اليوم قد شهد تحسنا مقارنة بوضعهم قبل الثورة بيد أنه بعد سقوط الشاه فى إيران وصدام حسين فى العراق تنامت طموحات غالبية الأكراد من السنة والشيعة بالاستقلال المحلى وهم يطالبون الآن بتضمينهم فى الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية فى إيران كمواطنين لهم حقوق متساوية مع باقى المواطنين. كما تذهب نيرة توحيدى أيضا إلى أن مظالم الأقليات متجذرة فى التوزيع غير المتساوى للسلطة والموارد.

وعلى الرغم من تحسن أوضاع الأقليات، فمازال التمييز ضدهم قائما. أكد محسن كاريڤار فى حوار معه، على شكل محدد من التمييز يمارس ضد السُّنة:

«ينص الدستور على أن للأقليات الدينية المعترف بها الحق فى ممارسة شعائرهم الدينية. وأماكن العبادة الخاصة بهم. وبأساليب معينة فإن لتلك الأقليات حقوقاً فى إيران أكثر من نظرائهم فى بلدان المنطقة الأخرى وحول العالم. بيد أن الأقلية السنية محرومة من نفس الحقوق المضمونة للأقليات الأخرى رغم أن عددهم أكبر من أية أقلية دينية أخرى. فالقانون يخول لهم أن تكون لهم أماكن عبادة خاصة بهم وأن يقيموا صلاواتهم وفقا لثقافتهم الخاصة. لديهم مساجدهم الخاصة بهم

فى المدن والمناطق ذات الغالبية السنية، لكن ليس فى تلك المناطق ذات الغالبية الشيعية، هذا على الرغم من وجود كنائس ومعابد لليهود والزرادشت بها. أداء صلاة الجمعة فى المساجد اختيارى لدى الشيعة لكنه يعتبر من الفرائض لدى أهل السنة، من ثم، فعدم وجود مساجد لهم يمنعم من أداء تلك الفريضة، وعلى ذلك يذهب الكثيرون إلى السفارة الباكستانية لأداء صلاة الجمعة، ويعتبر هذا خزياً. وعلى الرغم من وجود نواب لهم بالمجلس فهم قليلون بالنسبة لعدد الجالية السنية. إن الأقلية السنية أكبر من الأقلية اليهودية والزرادشتية والأرمينية وينبغى أن يكون لهم عدد أكبر من النواب، لكن الأمر ليس كذلك. أيضا، ثمة تمييز ضد الصوفيين. وعلى الرغم من أن لهم أماكن عبادتهم، أى الخانقات، فقد تم تدمير بعضها وبالطبع علينا أن نعترف أن الشيعة فى المملكة العربية السعودية والمسلمين فى إسرائيل يتعرضون للاضطهاد والقمع بقدر يفوق كثيرا كثيرا ما تتعرض له الأقليات السنية وغيرها فى إيران».

أيضا، تتحكم الدولة فى درجة تضمين الأقليات الدينية والإثنية فى مؤسسات صنع القرار السياسى. ثمة مقعدان للأرمن فى البرلمان، ومقعد للأشوريين ومقعد لليهود وآخر للزرادشت؛ أما الجاليات السنية فلها عدد مقاعد أكبر بكثير كأقلية دينية، وتمثل الأقاليم ذات الغالبية السنية. تشارك الأقليات الدينية فى الانتخابات التشريعية من خلال عملية، تنافسية مفتوحة لتسجيل المرشحين. تقتضى الانتخابات القيام بحملات الدعاية وتوزيع المنشورات فى أنحاء المدن. يتحدث المرشحون فى اجتماعات يعقدونها لكسب أصوات المجموعات يمكن للأفراد ترشيح أنفسهم فقط من خلال الهيئة الحكومية المختصة وليس من خلال مراكزهم الدينية والإثنية، وبهذا المعنى، تتحكم الدولة فى العملية. تبدى المجموعات. الإثنية الدينية استياءها من هيمنة طهران المؤسسية على

تشكيل السياسة. يناقش ممثلو المجموعات الإثنية السنية والشيعية من خلال الوسائط الإعلامية مفهوم تقرير المصير للآزاريين والبلوشيين والعرب ويذهبون إلى أن الحركات الإثنية فى إيران لم تكن أبدا انفصالية؛ الأحرى أنها جميعها تطالب بالمساواة داخل النظام. مثلا، أخبرنى الناشط العربى الشيعى محمد بالتالى:

«نطالب، كأقلية عربية فى إيران بحقوق متساوية مع الغالبية الفارسية. إن مطالبنا تتعلق بحقوق المواطنة من حيث اللغة والثقافة وإلغاء التمييز الاقتصادى والاجتماعى والسياسى. ولهذا السبب توجد قلاقل فى أنحاء مختلفة من البلاد. لا نريد الانفصال عن إيران بل نريد حقوقا متساوية. قتل ١٢٠٠٠ من العرب فى المعارك أثناء الحرب مع العراق. ثمة مسجونون سياسيون من مجموعات إثنية ودينية يتحدثون عن مظالمهم ويكتبون عنها. إن ٨٠٪ من سكان إقليم خوزستان هم من العرب ويعانون الفقر.

كما أن الأقلية السنية العربية أفقر الفقراء. يعترف الدستور باللغة العربية لغة ثانية للبلاد. وعلى الرغم من أننا نتحدث العربية فنحن لا نستطيع تعليمها لأطفالنا ولا نريد أن نستبدل بها الفارسية. نريد اللغتين معا. يستغل الأجانب وضعنا لشن الهجوم على إيران، لكن لهؤلاء أجندتهم الخاصة. إذا قمنا بحل قضايانا بأنفسنا فسنكتسب سلطة كافية ولن نسمح للأجانب بالتدخل لاستغلال قضايانا على حسابنا. لا تتعلق مشكلة الأقليات بسياسات الدولة والمؤسسات الأخرى فحسب، لأن الخطابات العنصرية المعادية للقومية للأقليات تأتى من مثقفينا. ثمة أدبيات فارسية تصور العرب والأتراك على أنهم كائنات أدنى. لم تضم حكومات خاتمى وأحمدى نجاد سوى عدد قليل من الأقليات، لكن هؤلاء

لا يتصدون للقمع الإثنو/ دينى. نحتاج إلى عدد أكثر من الأقليات فى مناصب السلطة على المستويات المحلية والإقليمية والقومية من أجل التعاطى الجاد مع مظالمنا».

ينبغى النظر إلى التقسيم الشيعى/ السنى فى سياق الهويات الإثنو/ دينية والنضالات الأوسع للأقليات العرقية والدينية الذين يتحدون الدولة والمؤسسات الأخرى بمطالبهم المشروعة لحقوق المواطنة المتساوية. لم تُضعف المحاولات التى يقوم بها المجتمع والدولة الإيرانية من أجل «الفرسنة» والوحدة الإسلامية التنوع الإثنو/ دينى واللغوى. وفى هذا السياق، ترى الأقليات الدينية فى لا مركزية الدولة سبيلا إلى تقوية الأمة، كما ترى أن إيران ككل ليست أعظم من مجموع أجزائها؛ الأحرى أن كل جماعة على حدة ضرورية فى تركيبة الدولة وقوتها . من ثم، تشكل الأقليات جزءا من الحركة الديموقراطية الأوسع التى تناضل من أجل إقامة دولة مسئولة تعامل جميع مواطنيها على قدم المساواة. بينت لى ما شاء الله شمس الواعظين أنه:

«طوال التاريخ الإسلامى ظل ثمة حركات إصلاحية فى المورثات السنية والشيعية معا. تلعب حركة الإصلاح الإيرانية اليوم دورا مهما بخاصة حيث إنها ترى فصل الدين عن السياسة والدولة. إذا نجحنا فى ذلك فستتقلص الفجوة بين المذهبين الشيعى والسنى الأمر الذى لابد وأن يمثل انتصارا تاريخيا للإسلام الديموقراطى مقابل الإسلام المحافظ. نستطيع النجاح فى الإتيان بالديموقراطية إلى إيران والمنطقة».

النساء:

ثمة ثراء فى الأدبيات عن دور النساء فى مرحلة ما بعد ثورة ١٩٧٩ فى إيران. وكما ذكرنا سابقا، لعبت النساء دورا مهما داخل الحركة

الإصلاحية فى التسعينيات. فى عام ١٩٩٧، وقبل الانتخابات الرئاسية، تحدتْ عزم تالغانى، مؤسسة جمعية النساء الإسلامية فى إيران، الدستور على أساس أنه لا يسمح للنساء بالترشح لرئاسة الجمهورية الإسلامية وأعلنت نفسها مرشحة للرئاسة. ومنذ آنذاك، ظلت النساء يثرن هذه القضية لدى كل انتخابات رئاسية وينظمن اعتصامات وتظاهرات لإسماع أصواتهن. قلن إن حركتهن منوعة سياسيا ودينيا، لكنها موحدة من حيث إنها تحاول إجبار المرشحين على الاعتراف بمطالب حقوق المرأة ودور النساء العضوى فى إطار الديموقراطية. أدى نضالهن إلى إثارة الجدل لدى كل انتخابات رئاسية حتى أن البرلمان والإعلام اللذين يهيمن عليهما المحافظون أُجبرا على مناقشة القضية، وظهرت دوريات، وصحف ومواقع إلكترونية ومدونات تتحدى المرشحين حول تاريخهم فى الماضى ووعودهم بشأن المستقبل. لعبت ناشرة ورئيسة تحرير دورية «زنان» (النساء) الشهرية، شهلة شركات - دورا عاما فى خلق منبر لقضايا حقوق المرأة. أُغلقت الدورية عام ٢٠٠٧. تشكلت تحالفات جديدة بين القوميين المتدينين والعلمانيين والإصلاحيين. أجبرت نضالات النساء السياسية عددا من المرشحين المحافظين والإصلاحيين على مناقشة قضايا الديموقراطية.

تذهب جميلة كاديڤار المتخصصة فى علم السياسة والجندر والإسلاميات إلى أنه «ليس ثمة دليل فى القرآن يشير إلى عدم جواز تولى النساء المناصب القضائية». ذكرت لى أن:

«ناقش عدد من رجال الدين مثل الصانعى وجناتى قضايا النساء مثل حقهن فى أن يصبحن رئيسات للجمهورية وقاضيات، وأيضا قضية إصلاح قوانين الأحوال الشخصية والمساواة بين الرجال والنساء فى

قانون الدية.. إلخ، وهذه خطوة إيجابية إلى الأمام على الرغم من حقيقة أن المؤسسات المحافظة هي العقبة الحقيقية في طريق إصلاح القوانين والأحكام. إن وحدة النساء مهمة، سواء كن من المفكرات الجديدات المتدينات أو علمانيات أو ربات منازل، أو موظفات. إن المشكلة اليوم هى الفجوة الواسعة بين النخبة والعاديات من النساء. نحن بحاجة إلى الوصول إلى العاديات من النساء والعاديين من الرجال، فإن المشكلة لا تقتصر على هيمنة الرجال بل تتمثل فى أن الكثيرات يقبلن تلك الهيمنة على أنها المعيار والوضع العادى».

نتج عن الضغط من أجل إصلاح قانون وأحكام الأحوال الشخصية تغيرات مهمة. يستشير رؤساء المحاكم المستشارات القضائيات اللاتى يتولين مناصب قضائية قبل إصدار أحكام نهائية بالطلاق. أيضا، تخضع عقود الزواج للفتيات اللاتى تقل أعمارهن عن ١٣ عاما، والفتية الأقل من ١٥ عاما لموافقة الوالدين، كما أن عملية رفع سن بلوغ الفتيات إلى ١٣ عاما بدلا من تسعة أعوام جارية. يمنح نص جديد فى قانون الزواج النساء الحق فى تطليق أنفسهن وحضانة الأطفال والحق فى منع الزوج من الزواج من زوجة ثانية بشرط النص على هذه الحقوق فى وثيقة الزواج. تتلقى الأسر التى تقوم على شئونها امرأة معاشات كما أن لها الحق فى تلقى القروض. يوجد الآن فى جميع المصالح الحكومية لجان نسائية، وتحوى جميع الصحف والمجلات والدوريات صفحات نسائية. يسمح بالإجهاض فى أوضاع معينة. واليوم، يماثل عدد المقاعد البرلمانية التى تحتلها النساء نظيرتها فى تركيا ويماثل عدد المهنيات النساء مثيله فى كوريا الجنوبية. تضم حكومة أحمدى نجاد التى تشكلت عام ٢٠٠٩ وزيرة للصحة هى الدكتورة مارزية واحد داستجردى.

شهد العقد الأول من القرن الحادى والعشرين انطلاق عدد من الحملات - بينها حملة المليون توقيع، والحملة ضد عقوبة الرجم حتى الموت، وحملة أمهات من أجل السلام - حققت نجاحا نسبيا وحظيت بتأييد عدد من رجال الدين. تمكنت النساء فى عام ٢٠٠٧ من خلال حملة ناجحة من تغيير القانون بحيث يُسمح لأطفال النساء الإيرانيات المتزوجات من أجانب الحصول على جنسية الأم الإيرانية وحقوقها فى المواطنة إذا كان الأطفال مولودين بإيران وعاشوا بها لمدة ثمانية عشر عاما أو أكثر. أيضا، تحدت النساء القانون التمييزى الذى يحظر على النساء ارتياد الملاعب الرياضية فى معية الرجال، ورغم أنه ثمة قسم للشخصيات المهمة VIP مخصص للنساء فى ستاد كرة القدم بطهران، فإن حاملات بطاقات هذا القسم يتظاهرن ويطالبن بالدخول كمواطنات متساويات فى الحقوق.

فى سبتمبر ٢٠٠٨، تمكنت مجموعة من الناشطات اللاتى كنّ يقدن حملة ضد مشروع قانون «حماية الأسرة» الجديد من جعل أعضاء فى البرلمان يضغطون ضده ونجحن فى منع صدوره. ذهبن إلى أن مشروع القانون كان ضد حقوق المرأة المتعلقة بالزواج والطلاق وتمكنّ من تغيير بندين مهمين فى القانون: لا يستطيع الزوج الزواج مرة أخرى بدون موافقة زوجته الأولى، وإعفاء المهور من الضرائب على أساس أن فى هذا تمييزاً ضد الفقيرات.

بالنسبة لكثير من ناشطات حقوق المرأة، فإن إصلاح القوانين والأحكام هو نصف القضية فقط، إذ ينبغى أن تكون حقوق المرأة مستدامة وذات صفة مؤسسية. ولا يمكن تحقيق هذه المهمة سوى بالتعاطى مع الفقر وتوفير فرص العمل للنساء.

كانت إلهه كولعى، أستاذ السياسة والدراسات الدولية بجامعة طهران عضوة بالبرلمان فى الفترة ما بين ١٩٩٦ و٢٠٠٠. وفى تلك الفترة، وبفضل جهود النساء، تغيرت عدة قوانين لصالح المرأة. مثلا، منحت النساء حق حضانة أطفالهن الصبية والفتيات حتى سن السابعة مقارنة بالقوانين السابقة التى كانت تمنحهن حق حضانة الأبناء الذكور حتى سن العامين والبنات حتى سن التاسعة. يوافق الرجال أحيانا على أن تكون للنساء الحضانة كى يتمتعوا بحرية الزواج بامرأة أخرى، لكن لا تستطيع كثير من النساء قبول حضانة أطفالهن نظرا لفقرهن.

تشترك عدد من ناشطات حقوق المرأة فى وضع استراتيجيات لتقليص الفقر بين النساء وإتاحة فرص عمل لهن. فخر السادات محتشمى پور هى المدير التنفيذى لجمعية النساء صاحبات المشاريع. تقوم بتنظيم ورش عمل، وحلقات نقاش ومؤتمرات حول النساء والعمل تهدف إلى توفير فرص العمل للنساء. وكما ذكرنا سابقا فإنه ثمة عدد كبير من المتعلمات لم يستوعبهن سوق العمل. من خلال هذه الجمعية تتاح للكثيرات الموارد اللازمة لإقامة مشاريعهن متوسطة الحجم والصغيرة ولتشغيل نساء أخريات. تحاول تلك المنظمة أيضا جعل النساء مرئيات وإثبات الفائدة الاجتماعية لعمل النساء بالنسبة للأسرة والجماعة.

تترأس فخر السادات محتشمى پور أيضا مجلس إدارة «جمعية التاريخ والباحثات النساء». تعمل المؤرخات وزميلاتهن فى تلك المنظمة من أجل قراءة لتاريخ إيران من منظور نسوى. يتحدين القراءات الذكورية المحافظة للإسلام والنصوص الإسلامية تلك القراءات التى تُنتج التمييز ضد النساء، ويقمن بتنظيم حلقات بحثية ومؤتمرات فى أنحاء

البلاد تحظى بالشعبية فى أوساط الطالبات. تسهم تلك الباحثات الشابات فى جعل النساء مرئيات فى التاريخ الإسلامى والإيرانى - أى أنهن يلقين الضوء على النساء من ذوات الإسهامات القيمة فى الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية. من ثم، تكتسب تلك الباحثات الشابات الثقة من خلال استخدام النماذج والأمثلة التاريخية من أجل تحدى الإسلاميين الذين يستخدمون النصوص الإسلامية لعزل النساء واستبعادهن. تبين مثل تلك الخبرات المعاشة المواجهات التى تقوم بها النساء على أساس يومى واشتباكهن مع الدولة والبطريركية والبنى الاجتماعية والسياسية الأخرى، ونضالهن لتغيير علاقات الجندر المحافظة.

قبل الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٩ تشكل تنظيم «تحالف النساء» لإعلان مطالب النساء وتمكن بهذا من وضع قضايا حقوق المرأة فى مركز الحملات الانتخابية. لعبت إلهه كولعى دورا مهما فى حملة مير موسوى الانتخابية، وكذلك فعلت جميلة كاديڤار فى حملة مهدى كروبى. لعبت زهرة راهناڤارد، الأكاديمية وزوجة مير حسين موسوى دورا حاسما فى عرض مظالم المرأة فى حملته الانتخابية. وعلى الرغم من أن قيادات مختلف الحملات غادرت البلد نتيجة للقمع السياسى، فمازالت النساء يواصلن النضال من أجل حقوقهن ومن أجل الديموقراطية. كان حضور النساء فى الأحداث الخلافية التى أعقبت الانتخابات مرئيا بوضوح إذ شاركت ملايين منهن فى التظاهرات.

وعلى الرغم من القمع السياسى، فإن ثمة درجة عالية من الوعى بقضايا الجندر فى إيران اليوم، كما تم إصلاح عدد من القوانين والأحكام الخاصة بقضايا المرأة أكثر كثيراً من أى وقت سابق. تتمتع

النساء فى إيران اليوم بحقوق تفوق نظيرتها التى تتمتع بها النساء فى أنحاء الشرق الأوسط.

«انتفاضات» ٢٠٠٩-٢٠١٠ والحركة الخضراء(١)

---

(١) صدر مؤخرا عدد من الكتب توضح الدور الذى تلعبه المواقع الإلكترونية الاجتماعية فى تنفيذ الاستراتيجيات الأمريكية، نذكر منها كتاب أفسانه مقدم (اسم مستعار): «الموت للديكتاتور: مشاهد الانتخابات الإيرانية وتعويق الجمهورية الإسلامية؟» وكتاب أنابيل سربرين وغلام خياباتى «بلوجستان (مدونستان): الإنترنت والحياة السياسية فى إيران».

من بين ما توضحه هذه الكتب وغيرها أن الحكومة الأمريكية تقوم بتنظيم وفود تمثل الوسائط الإعلامية الجديدة إلى الشرق الأوسط من أجل خدمة المصالح الأمريكية ونشر القيم الأمريكية وكسب عقول الشباب وقلوبهم.

مهندس تلك الزيارات هو چاريد كوهين، طفل وزارة الخارجية الأمريكية المعجزة (اكتشفته كوندليزا رايس) الذى جال جميع أنحاء أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وقام ببناء الجسور مع شركات الإنترنت الكبيرة مثل يوتيوب وتويتر واستخدم الميديا الاجتماعية لتحقيق أهداف الإمبريالية الأمريكية فى تلك المناطق.

تشكلت فى وزارة الخارجية فرق رقمية للتدوين والمواقع الإلكترونية بالفارسية، والعربية والأوردية وغيرها، تشارك شباب تلك المناطق فى أحاديث وتحاول كسبهم بلطف وديبلوماسية إلى جانب السياسات الأمريكية العامة. رأت هيلارى كلينتون إمكانيات هائلة لتنفيذ أهداف السياسة الأمريكية الخارجية من خلال الفيس بوك وغيره وأطلقت حملة «الحرية للإنترنت» التى تزامنت مع حملة أوباما لتجميل وجه السياسة الأمريكية دونما تغييرها. عينت كوهين رئيسا لجمعية عمل على الإنترنت تحدث تأثيرها من أسفل وتشجع الشباب على الحديث إلى بعضهم وإلى أمريكا.

أثناء التظاهرات «الانتفاضة» التى أعقبت الانتخابات الرئاسية الإيرانية، امتلأت مواقع تويتر وغيرها بالأنباء عما أسمى «ثورة تويتر». استخدمت الموبايلات والإنترنت بكثافة لتحديد مواعيد التظاهرات وأماكنها ونشر صور أعمال القمع. لجأ الشباب المؤيدون لأحمدى نجاد للوسائل ذاتها لنشر رسائلهم وكسب التأييد لموقفهم. =

فى انتخابات يونيو ٢٠٠٩، أعيد انتخاب أحمدى نجاد لفترة رئاسة ثانية. تحدى ملايين المحتجين نتائج الانتخابات، وارتدوا اللون الأخضر – لون الإسلام – لتأييد مير حسين موسوى المرشح الخاسر. اتهم الإعلام الموالى للحكومة والسياسيون المؤيدون لها موسوى، الذى كان قد أصبح قائدا للمعارضة على أرض الواقع، بمحاولة الإطاحة بالنظام الإسلامى الإيرانى. زعم موسوى وكروبى (من الأعضاء المؤسسين لجمعية رجال الدين المقاتلين) ومعهما غيرهما من المرشحين الذين خسروا الانتخابات، وبتأييد من الرئيس السابق خاتمى، أن الحكومة الجديدة غير شرعية ونادوا بمواصلة الاحتجاجات. توفى بعض المحتجين أثناء التظاهرات التى تلت، وأصيب وسجن الآلاف.

تم تعذيب بعض قياديى الحركة وإجبارهم على الاعتراف بأنهم كانوا يتآمرون مع قوى أجنبية؛ عمل تأييد الغرب للحركة، الذى كان تعبيرا عن

= يصف كتاب «الموت للديكتاتور...» كيف تصاعدت الحملة ضد فوز أحمدى نجاد لتصبح «انتفاضة» فوضوية تعوزها القيادات والتوجه ضد رجال الدين والحرس الثورى حتى باتت تهدد الجمهورية الإسلامية ذاتها.

بعد قمع التظاهرات واقتفاء أثر القياديين من خلال التنصت على الموبايلات، لجأ المحتجون إلى حواسبهم وتبادلوا البرمجيات المضادة للاختراق التى زودتهم بها وزارة الخارجية الأمريكية، وبحثوا عن الأخبار على الفيس بوك ويوتيوب وتويتر.

نشطت «غرف العمليات» الرقمية الغربية، والأمريكية بخاصة، لنشر الشائعات والأخبار الكاذبة وكان مصدرها إيران، مثل خبر اعتقال مير موسوى، وزودت المعارضين بالبرمجيات المضادة للاختراق، وكان الكونجرس الأمريكى قد خصص عشرين مليون دولار لإنشاء حسابات على مواقع إلكترونية وتوزيع برمجيات للتهرب من جهود الحكومة لتعويق الإنترنت والرقابة عليها (الترجمة، عن L.R.B، ديسمبر ٢٠١٠).

مشاعر الإسلاموفوبيا الكوكبية المتنامية، على تأجيج مخاوف الحكومة الإيرانية من محاولات الغرب لتغيير النظام.

في الواقع، فإن حركة المعارضة تعتبر بحسم أن استقلال إيران هو واقع تم اكتسابه بشق الأنفس وأنجز بتضحيات كبيرة أثناء ثورة ١٩٧٩. وكما يؤكد أديب مقدّم، فلن يسمح للعملاء الأجانب باستغلال الحركة والتلاعب بها. وفي الواقع، يحمل كثير من المحتجين صور محمد مصدق ويقولون إنه لن يُسمح للتاريخ بأن يكرر نفسه. بتعبير آخر، كانوا يريدون الديموقراطية لا التدخل الأجنبي كذلك الذي حدث في الانقلاب الذي دبرته الاستخبارات الأمريكية والبريطانية ضد مصدق. وخلافا لتكهنات الغرب، فإن حركة الاحتجاج لا تحركها «الطبقة الوسطى العلمانية الحديثة في المناطق الحضرية والتي يمثلها مير موسوي» والتي دائماً ما توضع في تقابل مع الطبقات العاملة المتدينة ممثلة بالحكومة. تستمد المعارضة الديموقراطية والقوى الحكومية الدعم من المجموعتين. فقد أفاد الكثيرون على جانبي الصراع من أوجه دعم الدولة واستثماراتها وعائدات النفط. لكن الغالبية يعارضون القمع السياسي يدعمهم في ذلك عدد من السياسيين ورجال الدين النافذين.

ظلت صلاة الجمعة منبرا لآراء رجال الدين السياسية المختلفة. ألقى هاشمي رفسانجاني، رئيس الجمهورية الأسبق ورئيس «مجلس الخبراء» خطبة الجمعة يوم ١٣ يوليو ٢٠٠٩ وأعلن فيها تأييده للحركة الديموقراطية ونقد القمع السياسي ودعا إلى الوحدة الوطنية. فيما بعد، رفض إلقاء خطب جمعة أخرى من أجل تلافي المصادمات المحتملة بين المجموعات المتنافسة، وبين حركة الديموقراطية والشرطة. تزامن يوم الجمعة ١٨ سبتمبر ٢٠٠٩، مع يوم القدس في نهاية شهر رمضان. كان

هذا اليوم، بعد ثورة ١٩٧٩، قد أصبح مناسبة سنوية لنصرة الفلسطينيين، وأيضا، وفقا لما قاله الإمام الخمينى، لمعارضة كل أشكال الظلم والقمع. حل رجل دين موالٍ للسلطة محل رفسانجانى الذى اعتاد، تقليديا، إلقاء خطبة الجمعة فى تلك المناسبة.

وجه مهدى كروبى، أحد المرشحين الذين خسروا الانتخابات، النقد للحكومة لسماحها بتعذيب المحتجين المعتقلين (بما فى هذا الاغتصاب والتحرشات الجنسية) وطالب بمحاكمة كل من استخدم العنف ضد المحتجين. أيضا، نقد على لاريجانى رئيس البرلمان (والذى استبعده أحمدى نجاد كرئيس للمفاوضين فى ملف إيران النووى) ومحمد باقر قاليباف عمدة طهران، ومحسن رضاى، القائد السابق للحرس الثورى وثالث المرشحين الذين هزموا فى الانتخابات الرئاسية، نقدوا جميعهم القمع الذى استُخدم ضد المحتجين. فى نوفمبر ٢٠٠٩، عبّر محمود وحيدنيا، عالم الرياضيات الشهير البالغ من العمر ٢٥ عاما، فى لقاء بين آية الله خامنئى ونخبة من علماء البلد بُث وقائعه على الهواء مباشرة، عبّر عن نقده للقمع الوحشى الذى مورس بعد الانتخابات، وشجب إعلام الدولة لتغطيته المنحازة وتساءل عن السبب الذى من أجله يعتبر قادة الجمهورية الإسلامية فوق النقد. ونتيجة لهذا اللقاء، شُكلت لجنة برلمانية لتفحص أعمال العنف التى استخدمت بعد الانتخابات وتم إلقاء القبض على عدد من المسئولين الذين اتهموا بتعذيب وموت واغتصاب بعض المعتقلين السياسيين.

تواصلت الاحتجاجات طوال ٢٠٠٩ وحتى ٢٠١٠. فى ديسمبر ٢٠٠٩، توفى آية الله العظمى منتظرى، الناقد الصريح للحكومة. شارك مئات آلاف المحتجين فى جنازته. وبعد أسبوع وفى احتفالات يوم عاشوراء

الذى يعتبر رمزيا يوما للعدالة، واجه المحتجون القمع الوحشى وقتل البعض فى مواجهات مع الشرطة وأصيب وسجن المئات. تم تنظيم تظاهرة أخرى بمناسبة العيد الحادى والثلاثين لثورة ١٩٧٩، تنطلق يوم ١١ فبراير ٢٠١٠. لكن السلطات، واستباقا منها للتظاهرات، اعتقلت المئات بما فى هذا القيادات الطلابية وناشطات حقوق المرأة وعدد من الصحفيين والمدونين. صاحب ذلك إجراءات أمن مشددة وتعتيم إعلامى وتعطيل إرسال الرسائل القصيرة والرقابة على الإنترنت وبذلك تمكنت السلطات من الإمساك بزمام الأمور. كان افتقاد الحركة للقادة وعدم معرفة الناس ما ينبغى عليهم فعله وإلى أين ينبغى عليهم أن يتوجهوا، كان يعنى تفوق التظاهرات المؤيدة للحكومة على المعارضين بكثير.

برهن ذلك على قدرة الدولة على ترسيخ سلطتها من خلال العنف والتخويف والقمع السياسى. بيد أن ثمة انقسامات عميقة بين النخبة الحاكمة: يرى البعض أنه ينبغى الانفتاح على الاقتصاد الكوكبى والثقافة الكوكبية فيما يستغل آخرون تهديد أمريكا وإسرائيل الدائم بشن حرب على إيران، وفرض العقوبات عليها من أجل إخماد صوت ناشطى الديموقراطية. وبالمثل، تشهد المؤسسات الإسلامية أيضا انقسامات عميقة، وكما ذكرنا من قبل، فقد أقيمت تلك المؤسسات بعد ثورة ١٩٧٩ لحماية مصالح الشعب لكنها تحولت بعد ذلك إلى مشاريع رأسمالية. مازال البعض داخل تلك المؤسسات متمسكين بمبادئ ثورة ١٩٧٩ وبالعمل من أجل مصالح الشعب فيما يستخدم الآخرون الأيديولوجيا الإسلامية لحماية مصالحهم الخاصة. نجد تلك الانقسامات أيضا فى القوات المسلحة والجهات الأمنية التى أنشئت بعد ثورة ١٩٧٩ للدفاع عن الثورة والبلد، لكنها أصبحت بمرور الوقت متورطة فى رعاية مصالحها

المالية والمادية. فتحت التظاهرات التى مازالت مستمرة منذ يونيو ٢٠٠٩ مساحة جديدة للأفكار السياسية الراديكالية فى الوعى الإيرانى التاريخى، ومن ثم، يتمتع ناشطو الديموقراطية بالثقة فى النفس ويرون حركتهم استمراراً للثورة الدستورية بين عامى ١٩٠٦- ١٩٠٧، وتأميم البترول عام ١٩٥١ وثورة ١٩٧٩. يعتقدون أن مطلبين من مطالب ثورة ١٩٧٩ الثلاثة قد أنجزا أى الاستقلال وانتهاء الحكم الملكى، وهم يناضلون الآن من أجل تحقيق المطلب الثالث وهو التحرر من قمع الدولة.

يرى كثير من نشطاء الديموقراطية أن حركتهم الإصلاحية هى علامة لنهاية تعايشهم مع المحافظين ويذهبون إلى أنهم يواجهون نظاما محافظا ذا قاعدة ضيقة عمل على إجبار نشطاء الديموقراطية على اتخاذ وضع للمعارضة المستدامة. وفى هذا السياق، فمن المحتمل لمنظمتهم «الطريق الأخضر إلى الأمل» أن تتحول إلى حركة للمجتمع المدنى ونضال دائم من أجل الديموقراطية. أوضحت الحركة الخضراء داخل إيران أن روابط الشعب الأيديولوجية بالنظام القائم بدأت فى التمزق. بيد أن درجة التأييد للنظام الحاكم توضح أيضا أن قطاعات عريضة من المجتمع لم يتحرروا من الأفكار التى تعميهم عن واقع هذا النظام القمعى. تعتقد القطاعات المختلفة من المجتمع فى مدركات مختلفة عن الدولة والنظام، ولم تتمكن الحركة الخضراء حتى الآن من ترجمة أزمة ما بعد انتخابات يونيو ٢٠٠٩ إلى قضية يجتمع حولها الجميع. لم تُبدِ القيادات قدرتها على قيادة الحركة بل سعت بدلا من ذلك إلى التوصل إلى تسويات مع المحافظين.

سيسجل التاريخ حركة الديموقراطية فى إيران منذ عام ١٩٧٩، مع نقاط قوتها ومكامن ضعفها، بصفتها إحدى أهم الحركات فى العالم فى

نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين. وعلى الرغم من تقويض القمع السياسى من قبل النظام الاجتماعى البطريركى السلطوى لأنشطتها، إلا أنها تحدت ببسالة السلطة المؤسسية ونفوذها، وحققت أهدافا مهمة. يُعترف بها بصفتها مجموعة اجتماعية ذات مصالح مشتركة لها حق مشروع على المجتمع.



-3-

الإسلاميون المحدثون

التقسيم السنى/ الشيعى:

يتميز التاريخ الشيعى فى إيران بالاستمرارية والتغير فى آن. فى الفترة المبكرة، أى فى حوالى القرن السابع، تحدت المجموعات الشيعية، بصفتها أقليات شرعية الخلفاء وتسلسلهم. أثناء حكم الأسرة الصفوية(١) فى إيران (بين القرنين السادس عشر والثامن عشر) تقبل رجال الدين الشيعة الملكية الصفوية حامية للمذهب الشيعى راعية له. وبعد ثورة ١٩٧٩ حينما وصل رجال الدين الشيعة إلى السلطة، قاموا بتحدى الحكام الظالمين على نطاق المنطقة والكوكب. بيد أن حكم رجال الدين الشيعة اليوم يواجه التحدى من قبل الإسلاميين المحدثين الذين يحاولون فصل الدين عن السياسة والدولة. يتفحص هذا الفصل هذه التطورات التاريخية ويذهب إلى أن السياسة الخارجية الإيرانية القوية التى تحوز الإعجاب فى بلدان الشرق الأوسط لها جذورها فى التأويل الدينامى المتجدد للفلسفة الشيعية فيما يتعلق بالحق فى تحدى الحكام المستبدين:

(١) سلالة ملَكت فى إيران ١٥٠١ - ١٧٣٦. كانت طريقة صوفية نشأت فى أردبيل، تنتسب إلى صفى الدين الأردبيلى. أسس الدولة إسماعيل I، الآق قيونلو واتخذ تبريز عاصمة وتلقّب بالشاه وأعلن الشيعة مذهب الدولة. هزمه العثمانيون فى جالدران. نقل طهماسب I العاصمة إلى قزوين عام ١٥٥٥ بعد سقوط تبريز بيد العثمانيين ثم نقلها عباس I الكبير إلى أصفهان عام ١٥٩٣. احتل الأفغان أصفهان عام ١٧٢٢ فطردهم القائد نادر شاه وأعلن نفسه ملكا عام ١٧٣٦ وانقرضت السلالة بموت عباس الثالث. (الترجمة: عن معجم المنجد فى الأعلام)

ثمة ١,٣ مليار مسلم فى العالم، ١٥٪ منهم شيعة و٨٥٪ من أهل السنة. تتركز المجموعات الشيعية فى الشرق الأوسط - من لبنان إلى باكستان - حيث تتساوى أعداد السنة والشيعة.

تحيى المجموعات الشيعية فى العاشر من محرم ذكرى استشهاد الإمام الحسين حفيد رسول الله بكربلاء فى عام ٦٨٠م، كما يحيون ذكرى الأربعين لاستشهاده ويرون أنه قُتِل وهو يقاوم الطغيان. ترمز تلك المناسبات والتجمعات المشحونة عاطفيا إلى معارضة الحكام القامعين اليوم، لأن المجموعات الشيعية أقليات فى كثير من المجتمعات الإسلامية بالشرق الأوسط وشمال إفريقيا ووسط آسيا وجنوبها (باستثناء إيران والعراق). أبقت تلك المجموعات بصفتها أقليات، طوال تاريخها، على إحياء ذكرى تلك الأحداث، ليس فقط بصفتها صراعا تاريخيا، بل كتحدٍ

ضد الحكام المستبدين والعدوان الأجنبى اليوم، لا تسمح لهم الحكومات أحيانا بذلك لأنها تنظر إلى تلك المناسبات بصفتها تحديا للأنظمة الحاكمة.

توضح أمثلة عديدة هذه المشاعر القوية. تم تحدى دور شاهات أسرة بهلوى فى إيران بأسلوب أدى إلى ثورة ١٩٧٩، وكذلك دور صدام حسين فى العراق، ودور إسرائيل فى لبنان وفلسطين. حينما سقط نظام حسين فى ربيع ٢٠٠٣ أحيا ٢ مليون شيعى فى كربلاء ذكرى الأربعين لاستشهاد الحسين، وكان صدام حسين قد حظر تلك التجمعات لسنوات عديدة. تظاهر هؤلاء لتوضيح هويتهم السياسية/ الدينية التى كان صدام حسين قد أنكرها عليهم. عبَر عشرات الآلاف من الإيرانيين ومعظمهم من الفقراء وكبار السن، وليس معهم سوى لفافات أطعمتهم، عبروا الحدود

الإيرانية العراقية لزيارة أضرحة الأئمة الشيعة فى العراق والتى كان صدام قد حظر عليهم زيارتها. كانت أضرحة الأئمة الشيعة فى العراق وسوريا وأنحاء أخرى، بقبابها الذهبية، وقراميدها الخضراء والزرقاء، وجدرانها التى تغطيها المرايا، وثرياتها وسجاجيدها، كانت هدايا من الملوك والشاهات الإيرانيين، وكذلك أثرياء التجار الإيرانيين وظلت المطابخ الكبيرة الملحقة بتلك الأضرحة تطعم الفقراء فى أنحاء المجتمعات ذات الغالبية الإسلامية.

تعود أصول الانقسام الشيعى السنى إلى سنوات الإسلام المبكرة، ولا يتعلق هذا الانقسام فقط بالاختلافات الأيديولوجية، بل بالقراءات المختلفة للتاريخ والسلطة السياسية والهيمنة والخضوع وتفرد الهوية، كما يرى شريعتى. بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) عام ٦٣٢م، اتبع غالبية المسلمين التقاليد القبلية لاختيار رئيس الأمة الإسلامية من قبل مجلس من الحكماء من كبار السن الموقرين، من ثم، اختار المجلس أبا بكر خليفة للرسول، فيما رأت مجموعة صغيرة من الصحابة ابن عم الرسول وصهره على بن أبى طالب أحق بخلافته. أصبح أبوبكر هو الخليفة وتقبل علىٌ نتيجة الإجماع. بعد أبى بكر، تم اختيار عمر، ثم عثمان، وأصبح علىّ الخليفة الرابع. بيد أن الشيعة (أتباع على) مضوا يتحدون تلك الاختيارات، ويرون حتى اليوم أن خلافة الرسول يجب أن تنحصر فى آل البيت، أى نسل على وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين. يزعمون أن الرسول، أثناء عودته من مكة بعد حجة الوداع، أعلن عليًا، لدى غدير خُم، خليفة له، من ثم أصبح عليًا قائدهم الأول. وانحصرت القيادة فى أحد عشر من نسله.

منذ وقتئذ انقسم المسلمون إلى فريقين: أهل السنة والجماعة، الذين يرون نظام الخلافة استمرارا للنبوة، والشيعة من أتباع على الذين يرون

الإمامة استمرارا لرسالة النبي. وكما يذهب محمد غوتشانى وجميلة كاديڤار، لم يسائل خطاب الشيعة السياسى، بصفتهم حزبا دينيا/ سياسيا مسألة خلافة الرسول فقط، بل أيضا مسألة زعامة الأمم الإسلامية وشرعية تلك الزعامات.

أثناء الفترة بين عامى ٦٣٢ و٦٦١، حينما خلف أبا بكر عمر ثم عثمان ثم على فى النهاية، تعاظم الصراع بين المذهبين . قتل أبو لؤلؤة المجوسى، أسير الحرب الإيرانى، عمر، ثم قُتِل عثمان على يد بعض الجنود المسلمين المتمردين. كان أبو بكر قد تحدى عليًا، وتحدته بعده السيدة عائشة، ثم معاوية (ابن عم عثمان والذى كان حاكم دمشق)، ثم قُتِل فى النهاية.

بعد وفاة على، وفى ظل الحكم الأموى (٦٦١- ٧٥٠) تحول نظام الخلافة من علاقة متداخلة بين الدين والسياسة والقيادة، إلى فصل بين الدين والسياسة، وأوكلوا المهام الدينية إلى علماء الدين. قبلت غالبية أهل السنة النظام الجديد، لكن الشيعة مضوا فى تحديهم للأمويين. انتفض الحسين بن على وأهل الكوفة ضد الحكام الأمويين وواجه الحسين وشقيقه الحسن وجنودهم الجيش الأموى السورى فى كربلاء وهزمهم القائد الأموى. رافقت السيدة زينب، شقيقة الحسين، رأس شقيقها إلى دمشق، حيث نجحت فى الدفاع عن حياة ابنه، الحسن بن الحسين الذى خلف والده كرابع إمام شيعى. ضمنت زينب بنجاحها فى هذه المهمة استمرار المذهب الشيعى ودُفِنت فى دمشق، وأصبح ضريحها مزارا للحجاج الشيعة.

قام خلفاء بنى أمية الذين حكموا من دمشق، والخلفاء العباسيون الذين حكموا من بغداد (٧٥٠ - ١٢٥٨) بسجن الأئمة الشيعة وقتلهم. كانت مساجدهم تهاجم أثناء احتفالات عاشوراء وإحياء ذكرى أربعين

استشهاد الحسين . هرب القادة الشيعة إلى إيران وأفغانستان والهند، وكنتيجة لذلك ظهرت الأضرحة والمقامات التى تؤمها المجموعات الشيعية فى جميع أنحاء تلك البلاد (شريعتى).

تمكنت بعض الجماعات الشيعية من حكم أهل السنة لفترات قصيرة: مثلا، حكم البويهيون الفرس بغداد فى منتصف القرن العاشر، وحكم الفاطميون مصر لمدة قرنين. بيد أن تلك الفترات كانت قصيرة نسبيا، وعاشت الجماعات الشيعية فى غالبية الأحيان كأقلية يحكمهم أهل السنة. مضت الجماعات الشيعية فى تحدى شرعية الحكام الأمويين والعباسيين فى دمشق وبغداد، ورأوا أن خط القيادة استمر حتى عام ٨٧٤م حينما أخفى الله، بمعجزة، الإمام الثانى عشر، أو المهدى وهو فى عمر التاسعة.

وفى هذا السياق، تعتقد الجماعات الشيعية أن عودة الإمام المهدى ستأتى معه بنهاية الزمان والعدالة الربانية الكاملة. غدت تلك النظرة المسيانية التي تماثل نظيرتها لدى اليهود والمسيحيين والزرادشت، الخطاب الجديد المهيمن للمذهب الشيعي بإيران.

تشمل المدارس الفقهية السنية المذهب الحنفي والمالكى والشافعى والحنبلى. وتشمل المدرسة الشيعية الإثنى عشرية (فى إيران بشكل رئيسى) والإسماعيلية، والعلوية (فى سوريا بشكل أساسى) والزيدية. ظهرت الصوفية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى العراق ومصر؛ وتماثل المذهب الشيعى فى بعض أوجهها. يُنظر إلى الأئمة الشيعيين وقادة الطرق الصوفية على أنهم وسطاء بين الله والبشر. ويحب الصوفيون عليًا بأكثر مما يحبه الشيعة. ولّد تأثير الصوفية اهتماما بالشيعية فى كثير من المجتمعات السُنية ورفض أهل السنة المتشددون الشيعية والصوفية معا، وتتعرض الجماعات الصوفية لنفس

الهجوم الذى تتعرض له الشيعية. أما فى سوريا، فثمة تناغم بين الجماعات السنية والشيعية. يتحدى الإخوان المسلمون فى سوريا الحكومة التى يهيمن عليها الشيعة العلويون الإسماعيليون، لكن الحكومة اعتمدت على الصوفية وتستمد شرعيتها منها.

وعلى الرغم من هذه الصراعات التاريخية فإن تلك المجموعات متنوعة. ينقسم أتباع كل طائفة على أسس من اللغة والإثنية والطبقية والجندر والجغرافيا والمعتقدات السياسية والمستويات المختلفة من التدين والعلمانية. هذه المجموعات عربية وفارسية وأفغانية وشمال إفريقية وآسيوية وجنوب آسيوية وجنوب شرق آسيوية ولكل منها هوياتها القومية والثقافية المتمايزة. وعلى الرغم من أنها خاضت صراعات فيما بينها، فقد عاشت أيضا فى تناغم وصداقة من خلال التزاوج وتمازج المجموعات وبخاصة فى العراق. وكما سنرى فى الفصل الخامس، فعلى الرغم من أنها تقاتلت فيما بينها، لكنها أيضا حاربت العدو المشترك. ليس العداء بين تلك الجماعات بدرجة عمق العداء بين البروتستانت والكاثوليك.

يتبع أهل السنة القرآن والسنة النبوية. وفى هذا السياق، يتم الفصل بين الدين والدولة، وهو مبدأ يحظى بالاحترام من المراكز الإسلامية المهمة مثل الأزهر بالقاهرة. تعتبر الحكومات والدولة فى الدول ذات الغالبية المسلمة ممثلة للدين ولأتباع الرسول فى الشأن السياسى. ومن ثم، يقتصر دور علماء الدين على التعاطى مع الأمور الدينية لا السياسية. بالنسبة للمجموعات الشيعية، يعتبر مفهوما العقل والاجتهاد (إعمال العقل والعقلانية) على درجة كبيرة من الأهمية (شريعتى). يتيح هذان المفهومان للمجتهدين التوصل إلى تأويلات وقراءات جديدة تتوافق مع الزمان والمكان. يتيح لهم هذا فهم المعنى المحدد للقرآن من خلال

التعليقات وفهم المعنى المضمر من خلال التأويل. وكما يرى راحنيما، فإن مفهوم الاجتهاد «يشكل الجسر بين التعاليم الإلهية الصالحة للأبد وبين المتطلبات التى يحددها الزمن لأى عصر». يرى البعض أن كبار الفقهاء السنة قد أغلقوا باب الاجتهاد منذ القرن الثالث عشر، فيما يرى آخرون أنه قد أغلِق منذ القرن العاشر. بيد أنه، وحتى يومنا هذا، فمازال الحوار قائما بين علماء الدين السنة حول ما إن كان للاجتهاد أهمية. أما بالنسبة لعلماء الدين الشيعة، فإن مفهومى «العقل» و«الاجتهاد» يُتيحان لهم تأويل الشئون الاجتماعية السياسية والاجتماعية الاقتصادية بأساليب قد تكون ديمقراطية أو محافظة أو أوتوقراطية أو تتسق مع نظام الحكم الدينى.

يرفض علماء الدين السنة هذه التأويلات أحيانا، ويأخذون بها أحيانا أخرى. مثلا، بيّن لى محمد حسين عادلى، محافظ بنك إيران المركزى فيما بين عامى ١٩٨٩ و١٩٩٤، كيف مكنه تأويله للشريعة من إصلاح النظام المصرفى الإيرانى بحيث يعمل وفقا لمقتضيات العالم اليوم، وذكر أن غالبية المجتمعات السنية قد أخذت بهذا الإصلاح:

«أوجدنا رابطة للمصارف الإسلامية. ناقشنا القضية مع الاقتصاديين المسلمين فى إيران وفى المجتمعات ذات الغالبية المسلمة، وأيضا مع رجال الدين والعلماء المسلمين. أصبح الإصلاح هو المعيار فى إيران وحقق نجاحا، ومنذ وقتئذ، تم قبول هذا النظام فى بعض المجتمعات ذات الغالبية السنية وجارى العمل به».

فى المذهب الشيعى يتم تقليد أرفع رجال الدين مكانة «مراجع التقليد» تساعد تبرعات أفراد الجماعة رجال الدين على القيام بأعمال خيرية وتعليم طلبة الحوزات العلمية. مثلا، تبعث الجماعات الشيعية فى أنحاء الشرق الأوسط بتبرعاتها إلى آيات الله العظمى مثل السيستانى فى

العراق، وفضل الله فى لبنان، وعدد من آيات الله فى إيران. كان كبار رجال الدين الشيعة، تاريخياً، يقيمون بمدينة النجف فى العراق أو قم فى إيران حيث ظلت ثمة روابط قوية بينهم وبين تجار البازارات.

وعلى الرغم من تطابق أساليب العبادة بين أهل السنة والشيعة، إلا أن ثمة بعض الاختلافات الطفيفة. فحينما يصلى الشيعة تظل أيديهم إلى جانبهم، على حين يعقدها أهل السنة فوق صدورهم. بيد أن أهم تمايز بين الطائفتين هو أهمية الصور البصرية لدى الشيعة حيث تماثل الأعمال الفنية الشيعية تلك الموجودة لدى بعض الفئات المسيحية وتشمل الأشكال البشرية. لكن مثل تلك التمثيلات تلقى الاستنكار والشجب من جانب علماء السنة بصفتها انحرافا عن الإسلام وتعبيراً عن عبادة الأصنام. يمثل مفهوم النجاسة أيضا تمايزا بين شيعة إيران وأهل السنة. وهذا مفهوم ظل يعتنقه الزرادشتيون، وهى العقيدة الدينية فى فارس قبل الإسلام، كما يوجد فى الهندوسية بالهند. يرى الزرادشتيون من لا يؤمنون بعقيدتهم أنجاسا وسبيلهم إلى التطهر هو اعتناق الزرداشتية. أيضا يعتقد الشيعة أن الاستشهاد يقوى المذهب الشيعى، كما فى حالة الإمام الحسين. بينما ظل أهل السنة، تاريخيا، يستنكرون الاستشهاد إلى أن اعتنقه المتطرفون منهم فى شكل التفجيرات الانتحارية.

إيران والإمبراطورية الإسلامية:

فى زمن صعود الإسلام، كانت الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية القُوَّتين الرئيسيتين بالمنطقة، وكانت اليهودية والمسيحية والزرادشتية هى الديانات المهيمنة فى الإمبراطوريتين. ارتبط الإسلام بوضوح وتحفظ فى آن مع الموروثات الراسخة فى المنطقة. وفقا للإسلام، فإن محمدا نبى يكمل رسالة الأنبياء اليهود والمسيح، ويضم القرآن عددا من القصص

التى تناظر تلك الموجودة بالإنجيل. نتيجة لهذا، لم يكن استيعاب الموروثات الاجتماعية للسكان اليهود والمسيحيين فى الحياة الإسلامية صعبا، كما أن من اعتنقوا الإسلام من المسيحيين واليهود والزرادشتيين أتوا معهم بموروثاتهم وأعرافهم. أتت العديد من القيم والممارسات الاجتماعية مثل الحجاب، والعذرية، واقتناء الحريم من فارس القديمة ومن الموروث الزرادشتى. أيضا، كانت النساء من الجماعات المسيحية شرق الأوسطية يرتدين الحجاب. أما مفهوم الزواج الإسلامى فكان يماثل نظيره فى الديانتين اليهودية والزرادشتية. وكانت الأسرة، والجماعة التى تقوم على الأسرة بين المؤسسات التى ورثها الإسلام وأبقى عليها.

فى زمن الرسول، كانت الجماعات العربية تعيش فى شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا الكبرى (بلاد الشام) التى تتألف من سوريا وفلسطين، وكان الإسلام دينا حضريا. وفى غضون جيل واحد بعد وفاة الرسول، كان العرب المسلمون قد فتحوا إيران وهزمت جيوشهم القوتين العظميين بالمنطقة، أى فارس ومصر، وأجبرت البيزنطيين على الخروج من الشرق الأدنى. فتحت جيوش المسلمين أيضا بلادا تمتد من شمال إفريقيا وحتى غرب أوربا، وسرعان ما توسعت حدود الإمبراطورية الإسلامية من الهند إلى آسيا الوسطى والغرب. فى الفترة التى تشكلت فيها الإمبراطورية الإسلامية أصبحت مصر والعراق بلدين عربيين إسلاميين، أما إيران، فلم تستعرب لكنها تأسلمت. لم تستنفد عملية التحول إلى الإسلام طاقة إيران الثقافية بل أوجدت هوية إيرانية متمايزة داخل العالم الإسلامى، وشهدت نهضة ثقافية عظمى كان من بين تجلياتها أشعار الفردوسى والنظامى والسعدى والحافظ. كان يكمن فى قلب بقاء الهوية القومية الإيرانية مزيج من بقاء النخبة السياسية

والاجتماعية القديمة وامتلاك ثقة ثقافية بالذات. راق الفاتحين المسلمين الموروث الإدارى للملوك الساسانيين، والتقدم الاقتصادى فى إيران ونظامها الضرائبى. وقد أدى هذا ومعه تمسك ملوك الإمبراطورية الساسانية (٢٢٤- ٦١٥م) بالقيم الثقافية الإيرانية إلى الحفاظ على الهوية الإيرانية المتمايزة - وبقيت اللغة الفارسية غير العربية وغير السامية. كان الفتح الإسلامى قد استغرق قرونا حتى اكتمل مما أتاح الفرصة لبقاء بُنَى السلطة المحلية، ومعها النخب الإيرانية الذين اعتنقوا الإسلام وكيّفوه وفقا لمجتمعهم وحافظوا على الموروثات الثقافية والسياسية القديمة. ومع ذلك فقد أُدمج تاريخ إيران قبل الإسلام مع الموروث العربى الكلاسيكى.

حينما انهارت السلالة الساسانية، استمرت الزرادشتية ديانة للنخبة والطبقات العليا. استمر الحكام المحليون يحكمون وفقا للتقاليد الساسانية، وبخاصة فى منطقة بحر قزوين. حدث التحول إلى الإسلام من خلال جاذبية الدين الجديد واستغرقت العملية عدة قرون. لم تُفْرض القوانين العربية الإسلامية على الإيرانيين. فى القرن التاسع، قام الزرادشتيون الذين كانوا مازالوا يمارسون دينهم ويحتلون مواقع السلطة فى الإدارة بترجمة الأدب الفارسى إلى العربية. أيضا، كانت إسهامات العلماء الإيرانيين من أمثال الرازى وابن سينا فى مجال العلوم والطب ودور إيران فى نشر تلك الإسهامات فى أوروبا من خلال اللغة العربية على قدر كبير من الأهمية.

صعود الشيعة إلى السلطة:

فى القرنين العاشر والحادى عشر، كان المذهب الشيعى قويا فى شمال إفريقيا وجنوبى سوريا فيما كانت إيران مركز الفقه السنى. بيد أن إيران وفرت ملاذا للجماعات الشيعية الهاربة من الاضطهاد فى بغداد

ودمشق. وفيما تراجع المذهب الشيعي في شمال إفريقيا وسوريا، غدت إيران مركزا له ومن ضمن تجليات هذا، أن رضا، الإمام الشيعي الثامن، مدفون في مدينة مشهد فيما دُفِنت شقيقته معصومة بمدينة قم، ويؤم ملايين الحجيج الشيعة من إيران وخارجها ضريحيهما كل عام. أتت الشيعية الإثنى عشرية إلى إيران أثناء حكم الصفويين حيث كان إسماعيل الصفوى قد هزم المغول عام ١٥٠١ وأقام ملك الصفويين. تنافس العثمانيون والصفويون على الهيمنة على العالم الإسلامى، وأضفت الحروب بين الإمبراطوريتين هويات دينية متمايزة على الإيرانيين والأتراك والعرب. وفى النهاية، رسخ الصفويون، الذين كانوا فى الأصل أخوية صوفية سنية، المذهب الشيعى ديناً رسميا فى إيران كوسيلة لتمييز أنفسهم عن العثمانيين، منافسيهم الرئيسيين. وفيما أقاموا هم الإمبراطورية الشيعية حكم العثمانيون الأراضى العربية وجعلوا من الآستانة فى عام ١٥١٧ مركز العقيدة السنية. لم يقتصر الاختلاف بين تلك القوتين العظميين على الشأن الدينى، بل كان الصراع بينهما يدور حول من يحكم العالم الإسلامى. أُجبرت كثير من المجموعات الشيعية فى المناطق ذات الغالبية السنية على الذهاب إلى المنفى وقُتِل بعضهم، وأوجد هذا مزيدا من الصراع بين المذهبين. كان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خلفاء المسلمين ويرون فى حكومة إيران الشيعية القوية تهديدا لهم.

وفى هذا السياق، سعى الشاهات الصفويون إلى الوحدة مع علماء الشيعة وكان هؤلاء العلماء بحاجة إلى دعم شاهات الصفويين، واعتمد بقاء الطرفين وازدهارهما على بعضهما. فى تلك الفترة تغير الخطاب السياسى الشيعى، فقد أصبح المذهب الشيعى الدين الرسمى وحصل بعض علماء الدين الشيعة على سلطة نسبية. لم يعد الشيعة أقلية مقموعة

بل غالبية كبيرة مدمجة فى النظام السياسى. فى تلك الفترة أيضا كانت العلاقة بين القيادات السياسية وعلماء الشيعة فى جوهر الخطاب الشيعى بدلا من الصراعات التى سادت الفترة السابقة. ولذلك، تغيرت طبيعة الجدل: اعتبرت المجموعات الشيعية الصفويين حكومة شرعية إلى أن يظهر الإمام الثانى عشر ليؤسس النظام الإسلامى الشرعى الحق.

ازدهرت الأنشطة الإيرانية/ الشيعية تحت حكم الصفويين. أوجد شاه عباس الذى تولى السلطة عام ١٥٨٧ نسخة حديثة من الهوية الثقافية الإيرانية القديمة وكان المذهب الشيعى أداتياً فى تشكيل هوية قومية متمايزة. ومن اللافت أن ذلك ناظر الفترة المبكرة فى تشكل الدول القومية الحديثة فى أوروبا الغربية. اختار عباس مدينة إصفهان القديمة عاصمة له وسميت إصفهان نصف إى چاهان، أى إصفهان نصف الدنيا. ازدهر المعمار المذهل، ويعتبر المسجد الأزرق الرائع مثالا واحدا فقط، وكذلك أساليب الرسم الجديدة، وأشكال الخطوط الفنية. أصبح ميدان إى ناغشى إى چاهان بمُجمعى مسجديه الرائعين، وتشكيلات السيرامك التى لا نظير لها، وبازاره، أصبح مركزا مزدهرا للثقافة والتجارة الدولية. استقدم الصفويون علماء الدين الشيعة من لبنان وشبه الجزيرة العربية والبحرين من أجل تعميق جذور المذهب الشيعى. عمل هؤلاء العلماء ورجال الدين تحت رعاية الصفويين وأرسوا أسس الأبحاث، والحوزات والمكتبات والمساجد الشيعية فى إيران. وهكذا، أصبح للشيعة منذ وقتئذ روابط قوية مع إيران. مثلا، تعود الروابط بين إيران والشيعة فى جنوب لبنان والعراق إلى قرون عديدة مضت ويوضح هذا سبب أن رجال الدين الشيعة النافذين فى تلك البلاد لهم جذور إيرانية. مثلا، تعود أصول آية الله السيستانى العراقى إلى إيران.

بيد أن سطوة العلماء الشيعة زوت فى الفترة ما بين سقوط الصفويين

(١٥٠١– ١٧٢٢) وحتى تولّى القاچاريين السلطة (١٧٩٤– ١٩٢٥). لم يستطع شاهات القاچار الذين حكموا من خلال القوة العسكرية والقمع السياسى، تجاهل سلطة رجال الدين. أدى ضعف إدارة الدولة وعدم قدرة الشاهات القاچاريين على الوفاء باحتياجات السكان المادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، إلى زيادة شعبية رجال الدين وإسهامهم النشط فى القضايا الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية فى تلك الفترة، كان عالم الدين الإسلامى الشيعى الإيرانى أسد عبادى المعروف بجمال الدين الأفغانى (١٨٣٨– ١٨٩٧) رائدا للحداثة الإسلامية وناشطا معاديا للإمبريالية. رفض الأفغانى التيارات الإسلامية المحافظة والمحاكاة العمياء للغرب. بادر بالعدالة وحكم القانون فى سياق معادٍ للاستعمار ولاستبداد الدولة. كان أول من بادر بما أصبح توجها متناميا لتغيير الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا سياسية دينية. وكما سنبين فى الفصل السابع، جذبت أفكار الأفغانى رائد الإصلاح الدينى فى مصر الشيخ محمد عبده حينما التقيا فى الأزهر بالقاهرة. ومعا، كان لهما إسهام عظيم فى الفكر الإسلامى الحديث. كان لهذا التوجه أن يستمر من نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين. فى نهاية القرن التاسع عشر، لعب علماء الدين الإيرانيون دورا مهما فى حركة التبغ الاحتجاجية ضد البريطانيين وفى الثورة الدستورية بين عامى ١٩٠٥– ١٩٠٦، وفى حركة جانجالى (الغابة Jun-gle) ما بين عامى ١٩١٤– ١٩٢٠ ضد حكم القاچار.

تهميش رجال الدين الشيعة فى القرن العشرين

أثناء حكم أسرة بهلوى شاه (١٩٢٥– ١٩٧٩) لعبت الشيعية كحركة سياسية دينية دورا معارضا مرة أخرى. وكما أوضحنا فى الفصل الأول، أدت التطورات الاجتماعية الاقتصادية أثناء حكم رضا شاه

ومحمد رضا شاه وفى ظل نفوذ البريطانيين أولا، ثم الأمريكيين، أدت إلى تهميش قطاعات عريضة من المجتمع الإيرانى بمن فيهم رجال الدين. دعم آية الله كاشانى حركة مصدق القومية، وفى الستينيات، بزغ آية الله الخمينى شخصية سياسية دينية مهمة.

بيد أن غالبية رجال الدين الإيرانيين وافقوا على إضفاء الشرعية على الحكم الملكى طالما ظل الشاه يدافع عن الهوية الشيعية. وعلى الرغم من أن آية الله الخمينى كان يعتقد فى فصل الدين عن السياسة، إلا أنه، وكما ذكرنا فى الفصل الأول، غيّر موقفه فى نهاية حكم الشاه، وتحت ضغط الأوضاع السياسية، رأى أنه ينبغى أن يكون للدين دور مهم من أجل إنهاء حكم الشاه وعلى هذا الأساس، رأى أيضا أنه يجب تنفيذ مبدأ ولاية الفقيه رغم أنه أكد على وجوب أن تتوافق الممارسات الدينية مع الظروف الراهنة، هذا فى وقت كانت غالبية الشعب تعارض سياسة الشاه الداخلية، والخارجية أيضا، وبخاصة علاقته مع إسرائيل.

وفى هذا السياق تم إحياء قراءة معاصرة للموروث الشيعى لتحدى الحكومات الظالمة والحكام الظالمين والتصدى لهم، وكما أوضحنا فى الفصل الأول أيضا، نَقَد على شريعتى، آنذاك، رجال الدين لعدم اهتمامهم بالوضع السياسى وعدم مشاركتهم فى الثورة. وعلى الفور، وجه كثير من رجال الدين النقد لشريعتى على أساس أن موقفهم لم يتغير، إذ إنه يجب انتظار عودة الإمام الثانى عشر الذين سيأتى بالعدالة للعالم. رد عليهم شريعتى بقوله إنه لا يجوز للجماعات الشيعية أن ترضى فقط بمجرد الانتظار السلبى حتى يعود الإمام الثانى عشر بل يجب أن يعملوا بجد ونشاط كى يسرعوا عودته.

رأى شريعتى أن الدين يمكن أن يصبح دنيويا من خلال ثقافة النقد. من ثم، بإمكان الدين استيعاب جميع الأيديولوجيات بما فى هذا

الماركسية ورؤى فرويد وسارتر ولاهوت التحرير الأمريكى اللاتينى وما بعد الحداثة والليبرالية. استخدم تحليل الماركسية والاشتراكية الطبقى لكنه نقد الشيوعية السوفييتية وكذلك الليبرالية والوجودية. رأى شريعتى أنه يمكن تحقيق الحرية والمساواة بتحرير «الله وحبه من احتكار الدين، وتحرير الحرية من احتكار الرأسمالية والمساواة من احتكار الماركسية». وذهب إلى أن الاستعمار والإمبريالية هما عدوا الإسلام الرئيسيان، وأن الماركسية أيديولوجية منافسة له؛ وأن الشيعية معنية بالدفاع عن الفقراء والمهمشين وتحقيق العدالة. طرح رؤية شعبية حداثية وقتالية إسلامية كان لها تأثيرها على أفكار شرائح عريضة فى إيران والشرق الأوسط. عارض كثير من علماء الدين بمن فيهم عدد من الإسلاميين الحداثيين مثل آية الله مطهرى آراء شريعتى ووصفوها بأنها متطرفة. وعلى الرغم من النقد الكثير الذى وُجِّه إليه، ألقى شريعتى محاضرات كثيرة فى حسينية الإرشاد وهى مركز للخطاب الإسلامى الحداثى بطهران. ذهب إلى أن الإسلام هو أيديولوجيا، وثورة اجتماعية يهدف إلى تشكيل مجتمع حر لا طبقى على أساس المساواة والعدالة، يعيش فيه أناس مستنيرون مسئولون وأحرار. تحدث بلغة جديدة وجدت طريقها إلى عقول جمهوره الذى كان يتكون من آلاف البشر تمتلئ بهم حسينية الإرشاد. كانت رسالته التى اضطلع بها هى تحديث فهم الإسلام وكان يبغض المثابرة فى اتباع التقاليد والأعراف والمؤسسات العتيفة ويعتقد أن التغيير حتمى، وبهذا ولَّد حركة اجتماعية أدت فى النهاية إلى ثورة ١٩٧٩.

رحّب العالم الشيعى بالثورة الإيرانية بفخر واعتزاز. غدت إيران نموذجا للجماعات الشيعية فى المنطقة للنضال من أجل حقوقهم. وفى أنحاء الشرق الأوسط حدثت تظاهرات شيعية وأعمال شغب وتصادمات

مع الأنظمة الحاكمة. مثلا، تسببت الانتفاضات فى البحرين والكويت فى مشاعر القلق وبخاصة من جانب السلطات السعودية إذ إن عمال النفط بالمنطقة الشرقية شيعة فى غالبيتهم، وشهدت تلك المنطقة أعمال شغب سياسية فى عامى ١٩٧٩- ١٩٨٠، قام السعوديون على إثرها بأعمال قمعية ضد الناشطين من عمال النفط المؤيدين لإيران. وكما سنرى لاحقا، كانت نظرة كثير من المجموعات السنية فى المنطقة تجاه إيران إيجابية وبخاصة فيما يتعلق بدورها فى المنطقة والتحول الذى حدث فى سياستها حيث اتخذت موقفا مناصرا للفلسطينيين بعد أن كانت مؤيدة لإسرائيل وتحولت من صديق للحكومات الموالية للولايات المتحدة إلى داعمة للفقراء والمهمشين فى المنطقة. أيضا، نظرت مجموعات اليسار إلى الإسلام بمزيد من الاهتمام، حيث إن الإسلام بالنسبة لإيران هو أيديولوجيا مقاومة أزرت الفقراء والطبقات العاملة، ومن خلال الحشد الجماهيرى نجحت فى الإطاحة بأحد أعتى الأنظمة فى المنطقة.

«المفكرون المتدينون الجدد» وتحدى حكم رجال الدين:

قبل ثورة ١٩٧٩، ارتبط مفهوم «المفكرين المتدينين الجدد» بأعمال على شريعتى وآية الله تالغانى. وبعد الثورة سار عدد من السياسيين ورجال الدين على النهج ذاته ووضعوا أسس الإصلاح. وبعد إقامة الجمهورية الإسلامية تحولت الحركة الشيعية الإيرانية إلى حكم شيعى ومنذ الأيام الأولى للجمهورية الإسلامية رأى آية الله العظمى مطهرى نظرية ولاية الفقيه رأياً أيديولوجياً لا ينبغى أن يؤدى إلى إشراك رجال الدين فى السياسة والحكومة إذ إن دورهم إشرافى هدفه منع الممارسات التى تتعارض مع الشريعة. وكما أوردنا فى الفصل الأول، بُعيد ثورة ١٩٧٩، أدت عوامل داخلية وخارجية إلى زيادة دور رجال الدين المحافظين ونفوذهم فى الدولة والمؤسسات الأخرى. وبعد آية الله مطهرى، أصبح

آية الله منتظرى على قمة من يتحدون دستور إيران الثيوقراطى (الدينى) وظل حتى وفاته ناقدا لدور رجال الدين الإشرافى وتصدى لتفعيل نظرية ولاية الفقيه. ونتيجة لانتقاده القيادات حل آية الله الخامنئى محله خليفة مختارا لآية الله الخمينى، وفرِضت على منتظرى الإقامة الجبرية فى عام ١٩٩٧.

ثمة مستويات عدة للنقد الذى يوجه لنظرية ولاية الفقيه. يرى البعض أن النظرية كانت وليدة وقتها حيث كان ينبغى على رجال الدين، فى الفترة الثورية فى نهاية السبعينيات، المشاركة فى الحياة السياسية لضمان نجاح الثورة، لكن الآن، فإن ثمة حاجة للفصل بين الدين والسياسة. ويذهب آخرون إلى أن بعض التأويلات لنظرية ولاية الفقيه أوجدت رد فعلٍ سلبيا فى المجتمع بإمكانه أن يؤدى إلى تراجع مستوى التمسك بالدين. على حين يتخذ البعض موقفا ضد ولاية الفقيه من منطلق علمانى. بل إن ثمة من يرون وجوب عدم اشتغال رجال الدين بالسياسة إطلاقا وأنه ينبغى عليهم فقط الحفاظ على الدين. وبعامة، فقد دفعت تلك الانتقادات الصريحة بإيران فى اتجاه نحو العلمانية.

فى عام ١٩٩٣، استخدم خاتمى أيضا مصطلح «المفكرين المتدينين الجدد» ورأى أن ثمة حاجة إلى شكل جديد من التوجهات الثقافية من أجل الإعلاء من شأن التدين وحقوق الإنسان. ذهب إلى أن الغرب لا يمثل فقط الاستعمار والإمبريالية لكنه أيضا أنبت أفكار ماركس وهيجل وجوته، ويمثل الحداثة والحرية والديموقراطية. كما رأى المفكر الإسلامى عبدالكريم سوروش أن بإمكان هذا الشكل من التوجه الثقافى التعلم من الغرب دون أن يكون عبدا له.

ومن هذه المنطلقات تعاون كثير من «المفكرين المتدينين الجدد»، من رجال دين وصحفيين ومثقفين مع إدارة خاتمى، فيما اتخذ آخرون موقفا

أكثر نقدا من التوجهات الدينية المحافظة. وهكذا، استُخدم مصطلح «المفكرين المتدينين الجدد» فى إيران لوصف الإسلاميين الذين يرون أن ثمة اتساقاً متبادلاً بين الحداثة والإسلام حيث إنه بالإمكان تأويل المفاهيم الإسلامية وإعادة تأويلها بما يتوافق مع الزمان والمكان. يعتنق هذا التوجه بعض الليبراليين، والنيوليبراليين، وبعض اليساريين الذين يؤمنون بالديموقراطية الاجتماعية. يكمن فى عمق تحليلهم الرأى القائل إن القادة السياسيين المحافظين يعملون على تقوية الدين الشعبى من أجل حشد الجماهير لتحقيق مصالحهم الخاصة. نجح هذا الإسلام الشعبى أثناء فترة الثورة، ثم بعد ذلك فى تعبئة الجماهير إبان الحرب مع العراق. يُستخدم القياس بين الإسلام المبكر والمذهب الشيعى آلية قوية بخاصة فى تعبئة الناس. بالنسبة لهؤلاء «المفكرين المتدينين الجدد» فقد ضعفت فكرة الدين الشعبى إذ إن القضايا الدينية الأيديولوجية لا تحل مظالم جماهير الناس التى تتمحور حول قضايا مادية. كان إسلام الثمانينيات تطغى عليه الأيديولوجيا أما الآن، فقد تغيرت مدركات الناس وهوياتهم. أثار وعد توفير التعليم والرعاية الصحية والعمل للفقراء والمهمشين فى الثمانينيات والتسعينيات، توقعات الناس وآمالهم. لكن فشل حكومة خاتمى الإصلاحية وحكومة أحمدى/ نجاد المحافظة فى الوفاء بتوقعات الشباب والمتعلمين زاد من زخم المطالبة بمستويات مقبولة من التعليم والعمل والرفاه الاجتماعى والديموقراطية.

نتيجة لذلك، ينقد كثير من «المفكرين المتدينين الجدد» دور رجال الدين الذين يمارسون السلطة من خلال الدولة وغيرها من المؤسسات، حتى أن بعض رجال الدين الذين يتبنون تلك التوجهات الجديدة سُجنوا نتيجة لآرائهم. فى عام ١٩٩٨، اعتُقِل محسن كاديڤار لمقارنته الخطاب الشيعى بالطغيان والحكم المستبد. ذهب إلى أن:

«سجل الثورة ليس بالمجيد إذا نظر إليه من منطلق مطالب الشعب، والشعار الذى أصبح موتيفة الثورة أى: الاستقلال، الحرية، الثورة الإسلامية.. القضاء على القمع الملكى وإقامة العدالة، الإيجابية الوحيدة فى صحيفة ما حققته الثورة هو الشعار الأول إذ إن إيران اليوم تتمتع باستقلال نسبى عن القوى الأجنبية. لكن الثورة لم تنجح سوى فى تغيير وجه الحكم الملكى فى إيران؛ ظل الحكم المستبد والعلاقات الملكية سليمة لم تمس، وأعيد إنتاجها فى شكل الفقيه الوالى المستبد. فالشعب لا يستطيع اختيار الوالى الفقيه مباشرة، وأيضا ليس ثمة تحكم فى أسلوبه أو حكمه، ولا يستطيع فصله من منصبه إذا عمل ضد إرادة الشعب، ومثل الملك المستبد، يظل الوالى الفقيه فى منصبه طوال حياته، وهو فوق القانون. كما أن الثورة أثبطت الإيرانيين من حيث الحرية إذ إن إحدى متطلباتها السابقة هى حرية المعارضة، أى الدرجة التى يستطيع بها من يعارضون الحكومة، وأساليب حكامهم أن ينشطوا فى المجتمع ويعبروا عن آرائهم».

أيضا، أُلقي القبض على رجل دين آخر، هو يوسف إشكفارى فى عام ٢٠٠٠ بعد عودته من مؤتمر برلين ناقش فيه الإسلام والديموقراطية اعترف فى خطابه الذى ألقاه هناك بأنه حتى إذ هُزِم خاتمى فى عمله فقد أصبحت الديموقراطية الأولوية الأولى كما أنه ثمة إجماع غير مسبوق بين المثقفين والنخب السياسية، على أن الاستبداد التاريخى قد انتهى فى إيران وبالمثل، فإن ثمة رجال دين منشقين وصحفيين، وأكاديميين من أمثال محمد شابستارى وعبدالكريم سوروش وسيد هاچريان وحبيب الله بيمان، وما شاء الله شمس الواعظين ماضين فى تحدى الدولة وغيرها من المؤسسات ومناقشة الحد الذى يمكن به فصل النظرية الدينية والجماعة الدينية عن مجريات السياسة وسلطة الدولة.

هدفهم هو تقدم الديموقراطية خطوة خطوة، والتعلم أثناء تلك العملية ومن خلالها. يرى هؤلاء «المفكرون المتدينون الجدد» أن من الممكن تحقق حكم إسلامي عادل يماثل النظام الذى ساد فى الأيام الأولى للإسلام حينما أضفيت أهمية خاصة على العدالة وحقوق الإنسان.

يركز هؤلاء المفكرون، بصفتهم مثقفين إسلاميين شيعة، على النظام الذى اتبعه علىّ فى الحكم فى أيام الإسلام الأولى. ذهب حبيب الله پيمان فى حوارٍ معى إلى أن:

«علياً اعترف بحقوق الجميع، حتى هؤلاء الذين اختلف معهم، وحتى غير المؤمنين، تقبل التنوع واعترف بحقوقهم. إن جوهر الديموقراطية هو الاعتراف بأن المجتمعات مؤلفة من مجموعات وأديان متنوعة. للأفراد والمجموعات حقوق يجب أن يعترف بها الأفراد الآخرون والحكومات. وفى ظل مثل هذه الديموقراطية ينبغى أن يكون الجميع متساوين أمام القانون. ينبغى أن يكون للناس الحق فى المشاركة فى صنع القرارات، وكما نص القرآن، فإن الإمامة تقتضى العدالة، أى أن على القادة أن يكونوا عادلين كى يقيموا العدالة. لابد أن يقوم الحكم على أساس ديمقراطية الشورى».

أيضا، تحدى الفيلسوف والفقيه النافذ محمد مجتهد شابستانى الأرثوذكسية الحاكمة، إذ إنه يؤمن بالعلاقة الجدلية بين العقيدة والمعرفة ويقترح انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة. أما بخصوص الفردانية والديموقراطية وحقوق الإنسان، فيرى فصل القيم الدينية عن الوقائع الدنيوية لأنه يؤمن بأن المبادئ الدينية المطلقة لا يمكن تطبيقها بحذافيرها.

أما آية الله صانعى، داعم إصلاح قوانين الأحوال الشخصية لصالح النساء، فيرى أن القوانين والأحكام الشرعية يجب تأويلها بما يتفق مع

الزمان والمكان. كان لدعمه أهمية فى أنشطة النساء ونضالهن من أجل إصلاح القوانين والأحكام التميزية. كانت المنظمات غير الحكومية لنساء الأقليات ومعها المنظمات النسائية غير الحكومية الأخرى قد قامت بحملة طوال التسعينيات لإصلاح قانون الدية. وفقا للبند رقم ٨٨١ من القانون المدنى، والبندين رقم ١٠ و٥٩، لا يدفع المسلم/ المسلمة، فى حالة القتل الخطأ لشخص ينتمى إلى أقلية دينية لأسرته، سوى $\frac{١}{١٢}$ من الدية التى يدفعها فى حالة ما إن كان القتيل/ القتيلة مسلما/ مسلمة، أيضا، فإن مبلغ الدية التى تدفع عن الأنثى نصف ما يُدْفع عن الرجل. فى عام ٢٠٠٢، نجحت المنظمات غير الحكومية للأقليات الدينية (الزرادشت، واليهود والأرمن) فى إصلاح هذا القانون وتغييره لصالح الأقليات. وفى أعقاب هذا الانتصار، بدأت المنظمات غير الحكومية النسائية والمحاميات وعضوات المجلس فى الضغط من أجل قيمة متساوية للدية فى حالة القتلى الرجال والنساء. مثّل هذا تحديا كبيرا من جانب النساء من جميع الهويات الإثنية والدينية للقوانين الشرعية الإسلامية فى إيران. وفى عام ٢٠٠٨، ونتيجة لحملات النساء، تمت الموافقة، وعلى أسس صحية فى أن تكون قيمة الدية عن النساء والرجال متساوية. فى هذا الصدد، قالت لى مرضية مرتضى:

«فى البداية قلنا إنه إن أصيب الرجال والنساء بأمراض لها علاقة بالدم، فينبغى أن تكون الدية متساوية وبدعم عدد من آيات الله، تمت الموافقة على ذلك. ثم مضينا نضغط على السلطات لتعمم ذلك على قتلى الحوادث. قد يرفض «مجلس الأوصياء» هذه المساواة لأن رجال الدين المحافظين قد يفسرون هذا الإصلاح على أنه يناقض أحكام الشريعة، وإذا حدث ذلك سنحيل مطلبنا إلى «مجلس الضرورات» بحجة أنه ينبغى

القبول به لأنه يتفق مع احتياجات المجتمع الحالية وكلنا ثقة أنه سيتم قبوله».

وفقا لفريدة ماشينى، إحدى ناشطات حقوق النساء، فإن «ثمة ٢,٥ مليون أسرة تعولها نساء. علينا تغيير الأحكام لتتوافق مع احتياجات العصر. وفقا للإسلام، يمكن للدين أن يكون جزءا من السياسة بموافقة الشعب فقط». نأتى بحجة مقنعة بأن نتحدى القادة المحافظين الذين غيروا القوانين والأحكام التى يعمل وفقها النظام المصرفى الإسلامى لكى يجعلوا الاقتصاد الإيرانى متسقا مع النظام الكوكبى، وفى نفس الوقت يرفضون تغيير قوانين الأسرة لصالح النساء. وفى هذا الصدد تذهب إلى أنه:

«ثمة أناس فى إيران يرون المساواة بين النوعين على أنها أيديولوجيا غربية دخيلة ستضعف الإسلام. تعمل شيطنة الغرب لإيران على تقوية موقفهم. وبالمقابل، فثمة من يرون أن جذور قهر النساء مصدرها الإسلام. واليوم، فلدينا حركة بين هذين الرأيين اللذين تفصل بينهما مسافة شاسعة. إن خطاب التفكير الدينى الجديد كحركة جديدة يؤكد على أهمية الإسلام فى إيران. نعتقد أن أحكام الشريعة تاريخيا قد فسرها رجال لخدمة مصالح مجتمع يهيمن عليه الذكور، وأبقوا على قمع المرأة مؤيداً باسم الدين. نحن نتحدى القراءة الذكورية للإسلام. تعمل مشاركة النساء المتنامية فى المجال العام للحياة على تحدى المواقف البطريركية. تريد النساء تأويلا مختلفا للدين وفقا لمقتضيات عالم اليوم، وهذا هو الأسلوب الوحيد للحفاظ على الدين».

يعتقد «المفكرون المتدينون الجدد» أن الدين لا يمكنه أن يقمع إرادة الشعب، الأحرى، فإن دوره فى السياسة لابد أن يستمد شرعيته من

التأييد الشعبى. يتحدون القيادات حينما تبتعد عن مصالح عامة الناس، وكما ذكرنا فى الفصل الثانى، يخلق القمع السياسى، والتحكم فى الإعلام، والقيود التى تفرضها الدولة على عمل الصحافة الحرة، وعلى حرية التجمع والكلام، تخلق العقبات فى طريق نشطاء الديموقراطية الذين يعملون على تطوير روابط دينامية تفاعلية مع عامة الناس. لقد كان للضغوط الداخلية والخارجية أثرها السلبى على حركة الديموقراطية ونجم عنها وجود فجوات بين النخبة وجماهير القاعدة. وعلى الرغم من ذلك، فإن «المفكرين المتدينين الجدد» عميقو التجذر فى مجتمعهم لأنهم يعملون داخل الأطر والتقاليد الإسلامية. ومن ثم، لابد أن ينجحوا يوما فى اكتساب الدعم الشعبى.

فى أعقاب انتخابات الرئاسة و«الانتفاضة» فى صيف ٢٠٠٩، أعلن آية الله العظمى منتظرى تأييده لحركة الديموقراطية ودعا الناس إلى مواصلة احتجاجهم. رأى أن:

«رجال الدين الشيعة وقفوا إلى جانب الشعب. واليوم فإن ثمة انقساماً. يتمسك أحد الأطراف بالسلطة بأية وسيلة كانت، ويستمر الطرف الآخر فى الوقوف إلى جانب الشعب ويضفى أهمية على حقوق الشعب أكبر مما يضفيه على حقوق النظام. من ثم، فإن رجال الدين الشيعة يواجهون خيارا تاريخيا: إما أن يصبحوا أداة أيديولوجية لنظام استبدادى أو يقفوا إلى جانب الشعب ويعودوا إلى ثقافة الاحتجاج الشيعية».

حذر سلطات الدولة بقوله إنه إذا لم يستطع الناس رفع أصواتهم بشأن حقوقهم المشروعة، وإذا تم قمع تظاهراتهم، ستتطور تعقيدات بإمكانها أن تؤدى إلى اقتلاع الحكومة. وكما ذهب باجر موين «إن

معارضة (منتظرى) السياسية للظلم مثلت فعل تحدٍ مهما حاول تغيير أساس الفقه الشيعى من حماية حق المؤمنين إلى حماية حق المواطن». كان هو رجل الدين الوحيد الذى أصدر فتوى يدعو فيها إلى احترام حقوق البهائيين. وفى هذا الصدد، فقد «وسع حدود الفقه الشيعى ليشمل مجال حقوق الإنسان». يرى محسن كاديڤار أن للمواطنين الحق فى الاحتجاج وفقا للدستور:

«إن احتجاجنا سلمى ونحن دولة إسلامية حقة تحترم حقوق الإنسان وحقوق النساء، وتسمح للناس بأن ينتخبوا قادتهم الدينيين والدنيويين بحرية. وفى مثل هذا المجتمع، ليس للقادة الدينيين الحق فى تقرير كيفية قيادة الدولة بالتعارض مع غالبية الشعب. وعلى المدى الطويل، ليس بوسع النظام أن يقف فى مواجهة ملايين المتظاهرين السلميين، إلا إذا تخير ارتكاب المذابح، وإن فعل ذلك، فسيفقد شرعيته تماما».

يوضح تحليل للديناميات السياسية الداخلية فى إيران، كدولة ظلت دينية/ سياسية منذ ثورة ١٩٧٩، يوضح أن التناقضات المتعضونة فى الدولة الإسلامية فى سبيلها لتغيير حدود الإسلام المحافظ، بحيث تؤدى إلى ظهور حركة ديمقراطية مهمة. وكما سنوضح فى الفصول التالية، تتمتع إيران بشعبية لدى غالبية اللبنانيين والفلسطينيين والمصريين لأنها البلد الوحيد فى المنطقة الذى يعارض الصهيونية والإمبريالية ويتصدى لهما.

بيد أن دعم الشعوب فى أنحاء الشرق الأوسط لحركة الديموقراطية فى إيران محدود وغير يقينى وذلك لدعم السياسيين والإعلام فى الغرب لها. يرى كثيرون أن سياسة إيران القمعية الداخلية تتعارض مع سياساتها الإقليمية المعادية للصهيونية والإمبريالية. لقد اعتنقوا فكرة

الإسلام الديموقراطى ويرون أنه ينبغى للإسلام كأيديولوجيا مقاومة القمع والهيمنة السياسية السلطوية. وفى هذا السياق، يمكن القول إن موقف رجال الدين الإصلاحيين فى إيران - الذى يناظر موقف آية الله فضل الله في لبنان، وآية الله السيستانى فى العراق سيسهم فى تشكيل مستقبل الديموقراطية فى الشرق الأوسط.





-4-

علاقة إيران بلبنان وحزب الله

تعود العلاقة الإيرانية اللبنانية إلى الأزمنة القديمة حينما حكمت إمبراطورية الأخمينيين الفارسية شاطئ فينيقيا بين عامى ٥٣٩ ق م إلى ٣٣٢ ق م(١). وحينما قهر الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية أصبحت لبنان جزءا من المملكة السلوقية الهلنستية(٢)، وفى القرن الأول قبل الميلاد أصبحت لبنان جزءا من إقليم سوريا الرومانى. وفى عام ٦١٤ ميلادى، استولى الحكام الساسانيون على القدس. وفى القرن السابع الميلادى، فتح العرب لبنان وغدت تحت سيطرة المسلمين. كانت الجماعات الشيعية الإثنا عشرية قد سكنت منطقة جبل عامل جنوبى لبنان وسهل البقاع منذ القرن التاسع الميلادى، وأثناء فترة حكم الصليبيين فى سوريا، ظهر الدروز المسلمون فى أجزاء شتى من سوريا بما فيها جبل لبنان فى الجنوب. زادت العلاقة التاريخية بين إيران والجماعات اللبنانية بدرجة لافتة فى القرن السادس عشر حينما دعا الصفويون علماء الشيعة اللبنانيين إلى تعميق جذور المذهب الشيعى فى إيران.

---

(١) الأخمينيون سلالة فارسية أسسها قورش (القرن ٧ ق. م). أشهر ملوكها قورش الكبير وقمبيز، وداريوس وأحشويرش. امتدت إمبراطوريتهم إلى بلاد اليونان وفينيقيا ومصر. انقرضت بموت داريوس ٣ بعد أن قهره الإسكندر ٣٣٠ ق. م. تشهد على حضارتهم الرفيعة آثار پرسيپوليس وشوش (الترجمة عن : معجم المُنجد فى الأعلام).

(٢) أسسها سلوقس الأول من قواد الإسكندر. ملكت ٣١٢- ٦٤ ق. م. امتدت من الهندوس إلى المتوسط.

طوال ذلك التاريخ المعقد حدثت الصراعات، والتناغمات والتحالفات بين الجماعات المختلفة بشكل خاص. انتشرت التحالفات العائلية على أساس الدين. وكما يرى أسامة مقدسى، فالطائفية ك «معرفة حديثة» هى من صنع الهيمنة الاستعمارية الأوروبية من خلال الإمبراطورية العثمانية. مثلا، اعترف الموارنة والدروز بالقوى الأوروبية حماة لطوائفهم بدلا من حكام لبنان المحليين. عمّقَ هذا عملية الهوية الطائفية السياسية.

قامت دولة لبنان الحالية عام ١٩٢٠ حينما استغل الفرنسيون عصبة الأمم واقتطعوا جزءا من سوريا ليقيموا «لبنان الكبير» وُجدت الحدود الحالية لدولة لبنان القومية وفقا لقرار عصبة الأمم هذا، وشملت منطقة جبل لبنان العثمانية ذات الغالبية المسيحية (الموطن الأصلى للموارنة)

ومعها المناطق المجاورة بما فى هذا سهل البقاع والجنوب.

فيما بين عامى ١٩٢٠ و١٩٧٥، هيمن الموارنة على الدولة اللبنانية وسياستها، وحددوا هوية لبنان وفقا لمصالحهم الثقافية والطبقية. شاركت النخب السنية أيضا فى الشئون السياسية. ووضع تشكيل «الميثاق الوطنى» الأسس لنظام سياسى طائفى ضَمَن تمثيلاً منخفضاً للشيعة. قُسِّم مجلس الوزراء بالتساوى بين الأعضاء الموارنة والسنة، وخُصِص للشيعة ١٠ من مقاعد البرلمان البالغ عددها ٥٥ مقعداً.

حصلت لبنان على استقلالها عام ١٩٤٣، ومنذ آنذاك ظل رئيس الجمهورية مارونياً، ورئيس الوزراء سُنياً، أما منصب رئيس البرلمان الذى لا يكاد يكون له سلطة، فكان من نصيب الشيعة، هذا على الرغم من أن

الطائفة الشيعية تمثل نسبة أكبر من السكان. (كما سنرى، غيّر ظهور حزب الله كحزب سياسى موازين القوة هذه). أفاد الموارنة، والسنة الحضريون من هذه البنية الاجتماعية السياسية، فيما ظل سكان الجنوب، وغالبيتهم من الشيعة، بدون مستشفيات أو مدارس أو أنظمة للرى. لكن فى عام ١٩٥٨، فى عهد الرئيس شهاب، بُنيت بعض الطرق والمدارس فى الجنوب وتم إدخال المحاصيل التى تُغِل النقود لزراعتها فى المناطق الريفية. أيضا وفرت الهيئات العسكرية والمدنية بعض الوظائف للشيعة. شجع هذا هجرتهم إلى جنوب بيروت، بيد أن الفقر والبطالة ظلا السمة الغالبة وعُرِفت هذه الضاحية باسم «حزام البؤس» حينما كان أفراد الطائفة الشيعية والمجموعات الفلسطينية (غالبيتهم من السنة) يعملون أُجراء باليومية، ويعيشون فى فقر مدقع مستبعدين تماما عن بقية المجتمع. أما الإقطاعيون الشيعة فكانوا يدعمون أفراد طائفتهم شفاهيا فقط لكنهم كانوا يحمون مصالحهم المادية ومصالح طبقتهم، وهاجروا إلى أوربا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وغرب إفريقيا وإلى دول أخرى. شكل غالبية الشيعة «طبقة طائفية». إذ كانوا أكثر الفقراء فقرا. عاظم الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان من الوضع التعليمى والوظيفى والاقتصادى المتردى للمجموعات الشيعية، وشكّل سكان الأحياء القذرة فى الضاحية الجنوبية «حزام البؤس» أكثر القطاعات حرمانا فى المجتمع اللبنانى. كان كثير من الشيعة قبل ذلك، فى الخمسينيات والستينيات قد أصبحوا أعضاءً فى الأحزاب الناصرية مثل حزب البعث، والحزب السورى الاجتماعى القومى، والحزب الشيوعى اللبنانى، وغيرها من الأحزاب القومية العربية واليسارية. وفيما كانوا يعيشون فى فقر ويعانون التهميش الاجتماعى السياسى، تم تسيسهم وردْكَلتهم» بتأثير

من دعوات القومية العربية والأيديولوجيات والتنظيمات الاشتراكية والشيوعية. بعد «سبتمبر الأسود» عام ١٩٧٠، حينما سحق الملك حسين منظمة التحرير الفلسطينية فى الأردن، هرب كثير من الفلسطينيين إلى لبنان، وانتقل كثير منهم، بعد حرب عام ١٩٧٣ إلى الجنوب اللبنانى. أدى عدم التنظيم المفرط بين مقاتلى منظمة التحرير فى الأحياء الشيعية إلى اقتطاع الأراضى والمزارع من الشيعة لإقامة مخيمات للاجئين الفلسطينيين مما أدى إلى حدوث توترات بين الفلسطينيين والشيعة. بيد أن الشيعة، مثل آخرين من الشعب اللبنانى، انضموا إلى منظمة التحرير والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للتصدى لاجتياحات إسرائيل للبنان التى دعمها الغرب. أيضا كان تعاون الشيعة مع تلك المنظمات إشارة إلى معارضتهم لفساد رجال الدين الشيعة وتخلفهم والذين كانوا يساندون الطبقة الإقطاعية الشيعية.

منذ عام ١٩٤٨، قامت عدة منظمات خيرية شيعية فى لبنان. وفى عام ١٩٥٩ ذهب السيد الإمام موسى الصدر رجل الدين الإيرانى الذى كان له روابط عائلية لبنانية، إلى لبنان ليحل محل زعيم دينى شيعى بمدينة صور فى جنوب لبنان. أقام بمساعدة عدد من المجموعات الدينية فى إيران، عدة مؤسسات خيرية فى الجنوب اللبنانى لمساعدة المجموعات الشيعية. قدّم لهم أيديولوجيا بديلة عن أيديولوجيا الأحزاب اليسارية والقومية وحاول بناء هوية إسلامية جمعية قابلة للحياة. استخدم مراسم عاشوراء لإقامة التكافل وتطوير الوعى السياسى. فى عام ١٩٦٣، ترسخت مكانة الصدر فى بيروت وصور، وفى عام ١٩٧٨ أنشأ محمد حسين فضل الله جمعية المبرة الخيرية التى توسعت فيما بعد لتضم مستشفيات ومدارس، ودوراً للأيتام ومراكز ثقافية وكان التمويل يأتيها

من أثرياء الشيعة فى المنطقة وفى غرب إفريقيا من أموال الخُمس والزكاة، ومن مناسبات جمع الاكتتابات والتبرعات - التى مازال يجمع فيها ملايين الدولارات كل عام.

فى عام ١٩٦٩، تعاون الصدر وفضل الله لإنشاء المجلس الشيعى الأعلى، وفى عام ١٩٧٤ قادا إضرابا عاما وطالبا بمساعدة المقتلعين من الجنوب اللبنانى نتيجة للهجمات الإسرائيلية. أنشأ عام ١٩٧٤ حركة المحرومين وطالبا بإصلاح النظام اللبنانى. حينما اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية فى عام ١٩٧٥، انبثق عن الحركة جناح عسكرى هو حركة أمل للمقاومة وأنشئت معسكرات تدرّب فيها نشطاء شيعة فى العراق وإيران والسعودية وغيرها.

فى عام ١٩٧٥، أُنزِل بالشيعة أكبر عدد من الضحايا والمصابين على أيدى الميليشيات المارونية. وفى عام ١٩٧٦ اقتُلِع ١٠٠٠٠٠ شيعى وأعيد توطينهم فى الجنوب حيث الكثافة السكانية المفرطة - الأمر الذى أدى إلى انتشار الراديكالية بينهم. فى عام ١٩٧٨ اجتاحت إسرائيل لبنان وقُتِل وهُجِّر مئات الآلاف من السكان. أدت هذه الحرب، ومعها الحرب الأهلية إلى إضعاف قدرة اليسار والقوميين على الدفاع عن حقوق الفقراء فى تلك المنطقة.

وفى ظل تلك الأوضاع، توسعت أنشطة حركة أمل، وظهر الدين كعامل تعبئة بين الشيعة اللبنانيين. نظر الإسلاميون، وبخاصة الشيعة اللبنانيون، إلى ثورة ١٩٧٩ الإيرانية بصفتها رواية مضادة قوية للحداثة الغربية.

قبل ثورة ١٩٧٩، كانت الجماعات الشيعية فى الشرق الأوسط تربطهم نزعات قوية برجال الدين فى إيران. تحولت بعد الثورة علاقات هذه

المجموعات إلى علاقات مع الدولة فى إيران، من ثم كانت الثورة مناسبَة مهمة للشيعة فى أنحاء العالم، وبخاصة للشيعة فى لبنان. وكما توضح الأكاديمية منى حرب:

«إيران مهمة للشيعة لأن ثورتها جعلتهم مهمين فى التاريخ. لا يتعلق الأمر كله بالعلاقة الدينية بل بالعلاقة السياسية. مع إضفاء الصبغة المؤسسية على الحركة الشيعية الإسلامية اللبنانية فى الثمانينيات، ضمت كتب التاريخ قصص أبطال شيعيين وأبطال جبل عامل، لم نكن نتحدث عنهم مطلقا قبل ذلك لأن الشيعة كانوا قطاعاً اجتماعيا مهمشا ومقموعا».

نظرت المجموعات الشيعية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى إلى الثورة الإيرانية على أنها ثورة كل المسلمين ورأها كثير من السنة فى الشرق الأوسط هى ونتائجها على أنها ظاهرة إيجابية.

ظهور حزب الله:

كان ظهور حزب الله نتيجة مباشرة لاجتياح إسرائيل للبنان عامى ١٩٧٨ و١٩٨٢ ومساندة الغرب لذلك الاجتياح. كان الاجتياحان وحشيين ومدمرين إلى أقصى درجة، وغير مشروعين وفقا للجمعية العامة للأمم المتحدة. كان اجتياح عام ١٩٨٢ أعظم هَوْلاً وفداحة بكثير من اجتياح عام ١٩٧٨، قامت أثناءه إسرائيل، بمنهجية ودونما تمييز، بقصف البلدات والمدن والقرى والمدارس والمستشفيات ووضعت بيروت تحت الحصار لمدة ثلاثة أشهر. كما كانت مسئولة مباشرة عن مذابح صابرا وشاتيلا. وإضافة إلى العدد الهائل من القتلى والمصابين، انتقل عدد كبير من اللاجئين مرة أخرى إلى «حزام البؤس».

أدت الاجتياحات إلى تشظية الحركات الشيوعية والفلسطينية

المعارضة لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل. أضعف غياب أيديولوجيات منطقية مقررة داخليا، وغياب التنظيم العسكرى والسياسى المطلوب من أجل كسب دعم القواعد الجماهيرية، أضعف منظمة التحرير واليسار العلمانى والقوميين. هذا علاوة على أن التدخلات العسكرية والسياسية الإسرائيلية التى دعمها الغرب (أثناء حصار بيروت، ذهبت نصف موازنة المساعدات الخارجية للولايات المتحدة كاملة إلى إسرائيل) كانت لها دور كبير فى إضعاف تلك التنظيمات. أدى اجتياح عام ١٩٨٢ إلى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية، التى أُجبِرت فيما بعد فى عام ١٩٨٨ على الاعتراف بدولة إسرائيل. حينما غادرت منظمة التحرير لبنان عام ١٩٨٢ إلى منفاها فى تونس، ازداد وضع اللاجئين سوءا لأن المنظمة كانت توفر لهم التعليم والعمل والرعاية الصحية.

فى يونيو ١٩٨٢، انضم قائد أمل، نبيه برى، إلى لجنة الإنقاذ الوطنى التى شكلها إلياس سركيس رئيس جمهورية لبنان. كان هدف اللجنة التى كانت تضم أيضا بشير الجميل، هو أن تحل ميلشيا القوات اللبنانية المارونية الموالية لإسرائيل ومعها الجيش اللبنانى محل منظمة التحرير فى غرب بيروت. تعاون برى مع المؤسسة المارونية وتصدى لمنظمة التحرير فى جنوب لبنان. لم يتقبل غالبية اللبنانيين والفلسطينيين هذا الموقف منه. انشق عدد من مسئولى حركة أمل وكونوا حزب الله.

فى سبتمبر ١٩٨٢، قُتِل بشير الجميل، رئيس حزب الكتائب ورئيس الجمهورية المنتخب فى حادث تفجير. انتقم الكتائبيون المسيحيون لموته بمذابح صابرا وشاتيلا. وبإشراف من الجيش الإسرائيلى ومن وزير الدفاع أرييل شارون، هجمت ميلشيات الكتائب اللبنانية على معسكرى صابرا وشاتيلا، واغتصبوا، وشوهوا، وقتلوا آلاف اللاجئين الفلسطينيين

المدنيين. لم يكن ضحايا صابرا وشاتيلا هم الفلسطينيين فقط، بل أيضا اللاجئين الشيعة الذين شكلوا ربع عدد القتلى.

وبعد ذلك، ومن عام ١٩٨٥ إلى عام ١٩٨٨، هاجمت حركة أمل معسكر الرشيدية في الجنوب وحاصرته، ومعه صابرا وشاتيلا في برج البراجنة حيث كان السكان قد تعرضوا للمذابح على يد الإسرائيليين والكتائبيين كما ذكرنا من قبل. أدى هذا إلى زواء حركة أمل وتزايد شعبية حزب الله الذي كان قد أثبت التزامه بدعم الفلسطينيين وليس فقط بتمكين الشيعة في لبنان.

أدى نضال حزب الله المستدام ضد إسرائيل فيما بين عامي ١٩٨٢، و١٩٨٥ إلى انسحاب إسرائيل من بيروت. مهد هذا الطريق لمقاتلي حزب الله، الذي ساعدته إيران، أن يصبحوا أبطالاً في أنحاء المنطقة منذ الثمانينيات وحتى الآن. لقيت استراتيجيته ونضاله ضد إسرائيل شعبية من مناصري حماس في الأراضي الفلسطينية. في عام ١٩٨٤ وقعت تصادمات بين أمل وحزب الله وأعلن حزب الله نفسه حركة مقاومة إسلامية. في عام ١٩٨٧، وقعت تصادمات بين مقاتلي حزب الله والقوات السورية في بيروت الغربية حينما رفضوا تسليم قواعدهم للقوات السورية. في عام ١٩٨٨، وأثناء القتال على السيادة في الجنوب بين أمل (مدعومة من سوريا) وحزب الله طردت سوريا حزب الله من الجنوب، وفي وقت متأخر من ذاك العام أعاد حزب الله شن هجومه على أمل، لكن إيران تدخلت، وأنهت القتال بين القوتين الشيعيتين وسلم حزب الله موقعه للقوات السورية التي سمحت له بمواصلة عملياته العسكرية ضد إسرائيل من الجنوب. أوضح هذا سلطة سوريا في لبنان هذا على الرغم من أن حزب الله هيمن على المقاومة في الجنوب. أجبر هذا أيضا حزب

الله وسوريا على التوصل إلى تفاهم سُمِح بمقتضاه أن يُبقى حزب الله على سلاحه فى الجنوب فقط وذلك لمواصلة مقاومته ضد إسرائيل الأمر الذى رأت فيه سوريا مصلحة لها. اعترف اتفاق الطائف بعلاقة سوريا المهيمنة مع لبنان، ورأت إيران أيضا فى وضع سوريا المسيطر فى لبنان مصلحة لها. بين عامى ١٩٨٥ و١٩٨٨، شنت حركة أمل حربا ضارية ضد اللاجئين الفلسطينيين، وفى عام ١٩٨٨ و١٩٨٩ تصادم حزب الله وأمل مرة أخرى من أجل التحكم السياسى فى الجنوب. قوضت هذه الصراعات حضور أمل السياسى فى الضواحى الشيعية المزدحمة، وفى النهاية، انتهت الصدامات بين / الشيعية من خلال اتفاق بين سوريا وإيران فى عام ١٩٨٩.

أوضح تعاون حزب الله مع دولة سوريا العلمانية موقفهما المشترك ضد إسرائيل وأيضا براجماتية حزب الله. علاوة على ذلك، لم تمنع علمانية منظمة التحرير حزب الله من إدانة «حرب أمل ضد معسكرات اللاجئين» ولا من تدخله إلى جانب اللاجئين الفلسطينيين السنة. أيضا، تعاطف حزب الله وأيد أنشطة اليسار الدولى، والمجموعات الماركسية العلمانية، وأُعجب بحفاظ كاسترو على استقلال كوبا فى مواجهة الولايات المتحدة. كما دعم حزب الله نلسون مانديلا وأنشطته ضد نظام الآبارتايد فى جنوب إفريقيا، ويدعم حاليا كفاح حماس والإخوان المسلمين (السنة) فى فلسطين ومصر والأردن. تسببت هذه السياسة فى شعبية حزب الله فى الشرق الأوسط، وله أنصاره فى سوريا وفلسطين والأردن والعراق، ووفقا للإحصائيات تعتبر قناته الفضائية «المنار» أكثر القنوات الفضائية العربية شعبية بعد «الجزيرة».

اشتراك حزب الله فى الانتخابات والحياة السياسية:

تُلقى الولايات المتحدة وإسرائيل على حزب الله مسئولية تفجير سفارة

الولايات المتحدة وثكنات المارينز ومقر القوات الفرنسية الرئيسى فى بيروت عام ١٩٨٢. وكذلك اختطاف طائرة TWA إلى بيروت والهجمات ضد أهداف إسرائيلية فى الأرجنتين، لكن حزب الله ينكر أى رباط له مع منظمة الجهاد الإسلامى المسئولة عن تفجيرات الثمانينيات فى بيروت والتى نجم عنها مقتل عدة مئات، ويزعم أنه تدخل فقط لدى المنظمة للإفراج عن رهائن كانت تحتفظ بهم(١).

منذ التسعينيات عمل حزب الله باتساق ومنهجية على كسب تأييد مختلف الطوائف اللبنانية من خلال مشاركته فى الانتخابات واندماجه فى النظام السياسى اللبنانى. أتاح هذا للمنظمة أن تنتقل من حركة مقاومة محدودة إلى اكتساب وضع بصفتها حركة اجتماعية لها تأثير شعبى قاعدى فى انتخابات عام ١٩٩٢. فاز حزب الله باثنى عشر مقعدا فى البرلمان تنازل عن أربعة منها لحلفائه من غير الشيعة. وفى انتخابات عام ١٩٩٦ فاز بتسعة مقاعد. كان حزب الله قد تمكن من الفوز بمقاعده بدون انضمامه إلى قائمة حركة أمل، لكنه فى انتخابات ١٩٩٦، وافق على طلب سوريا الانضمام إلى قائمة أمل حيث رأت أن بقاءه السياسى يعتمد على وحدة الطائفة الشيعية.

بعد انتخابات عام ١٩٩٢، قرر حزب الله إقامة حوار مع الطائفة المسيحية فيما أصبح يعرف بالانفتاح. قرر السيد عباس الموسوى، ثانى أمين عام للحزب، أن يقود الحزب إلى المشاركة فى النظام السياسى العلمانى الديمقراطى، لكن القوات الإسرائيلية اغتالته (هو وأسرته) فى

(١) من المعروف عن حزب الله أنه لا ينكر مسئوليته عن أى أعمال قام بها فعلا، وقد أثبتت الأحداث ذلك، وأنه لا يقوم بأية عمليات خارج لبنان، لكن الولايات المتحدة وإسرائيل تريدان أن تنسبا إليه هجمات تبرران بها إدراجه على قائمة المنظمات الإرهابية حيث إن مقاومته الاحتلال الإسرائيلى لا تبرر وصفه بالإرهاب وفق الأعراف والمواثيق الدولية. (الترجمة)

فبراير عام ١٩٩٢، وتولى المنصب بعده السيد حسن نصر الله الذى سار على نفس النهج وبادر بالتعاون مع المجموعات المسيحية بأسلوب لافت.

شنت إسرائيل هجمات على الجنوب فى عامى ١٩٩٣ و١٩٩٦ مما أجبر السلطات اللبنانية على اتخاذ إجراءات ضد حزب الله. عقد حزب الله، بعد هذه الهجمات عدة اجتماعات مع البطريرك المارونى و«الإخوة الموارنة». فى عام ٢٠٠١، تشكلت لجنة «الحوار الإسلامى المسيحى» لمناقشة مزيد من التعاون. أيضا، عقد الطلبة من حزب الله لقاءات مع نظرائهم المسيحيين. أكسبت تلك اللقاءات حزب الله دعما انتخابيا من قبل المجموعات المسيحية وأيضا أفراد الطائفة الدرزية ومجموعات سنية. فاز حزب الله، فى انتخابات عام ٢٠٠٠ المحلية بنسبة ٦١٪ من بلديات الجنوب، و١٠٠٪ من مقاعد المجالس البلدية فى ضواحى بيروت. فى عام ٢٠٠٠، اندحرت القوات الإسرائيلية من الجنوب وفر الجيش الإسرائيلى نتيجة لهجمات المقاومة، وبذلك حقق حزب الله هدفا عسكريا وسياسيا مهما بتحرير الجنوب، على الرغم من أن إسرائيل مازالت تحتل مزارع شبعا. شعر المسيحيون بالارتياح والاطمئنان إلى نوايا حزب الله حينما لم تتجدد الأعمال العدائية.

فى فبراير عام ٢٠٠٥ تم اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريرى بتفجير سيارته والسيارات المواكبة له فى بيروت. أدى هذا إلى اندلاع التظاهرات والتظاهرات المضادة فى ميدان الشهداء ببيروت. شجب ائتلاف ١٤ آذار وما سمّى بثورة الأرز الذى كان يتكون من الأحزاب المعادية لسوريا بقيادة سعد الحريرى ومؤيديه (من المسيحيين والدروز والسنة بشكل أساسى) شجبوا هيمنة سوريا على لبنان، ونادوا

بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩ الذى طالب بانسحاب سوريا من لبنان وتجريد حزب الله من سلاحه [بل واتهموا سوريا وأعوانها فى الجهات الأمنية باغتيال الحريرى]. نظم تحالف ٨ آذار المكون من حركة أمل وحزب الله والحركة الوطنية الحرة التابعة لميشيل عون والحزب الاشتراكى السورى القومى والحزب الشيوعى اللبنانى، نظموا تظاهرات مؤيدة لسوريا. انسحبت القوات السورية من لبنان فى ١٧ مارس، لكن حزب الله رفض نزع سلاحه على أساس أنه قوة مقاومة مهمتها الدفاع عن الأرض اللبنانية ضد أى هجوم إسرائيلى محتمل.

حينما عاد ميشيل عون من المنفى فى مايو ٢٠٠٥، وجد أن سعد الحريرى، زعيم الطائفة السنية، ووليد جنبلاط، زعيم الدروز، كانا قد شكلا تحالفا. وكقائد للموارنة، كان عون بحاجة إلى حليف انتخابى جديد وخاصة وأن غالبية الطبقة الوسطى المسيحية، وفقراء المسيحيين كانوا قد سئموا الانقسامات الطائفية. من ثم، تحالفت حركته، أى حركة الإصلاح والتغيير، مع حزب الله [وَوقّعا ما يعرف بوثيقة التفاهم]. كان هذا التحالف مهما لعون نظرا لمكانة حزب الله كتنظيم مسلح، برهن على قدرته على الجمع بين مختلف المجموعات السياسية والطائفية، وبسبب دوره كحركة مقاومة فاعلة تصدت لإسرائيل. وفى هذا السياق، كان حزب الله أكثر قبولا لدى جماهير المسيحيين القاعدية من أى تنظيم آخر. أيضا، كان هناك التقسيم الريفى/ الحضرى التاريخى. فعلى حين أن الشيعة والموارنة ظلوا مجموعات ريفية فى غالبيتها، فإن المجموعات السنية تنتمى إلى المدن، ونظرا لأن عدد السكان الموارنة آخذ فى التقلص فيما يزداد عدد الشيعة، كان الموارنة بحاجة إلى حليف محلى قوى. بيد أن هذا لا يُترجم على أنه نهاية للطائفية بين أعوان حزب الله وعون، لكنه

يعنى أن المواقف من إسرائيل والقضايا الطبقية تهم تلك المجموعات وأن حزب الله يعنى بتلك المتطلبات؛ فهو يتصدى لإسرائيل كحركة مقاومة، وأيضا، يعمل على إرضاء الاحتياجات المادية للمجموعات المتنوعة من مختلف الطوائف من خلال توفير الموارد. بالنسبة للبنانيين كثيرين، يبدو تركيز حزب الله على القهر والحرمان والاستغلال وأنه يقوم على أساس من التحليل الطبقى أكثر من التحليل الدينى، ويلقى هذا النهج استحسانا شعبيا واسعا لدى المجموعات المسلمة والمسيحية.

فى يونيو ٢٠٠٦، تم تعيين حليف أسرة الحريرى اللصيق، فؤاد السنيورة، رئيسا للوزراء. لم تَرُق سياسته التى عمدت إلى تشكيل مليشيا مسلحة من شركات الأمن الخاصة لحزب الله، كما أدت سياسته الاقتصادية النيوليبرالية إلى تضخم كبير وانخفاض الأجور الواقعية مما زاد من استياء غالبية اللبنانيين من الحكومة. فى نفس الوقت كان تحالف حزب الله مع أمل وأتباع عون الذين حصلوا على اثنين وأربعين مقعدا برلمانيا قد منحهم صوتا قويا فى البرلمان. استمر نبيه برى فى منصبه رئيسا للبرلمان، وشارك حزب الله فى مجلس الوزراء بوزيرين.

منذ آنذاك غدا تركيز حزب الله على القومية اللبنانية التى يحددها على أنها مزيج بين الهوية اللبنانية (المسيحية والمسلمة) والهوية الإسلامية (السنة والشيعة والدروز) والهوية العربية (جميع اللبنانيين). فى لبنان، يؤدى هذا المزج بين أيديولوجيات العروبة واللبننة إلى وجود شكل خاص من القومية تجمع بين الهويات الجمعية التاريخية وأيضا الخصوصيات الاجتماعية السياسية للبنان. ظل وجود مجموعات طائفية مختلفة والتدخلات الأجنبية المستدامة يعنى أن يتماهى الأفراد مع زعماء طوائفهم ويعتمدون عليهم فى الزواج والحصول على وظائف والالتحاق بالمدارس

وإتاحة المستشفيات لمرضاهم. وفى هذا السياق لا ترعى الدولة مواطنيها بالمعنى المطلوب.

وكما تبين منى حرب:

«مفهوم القومية فى لبنان متنازع عليه. لم يحدث وأن كان ثمة إجماع على كيفية سرد تاريخ لبنان. تُركّز كل مجموعة على أسلوبها الخاص في النظر إلى القومية والوطنية. تحاول كل مجموعة بدءا ممن يعتنقون التوجهات القومية الفينيقية والمارونية وإلى دعاة القومية العربية، أن تزعم أن سردها هو الأكثر شرعية، وجميعها على غير استعداد لتقبل تنوع تاريخنا والاحتفاء بحقيقة أن لنا مثل هذا التاريخ الثرى. تنتج المجموعات المختلفة تاريخها الخاص بها بدلا من الربط بين كل أوجه تاريخ لبنان. أدى ذلك إلى خلق هويات انعزالية. من ثم، يرحب الكثيرون بالتحالف بين حزب الله وجزء من الطائفة المسيحية ويرونه خطوة إيجابية فى ربط الطوائف المختلفة وفرصة للهروب من هويات المعازل الحالية والأوضاع المستقْطبة التى هى نتاج فترة طويلة من التاريخ [الكلونيالى]».

توفير الموارد من خلال حزب الله:

أدت الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠) والاجتياحات الإسرائيلية إلى إنهاك البلد وخرابه ونجم عنها مئات آلاف القتلى والمصابين جسديا ونفسيا والمقتلعين والمهجرين. وفى تلك الأثناء، فشلت الحكومات الطائفية الفاسدة فى التعاطى مع الركود الاقتصادى وأزمة النازحين والفجوة الماضية فى الاتساع بين الأثرياء والفقراء. تبنى الملياردير رفيق الحريرى صاحب المشاريع السنى رؤية للبنان على أنها مجتمع حضرى علمانى من أفراد الطبقة العليا والمتوسطة. لعب دورا مهما فى إعادة بناء منطقة وسط بيروت - بشكل أساسى من خلال نزع

الملكيات من ملاكها الأصليين - وحولها من مركز تجارى تقليدى إلى حى أعمال بالأسلوب الغربى ارتفعت فيه البنايات الشاهقة التى تحوى شققا باهظة الثمن ظلت خالية فى معظمها لعدم قدرة الكثيرين على شرائها. أى أنها لم تكن تعنى، ومازالت لا تعنى، شيئا لغالبية الشعب الذى يحتاج إلى إسكان ومياه جارية ورعاية صحية وتعليم أولاده. ظل سهل البقاع والجنوب اللبنانى، مناطق همشت تاريخيا وحرمت من الخدمات العامة والمياه النقية والرعاية الصحية المناسبة والإسكان والعمل لفترة من الزمن. كان حزب الله أول من وفر الخدمات الاجتماعية لمن حاربوا ضد الإسرائيليين وعائلاتهم. أقام مؤسسات رعاية اجتماعية فاعلة ليخرج الشيعة من حالة التهميش. وتدريجيا، دعمت شبكته الاجتماعية الواسعة المجموعات الأخرى المحرومة. لم يكن مصدر تمويل هذه الخدمات هو الحكومة بل من أموال الزكاة والتبرعات. كانت مساعدات إيران المالية أيضا على قدر من الأهمية. فى أواخر الثمانينيات، كانت خدمات توصيل المياه والكهرباء إلى تلك المناطق قد قُطِعت تماما، على حين كانت المياه تتدفق على أحياء وسط بيروت. ساعدت إيران على حفر الآبار وتوصيل المياه. منذ التسعينيات اضطلع حزب الله بمسئولية توفير الرعاية والخدمات الصحية والصرف الصحى لنصف مليون شخص من النازحين الذين كانوا يعانون من تراكم النفايات. استمرت هذه الخدمة لمدة خمس سنوات قبل أن تستطيع الهيئة الحكومية المسئولة الوقوف على أقدامها مرة أخرى. بدأ حزب الله فى الاضطلاع بوظيفة الدولة واستطاع توفير الموارد وتنظيمها بحيث وفر المدارس والمياه النقية والكهرباء لمختلف المجموعات السكانية. مثلا، قام بتطوير الزراعة وتنميتها فى سهل البقاع والجنوب بدرجة تحوز

الإعجاب. أيضا، وفرت المستشفيات والخدمات الصحية التى أقامها العمل لعدد كبير من العاملين فى مجال الصحة.

أفادت أيضا القطاعات الأكثر فقرا من المسيحيين والسنة والدروز فى بعض المناطق من الموارد التى وفرها حزب الله. كانت الدولة وزعماء طوائفهم قد فشلوا فى رعايتهم مادياً وتوفير الحماية لهم ضد الهجمات الإسرائيلية المستدامة. ولهذه الأسباب يرتبط هؤلاء الأهالى، وبخاصة المسيحيون منهم بحزب الله ويصوتون له فى الانتخابات. لا ينظرون إليه بصفته تنظيما شيعيا، بل يتماهون معه لأنه يتحدث باسمهم ويعمل فى مصالحهم. يرون أن لدى حزب الله حسا بالالتزام لم يروه أبدا فى أية مجموعة أخرى. بيد أن الفقراء ليسوا وحدهم من يتماهون مع حزب الله، فكما أوضحت لى عالمة الاجتماع Judith Harik إذ قالت:

«قمت فى عام ٢٠٠٣ بإجراء مسح ووجدت أنه حتى قطاعات الطبقات العليا من الطوائف المختلفة تصوِّت لصالح حزب الله لأنه التنظيم الوحيد الذى يتصدى لإسرائيل ويوفر لهم الخدمات».

طوال سنوات الصراع العنيف غيرت حركة الأشخاص الذين هربوا من الاجتياحات الإسرائيلية وقصفها للجنوب من التركيبة الطائفية للمنطقة حيث كان الموارنة، فى السابق، يشكلون غالبية السكان هناك وكان الشيعة أقلية لكن الشيعة أصبحوا يشكلون الغالبية بنهاية التسعينيات. أدت عوامل عديدة إلى وجود لاعبين متعددين فى الحياة السياسية اللبنانية. من بين تلك العوامل: عدم المساواة الاجتماعية والسياسية؛ الصراعات الدينية الطائفية؛ الالتباس حول الأسلوب الذى ينبغى أن تدار به الدولة، وحول سبل عمل الأقليات المختلفة؛ ما ينبغى أن يحدد إتاحة مؤسسات الدولة ومواردها، وكيف ينبغى تجميع وظائف

الدولة المختلفة ومحاصصتها. لدى بداية الحرب الأهلية كان اللاعبون الرئيسيون هم الموارنة والفلسطينيين. واليوم أضحى اللاعبون الرئيسيون هم الشيعة والموارنة والسنة، وانزوى الفلسطينيون. كان الشيعة هم أكثر الفقراء فقرا، وكانوا فى غالبيتهم أُميين. لكنهم أصبحوا الآن متعلمين يشاركون فى شئون مجتمعهم وحياة البلد السياسية. تقول چين سعيد مقدسى، الكاتبة الفلسطينية:

«ترقّت المناطق والأحياء الفقيرة. أهل تلك المناطق ليسوا أثرياء، لكنهم أفضل حالا بكثير مما كانوا عليه فى السبعينيات والثمانينيات. ويعد حزب الله هو المسئول عن هذا التغيير ببنائه الطرق والمدارس والمستشفيات. ولأول مرة فى تاريخ لبنان يبلى الشيعة بلاء حسنا من حيث التعليم والإسكان والصحة وتوفير العمل. أصبحوا مرئيين. يماثل هذا الأيام التى كانت فيها منظمة التحرير نشطة فى لبنان وكان كثير من الفلسطينيين متعلمين، منهم الأطباء والمحامون والمهندسون وكانوا جزءا من نخبة المجتمع الفكرية والاجتماعية».

علاقة إيران بحزب الله:

منذ الخمسينيات وحتى ثورة ١٩٧٩ فى إيران، دعم الشاه وحكومته لبنان التى كان يهيمن عليها الموارنة الذين همشوا المسلمين والشيعة بخاصة. فى السبعينيات، كان عدد من النشطاء المعارضين للشاه، وبخاصة أعضاء حركة تحرير إيران يعيشون فى لبنان. كانت هذه العلاقة ذات دور حاسم فى تشكيل حزب الله. فى عام ١٩٨٢، قامت علاقة جديدة بين سوريا فى ظل حافظ الأسد وآية الله الخمينى فى إيران. كانت سوريا هى البلد العربى الوحيد الذى دعم إيران فى حربه مع العراق. كان هدف هذا التحالف (بين الأسد والخمينى) هو تقويض

هيمنة أمريكا على الشرق الأوسط. بعثت إيران بألف وخمسمائة من الحرس الثورى إلى سهل البقاع بتأييد من سوريا التى أتاحت لهم حدودها مباشرة. قدم الحرس الثورى التدريب والتنظيم والتمويل إلى حزب الله، واستخدم حافظ الأسد سيطرته على سهل البقاع للتعاطى مع الترتيبات السياسية. وطوال التسعينيات ترسخت العلاقات السورية الإيرانية وقويت، وازدادت قوة ورسوخا عام ٢٠٠٢، حينما تبنى چورچ دبليو. بوش مفهوم «محور الشر» واستمرت الولايات المتحدة فى عدائها لسوريا وإيران. وترسخت أيضا علاقات طهران ودمشق الاقتصادية والسياسية والثقافية، وقامت إيران ببناء مصافٍ للنفط والغاز فى سوريا، ومعا أقاما صناعة للسيارات (٨٠٪ إيرانية و٢٠٪ سورية) وبدأتا تتعاونان معا فى الشأن اللبنانى.

وخلافا عما يشاع عن أن حزب الله هو امتداد لإيران فإنه فى واقع الأمر تنظيم هجين استمد إلهامه من الثورة الإيرانية لكنه لبنانى مستقل. فى البداية، تلقى حزب الله التمويل من إيران لكن هذا التمويل تراجع منذ التسعينيات، ومنذ عام ٢٠٠٤، تراوح الدعم المالى الذى يتلقاه حزب الله من إيران بين ٦٠ مليون و٨٠ مليون دولار سنويا. يتلقى حزب الله تمويلات أكبر كثيرا كثيرا من الشيعة فى لبنان والكويت والسعودية ومن ملايين اللبنانيين الذين يعيشون بالخارج. إن مثال صلاح عز الدين المضارب الشيعى الذى كان يمول حزب الله لافت. فى ٢٠٠٩، أُعلِن إفلاسه نتيجة لاستثماراته فى سوق المال النيوليبرالى. باعد حزب الله نفسه عنه وقلل من شأن دعمه المالى له. ثمة كثير من أثرياء رجال ونساء الأعمال فى المنطقة، الذين يدعمون حزب الله مالياً كما كان يفعل صلاح عز الدين.

أدى الإلزام الديني والشعور بالاعتزاز بالشيعة إلى الإسهام في تمويل حزب الله من خلال أموال الأخماس والزكاة، وإقامة المناسبات لجمع التبرعات للمنظمات الخيرية المرتبطة بحزب الله. يقوم بهذه الأعمال مئات من المتطوعين بينهم أعداد كبيرة من النساء كجزء من الجهاد ضد الفقر من خلال توزيع الموارد. تشكل هذه التنظيمات وغيرها شبكة كلية متكاملة توفر الخدمات لأعداد كبيرة من المستخدمين ممن هم بحاجة إلى الخدمات الاجتماعية والاقتصادية علاوة على دعمها للمقاومة المسلحة.

من ثم، تلعب داعمات حزب الله من النساء دورا مهما لجمع التمويلات للمنظمة. ظلت الناشطات الحقوقيات في لبنان، وطوال عقود، يركزن كفاحهن على معارضة الطائفية بصفتها مصدر البطريركية وعدم المساواة بين الجنسين. يرين أن قوانين الأسرة، كقضية طائفية، استغلها الرجال من مختلف الطوائف الدينية. أيضا، اشتركن في لجان للأحياء السكنية للحفاظ على القانون والنظام وذلك لأن عقودا من الحرب والصراع قد دمرت النسيج الاجتماعي لمجتمعهن. في سياق ما قبل عام ١٩٧٠، كانت نساء الشيعة هن الأقل تنظيما سياسياً في البلد. بيد أنه، واكب زيادة التحجب بينهن زيادة في مشاركتهن في الحياة العامة. تعتبر السيدة فاطمة ابنة الرسول، والسيدة زينب، التي من خلال مشاركتها في الحرب ضد الأمويين ضمنت استمرارية المذهب الشيعي، تُعتبران نموذجا تقتدي به تلك النساء في مشاركتهن في الحياة السياسية الدينية والاجتماعية لجماعتهن. ويرين في زينب بخاصة رمزا للتراحم والالتزام والشجاعة ويقتدين بها في التبرع بوقتهن وجهدهن للمشاركة النشطة في رفاه مجموعاتهن حيث يلعب جمع التمويلات والتبرعات دورا مهما. بيد أنه، وبرغم إسهامهن المهم، لا تحتل النساء مناصب قيادية أو يشاركن في صنع القرارات بالمستويات السياسية العليا في حزب الله.

وإلى جانب جمع الأخماس والزكاة وإسهام النساء فى مراكمة التمويلات، فإن ثمة مؤسستين لهما دور مهم فى استقلال حزب الله المالى منذ عام ١٩٨٤؛ وهما مؤسسة القرض الحسن ومؤسسة وعد. القرض الحسن مشروع ائتمانى مصرفى مصغر يعطى القروض لمن هم بحاجة إليها. لديهم صندوق قروض بملايين الدولارات يموله الشيعة فى لبنان والمنطقة، وكما بينت لى Judith Harik فإن:

«القرض يُمنح لأى فرد يستحقه، ولكى تستحق القرض عليك إقناعهم بأنك ستستخدمه لتحسين حياتك. ظل النظام المصرفى اللبنانى، تاريخيا مرتبطا بالهويات الطائفية، يهيمن عليه السنة والدروز والموارنة. لم تكن للشيعة فرصة أبدا مثل غيرهم من الطوائف. ومنذ إنشاء مشروع القرض الحسن، مضى الشيعة يضعون أموالهم فى تلك المؤسسة.. بالطبع فإن أفراد الطوائف الأخرى مرحب بهم وبإمكانهم إيداع أموالهم هناك. أيضا يتم إيداع الممتلكات الثمينة مثل الذهب هناك، والنساء يودعن مصوغاتهن فى ذلك المصرف. أثناء قصف الجنوب، تمكن الشيعة من نقل أموالهم ومعادنهم الثمينة إلى مكان آمن».

أسهمت وعد أيضا بصفتها مؤسسة عقارية كبيرة، إلى حد كبير، فى استقلال حزب الله المالى، والازدهار النسبى لمؤيديه. بعد تدمير إسرائيل لمنطقة الجنوب اللبنانى، حصل حزب الله على تمويل من الدولة ومتبرعين آخرين لإعادة إنشاء ٢٣٠ مبنى مؤلفا من ٥٤٠٠ شقة، و٣٠٠٠ محل تجارى و٢٥٠٠ مأوى. فى هذا الصدد، تقول Judith Harik:

«عرض حزب الله على أصحاب الأراضى والبنايات إعادة إنشاء أملاكهم وتعميرها دونما مقابل من خلال مؤسسة جهاد البناء. اصطف الناس لكى يوقعوا العقود لأن هذا كان يعنى أن مساكنهم القديمة التى

تمرها الإسرائيليون سيعاد إنشاؤها أو إصلاحها وتجديدها وسيكون باستطاعتهم سكنى شقق حديثة البناء».

أتاح هذان المشروعان لحزب الله الاعتماد على موارده وقدراته الخاصة. أيضا، فقد أتاحت تلك المؤسسات لعدد كبير من الشيعة الذين لم يكن لديهم أموال، أو بنوك يتعاملون معها أو ملكيات عقارية الفرصة لتسهيل الحصول على كل هذا. أيضا، قوض التزام حزب الله بالوحدة الإسلامية والعروبة والقومية اللبنانية المزاعم القائلة بأنه تنظيم إيرانى يعمل بالوكالة. يقول البعض إن القيمين على الحزب يؤمنون بولاية الفقيه رغم أن الحزب يعمل وفقا للدستور اللبنانى ويؤمن بهذا المبدأ من منطلق دينى عقائدى ولا تتعارض علاقته بإيران مع هويته الوطنية اللبنانية. وفى هذا الصدد قال السيد حسن نصر الله إنه وكما لا يتعارض الارتباط بالمسيحية أو الشيوعية أو أى نظام عقائدى آخر مع هوية الفرد اللبنانية فإن علاقة حزب الله بإيران واعتقاده فى مبدأ ولاية الفقيه لا تتناقض مع هويته اللبنانية أو وطنيته.

وفيما كان كثير من الشيعة اللبنانيين من أتباع آية الله الخمينى حتى وفاته عام ١٩٨٩، كان آخرون من أتباع آية الله الخوى حتى وفاته عام ١٩٩٢، لكن فى السنوات الأخيرة اتبع غالبية الشيعة اللبنانيين [الراحل] آية الله فضل الله أو السيستانى. ظل فضل الله (وحتى وفاته مؤخراً) أحد نواب الخوى فى لبنان منذ عام ١٩٧٦، كما أنه أبرز المجتهدين فى لبنان اليوم وله صيت دولى وأتباع فى أنحاء العالم الشيعى. يتمتع فضل الله بشعبية كبيرة بين النساء وغير المسلمين لأنه يرى أنه بالإمكان تأويل المسائل الدينية، وبخاصة تلك المتعلقة بالجندر والعلوم بما يتوافق مع الزمان والمكان. وعلى الرغم من أن حزب الله، رسميا، يتبع الخامئنى

كزعيم روحى إلا أن لأفراده الحرية فى أن يتبعوا من يشاءون، وكثير من أعضاء الحزب يتبعون فضل الله أو السيستانى فى شئونهم الدينية وقد تحدى كلاهما مبدأ ولاية الفقيه من منطلق أن وجود مرجعية دينية وسياسية وحيدة، وهذا هو جوهر ولاية الفقيه، مستحيل حتى عودة الإمام الثانى عشر المختفى. وفى واقع الأمر، فقد أنكر كل من فضل الله و حزب الله وجود أية رابطة تنظيمية بينهما وترجع شعبية فضل الله إلى استقلاله المؤسسى عن أى تنظيم.

يساور كثيراً من اللبنانيين، بل وآخرين كثيرين فى المنطقة، القلق من أن حزب الله، حينما يمسك بالسلطة، سيسعى إلى إقامة دولة إسلامية على غرار الدولة الإيرانية. وبناء على هذه المزاعم، رد حزب الله بأنه يعتقد فى وجود هوية إسلامية تتخطى الارتباطات القومية، وفى هذا السياق فلا يمكن إقامة دولة إسلامية فى لبنان دون تأييد ذلك من غالبية الشعب.

وبما أن اللبنانيين يتشكلون من طوائف عدة، فإن مثل هذا التأييد غير وارد. قضى فضل الله وقتا طويلا، وبذل جهدا شاقا طوال سنين عديدة، لتعزيز التفاهم والتعاون الإسلامى المسيحى كأسلوب لتوسيع مساحة العمل الإسلامى فى لبنان بدلا من اقتناص المسلمين للفرص أو استيلائهم على السلطة. يعتقد أنه لا يمكن فرض الأسلمة على الطائفة المسيحية كبيرة العدد أو على المجموعات العلمانية التى لابد وأن ترفضها، من ثم، لا ينبغى فرض أسلمة المجتمع والدولة على طوائف لبنان وجماعاتها المتنوعة الدينامية.

وفى هذا السياق، فإن العلاقة الدينية/ السياسية بين حزب الله و إيران، و التقسيم الشيعى/ السنى المذهبى قضية تتأثر بها مدركات الناس عن حزب الله وإيران. يرى الكثيرون إيران بصفتها بلداً إسلاميا محافظاً وفى الواقع، فإن هذه النظرة قد تؤثر فى دور حزب الله بلبنان.

لا تعرف شعوب المنطقة الكثير عن واقع إيران، حيث إن العرب يتحدثون العربية ويتحدث الإيرانيون الفارسية، ومن ثم، لا يوجد سوى القليل من الاتصال بين الطرفين، بيد أن مواقف إسرائيل والولايات المتحدة وممارساتهما في المنطقة تقرّب بين الطرفين وباستطاعة مثقفيهما التواصل من خلال الإنجليزية. وفقا للأونروا، ثمة ٤٠٠٠٠٠ لاجئ فلسطيني يعيشون في لبنان، ومنذ عام ١٩٤٨، أُجبر مئات الآلاف من الفلسطينيين على مغادرة وطنهم والالتجاء إلى لبنان حيث يعيشون في فقر وبؤس في المناطق الجنوبية وسط الشيعة. وعلى الرغم من أنهم واجهوا التحيز من بعض المجموعات الشيعية في الماضي، إلا أن المجموعتين لقيتا كثيرا من المعاناة نتيجة لعدائهما لإسرائيل وإهمال الدولة اللبنانية الكامل لهما. من ثم، عمل مصيرهما المشترك على التقريب بينهما رغم اختلافهما المذهبي. يؤيد الكثيرون من اللاجئين الفلسطينيين في لبنان إيران بصفتها قوة تتصدى لسياسة الصراعات والحروب الأمريكية، ومشروعها لإقامة «الشرق الأوسط الكبير أو الجديد». بيد أن الكثيرين ينتابهم أيضا القلق من دور إيران في لبنان. أوضح ساري حنفي ذلك بالقول:

«يؤيد الكثيرون إيران، لكنهم يدركون تعقيدات دور إيران بالمنطقة وينقدون دورها في العراق ثمة مخاوف من جانب السنة أيضا من انتشار المذهب الشيعي في المنطقة. ينضوي الموقف على تناقض أيضا؛ ففيما يؤيد الكثيرون موقف إيران من القضية الفلسطينية، إلا أنهم لا يحبون لها أن تتخطى الخطوط الحمراء بحيث تُضعف المذهب السني والثقافة السنية. ويخشى البعض من مسألة الحجاب وقضايا الجندر المحافظة».

في السنوات الأخيرة، وبخاصة منذ اغتيال الحريري، مضى بعض الإعلام اللبناني في محاولات لإثارة المشاعر المعادية لإيران وحزب الله.

إلا أن، محمود، أحد الناشطين الفلسطينيين فى بيروت، يرى أن الفلسطينيين فى لبنان يتماهون مع إيران من منطلقات سياسية لا مذهبية:

«بالنسبة لهم فإن إيران هى الدولة الوحيدة التى تتصدى لإسرائيل وجرائمها ضد الفلسطينيين. حينما يرون أن إيران تساعد فى إعادة بناء كباريهم وطرقهم ومنتزهاتهم بعد أعمال القصف الإسرائيلية فإن ذلك يولد لديهم المشاعر الطيبة تجاه إيران. يشعرون أن الحركة القومية الفلسطينية والعربية قد تراجعت نسبيا. لقد تم نسيان اللاجئين الفلسطينيين فى محادثات ما يسمى بعملية السلام، أسقطوا تماما، وغدت إيران هى الدولة الوحيدة التى تهتم بقضية الفلسطينيين كشعب مقموع. تختلف آراء الناس حول ما إن كان لإيران أجندتها الخاصة بها وما إن كان موقفها مناصرا حقا للفلسطينيين. يقال إن لإيران أجندتها ولحزب الله أجندته وإن الجميع يمارسون لعبة الشطرنج. إن الشرق الأوسط أرض تدار عليها المعارك. تقوى إيران موقعها من خلال نصرتها للفلسطينيين. وتقوى أمريكا وضعها فى المنطقة بدعمها إسرائيل. ليس لدينا خيار وعلينا الانحياز لأحد الأطراف».

حروب إسرائيل فى لبنان تقوى وضع إيران:

على الرغم من حقيقة أن الانقسام السنى الشيعى هو حقيقة تاريخية وثقافية، وعلى الرغم من تضخيم الإعلام له، إلا أن حرب إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦ قاربت بين المجموعتين وبين إيران بدرجة أكبر، كان مقاتلو حزب الله قد اختطفوا جنديين إسرائيليين ليبادلوهما بأسرى حزب الله لدى إسرائيل. بادرت إسرائيل بشن حرب شاملة على لبنان وقصفت المطار الدولى وطريق بيروت/ دمشق السريع، ثم واصلت تدميرها للجنوب اللبنانى وأنزلت بالسكان مستوى صادماً من المعاناة.

كانت إدارة بوش وحلفاؤها الأوروبيون، وبعد سياساتهم الكارثية فى أفغانستان والعراق، قد أملوا أن انتصار إسرائيل سيؤدى إلى قيام «الشرق الأوسط الجديد». ولهذا السبب، رفضت الولايات المتحدة وأوربا النداءات المتكررة لوقف إطلاق النار وذلك ليمنحوا إسرائيل الوقت الكافى لمعاقبة حزب الله [والقضاء عليه وعلى سلاحه]، ومعاقبة سوريا وإيران بشكل غير مباشر. لا غرو إذن أن اعتقدت غالبية شعوب المنطقة والداخل اللبنانى أن الولايات المتحدة مسئولة عن سياسة إسرائيل للعقاب الجماعى وجرائم الحرب التى ارتكبتها ضد الشعب اللبنانى. وعلى الرغم من أن مجلس الأمن أكد على عدم شرعية الحرب إلا أنه بتأجيله صدور قرار وقف إطلاق النار لمدة اثنين وثلاثين يوما فقد ضحى بالشعب اللبنانى فى سبيل مصالح الولايات المتحدة وإسرائيل. أدت مقاومة حزب الله لأعمال العنف الإسرائيلية إلى زيادة شعبيته فى المنطقة وتخطت الانقسامات المذهبية. يرى محمد، وهو ناشط فلسطينى آخر التقيته فى بيروت أنه:

«أثناء حرب ٢٠٠٦ دعم فلسطينيون كثيرون حزب الله وساعدوا الشيعة الذين تعرضوا للهجمات. فتحوا بيوتهم للشيعة النازحين. لدى جيران مدقعو الفقر يملكون ثلاث حاشيات (مراتب) احتفظوا باثنتين منها وأعطوا الثالثة للنازحين الشيعة. قبل ٢٠٠٦، لم يحدث وأن دخل شيعة كثيرون إلى مخيمات اللاجئين، لكن الآن فإن ثمة صداقة بين المجموعتين. لم تكن الطوائف المسيحية تريد الفلسطينيين فى لبنان، أما الآن فأصبحوا يدركون تماما سبب وجود الفلسطينيين هناك، وسبب عدم استطاعتهم العودة إلى وطنهم. يدركون الآن أن عليهم دعم الفلسطينيين حتى يقاتلوا لاسترداد حقوقهم. وبأسلوب غريب، فقد أدت حرب ٢٠٠٦ إلى التقارب والتآلف بين المجموعات المختلفة، إذ يشعرون أنهم جميعا

وسط النيران، لكنهم بتآلفهم يستطيعون الخروج منها».

اكتسب المثل العربى القديم «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب» شعبية كبيرة أثناء حرب ٢٠٠٦، أى أنه رغم اختلافهم فإن السنة والشيعة جميعهم معادون إسرائيل. بالطبع، فإن ثمة معارضة قوية فى جميع المناطق لحزب الله من مجموعات سنية ومسيحية وشيعية. لكن هذا العداء لحزب الله يقوم على أساس طبقى وطائفى، إلا أن شعبيته بصفته القوة الوحيدة التى تتصدى لإسرائيل، وأيضا بسبب توفيره الموارد للأهالى، توضح أنه رغم تنوع المجتمع اللبنانى وانقساماته إلا أن باستطاعته أن يتوحد ضد العدو المشترك. يدعم هذا رأى مقدسى القائل بأن الثقافة الطائفية التى لها جذورها فى الكلونيالية الغربية بنية مصطنعة ومن ثم يمكن هدمها وإحلال الدولة والمجتمع المستقلَّيْن محلها.

ومرة أخرى استهدفت إسرائيل فى تلك الحرب المدنيين والبنى الأساسية (الطرق، المطارات، الموانئ، الكبارى، المنازل، المصانع، المزارع، المياه والكهرباء، والغاز ومنشآت الصرف الصحى). قدرت الأضرار بمبلغ ٣,٨ مليار دولار، كما بلغ عدد المقتلعين والنازحين حوالى مليون شخص أى قرابة ربع العدد الكلى لسكان لبنان. تتذكر فاطمة إحدى الفتيات التى أجريتُ حوارا معها فى بيروت، اليوم الذى هاجمتهم فيه إسرائيل:

«فى اليوم الذى بدأت فيه الهجمات كنا نعد لحفلة زفاف. أخذنا أطفالنا وغادرنا منازلنا وهرولنا باتجاه الشرق، كنا ننظر خلفنا ونُبصر القنابل تتساقط على منازلنا. جرينا باتجاه البحر حيث يعيش المسيحيون. ساعدونا وقدموا لنا الطعام والمأوى. بعد أيام، حينما عدنا إلى حينا لم نجد أثرا لمنازلنا. لم يسمح لنا بالاقتراب من منزلنا لأن صاروخا قد سقط فى وسطه. ظللنا بدون مسكن لمدة ستة أشهر. ثم أعادوا بناء منزلنا لكنهم لم يستطيعوا إزاحة الصاروخ خوفا أن ينفجر

ويدمر جزءا كبيرا من ضاحية بيروت الجنوبية. بنوا حوله سدا من الإسمنت بحيث لا يحدث ضررا كبيرا حال انفجاره. عدنا الآن إلى منزلنا، لكن ثمة صاروخ كبير فى وسطه ونأمل ألا ينفجر».

كان هدف إسرائيل تدمير حزب الله، لكن عملياتها أدت إلى عكس ما توقعته إسرائيل والولايات المتحدة تماما: خرج حزب الله من الحرب أكثر قوة. برهنت منظمات الإغاثة الدولية والدولة اللبنانية على عدم فاعليتها، من ثم ظهرت إيران وسوريا كداعمين وحيدين لضحايا تلك الحرب[١]. حالما انتهت الحرب، بدأ حزب الله جهود إعادة الإعمار من خلال مؤسسة جهاد البناء للإنشاءات وبمساعدة مئات المتطوعين من المعماريين والمهندسين. ساعدت إيران فى إعادة بناء الطرق السريعة وأمدت الأحياء الفقيرة ببعض المرافق. بيد أن أكثر المساعدات المالية أتت إلى حزب الله ومازالت تأتيه من داعميه فى المنطقة بمن فيهم كثير من المغتربين اللبنانيين من أفراد الطبقة الوسطى.

وصفت لى الأكاديمية لاله خليل كيف أن أدوار حزب الله، التى يؤديها بالتوازى مع بعضها، شديدة الفاعلية:

«من جهة، فإن حزب الله تنظيم عسكرى ينظم نفسه كآلية دفاع ضد إسرائيل. وهذا جزء مهم من هويته كحركة مقاومة. ومن ناحية أخرى، فإنه، وكقوة تقليدية، يقوم بتعبئة أهالى منطقته وحشد قواهم. فى الأيام الأولى لحرب ٢٠٠٦، قاتل الأهالى العاديون القوات الإسرائيلية أكثر مما قاتلها جنود حرب العصابات. هؤلاء الأهالى منظَّمون لأقصى الدرجات وتقنيون قادرون على تنظيم المجتمع».

بعيد الحرب مباشرة، قام حزب الله بمساعدة إيران بإعادة بناء القرى والكبارى التى دمرها الإسرائيليون تقول منى حرب:

(١) تغفل الكاتبة مساهمة دولة قطر الكبيرة فى دعم الضحايا. (الترجمة)

«استعار حزب الله أساليب إدارة المدن وتخطيطها من إيران. كان تخطيط المدن وبناؤها سابقا يتبع النموذج الأوروبى، حيث كان رؤساء المدن يذهبون إلى أوربا ويستعيرون نماذجهم، أما الآن فتحاكى المدن فى لبنان نظيرتها فى إيران. أصبحت ثقافة بناء المدن على غرار النموذج الإيرانى ذات شعبية فى لبنان. ثمة لافتات فى الجنوب تشكر إيران على مساعدتها».

يدعم اللبنانيون حزب الله وإيران من منطلقات سياسية لا دينية. ينظر الناس إلى كم معاناتهم لسنوات عديدة نتيجة لهجمات إسرائيل التى يدعمها الغرب، فيما تدعم الأنظمة العربية الغرب أو تتخذ موقف المتفرج ولا يساندهم سوى حزب الله وإيران. وفى هذا السياق، صعد حزب الله كلاعب سياسى وعسكرى قوى، له روابط مع إيران. يرى ملايين الناس فى أنحاء المنطقة أن حكومات الأردن والسعودية ومصر بشجبها لحزب الله وإدانتها له أثناء الحرب قد خانت الشعب اللبنانى.

فيما بين ديسمبر ٢٠٠٦ ومايو ٢٠٠٨، حول أنصار حزب الله وحركة أمل والجنرال عون [وقوى المعارضة الأخرى] ميدان الشهداء بوسط بيروت إلى مدينة خيام اعتصموا بها مطالبين باستقالة الحكومة. لم تُجر الانتخابات الرئاسية فى موعدها عام ٢٠٠٧؛ واستقال وزراء الحكومة الشيعة، ولم يدعُ نبيه برى رئيس المجلس التشريعى البرلمان إلى الاجتماع. ونتيجة لذلك، لم تستطع الحكومة إصدار أية قرارات وتحولت إلى حكومة تصريف أعمال. فاقمت الأزمة السياسية الأزمة الاقتصادية. فى يناير ٢٠٠٧، دعت المعارضة إلى إضراب عام وطالبت بزيادة الأجور وتخفيض الأسعار وتحسين إمدادات المياه والكهرباء، إذ إن أكثر من ثلث السكان يعيشون تحت مستوى خط الفقر الرسمى. فى ١ مايو ٢٠٠٨، اندلعت المظاهرات التى نظمتها الاتحادات التجارية والعمّالية فى أنحاء

لبنان. كانت الاتحادات التجارية والعمالية قوية فى السبعينيات لكنها أُضعفت فى الثمانينيات نتيجة لسياسات الحكومة النيوليبرالية. تلك الاتحادات مستقلة عن جميع الجماعات الدينية. وعلى الرغم من أن حزب الله لم يبد معارضة لتلك السياسات النيوليبرالية إلا أنه يحظى بدعم شرائح السكان الفقيرة الناشطين فى تلك الاتحادات.

فى ٦ مايو، أعلنت الحكومة أن شبكة اتصالات حزب الله الداخلية غير قانونية وتعتبر تعديا على سيادة الدولة. يعمل نظام شبكة الاتصالات تلك على تنسيق المقاومة المسلحة فى مواجهة أى اجتياح إسرائيلى محتمل. هددت الحكومة بعرض القضية على مجلس الجامعة العربية والأمم المتحدة. أيضا، طالبت السلطات باستقالة وفيق شقير، وهو جنرال شيعى مسئول عن أمن مطار بيروت. عبر وليد جنبلاط، الذى كان مؤيدا للحكومة آنذاك، وزعيم الطائفة الدرزية، للإعلام عن مشاعر معادية لحزب الله ولإيران. وفى مواجهة كل هذا، سيطر مسلحون من حركة أمل، وحزب الله، والحركة الوطنية الحرة والحزب السورى القومى على ضاحية بيروت الغربية ذات الغالبية السنية. عطلوا الإعلام الموالى للحكومة وسدوا الطريق إلى المطار. نجم عن ذلك مواجهات مسلحة بينهم وبين ميلشيات تيار المستقبل التابع لسعد الحريرى.

وفى مؤتمر صحفى فى ذاك اليوم ألقى حسن نصر الله بالمسئولية على إسرائيل والولايات المتحدة لمحاولة خلق حرب أهلية جديدة فى لبنان بتصويرهم تلك التوترات على أنها توترات بين الشيعة والسنة. أكد على أن حزب الله يحاول تحاشى الانقسامات الطائفية لكنه لن يسلم سلاحه ولن يستخدمه ضد الشعب اللبنانى، لكنه سيستخدمه دفاعا عن نفسه. قال إن الإعلام الكوكبى يحاول شيطنة حزب الله بصفته مرتبطا بإيران لكنهم لا يذكرون أبدا الاعتداءات الإسرائيلية. أنفقوا، وعلى مدى عامين مئات ملايين الدولارات لتشويه صورة حزب الله لكنهم لم ينجحوا.

أضاف أن حزب الله دائما ما قال إن ثمة مشكلة سياسية في لبنان ويجب حلها سياسياً عن طريق الحوار والاستفتاء. قال إن إسرائيل حاولت في حرب ٢٠٠٦ تدمير شبكة اتصالات حزب الله ونزع سلاحه، لكنها لم تنجح، والآن تحاول الحكومة إكمال المهمة التي عجزت عنها إسرائيل.

وأكد أن الحزب لن يسمح للحكومة بنزع سلاحه أو تفكيك شبكة اتصالاته الداخلية، وأنهم يرفضون قرار مجلس الأمن الذي يقضي بنزع سلاحه وأن ذلك هو المجلس نفسه الذي فشل، وعلى مدى السنين، في وقف العدوان الإسرائيلي المتكرر أو إدانته. وجد خطاب نصر الله أصداء إيجابية في أنحاء العالم العربي وتماهت الغالبية مع أطروحاته. يعلم نصر الله مدى شعبية الحزب في المنطقة، وفي خطابه، ركز على عدوان إسرائيل الذي لا يتوقف وسعى إلى كسب دعم الغالبية العربية في تصديه لإسرائيل بأن أكد أن العدو هو إسرائيل بالنسبة للشيعة والسنة معا.

استمرت التصادمات بضعة أيام في مختلف المناطق اللبنانية ونجم عنها ٨٠ قتيلا و٢٥٠ مصاب. لم يتدخل الجيش مباشرة [إذ إنه يمثل الوحدة الوطنية] حيث إن ثلث أفراده من الشيعة، ولدى عدد كبير من ضباطه روابط مع أعوان الجنرال عون. وفي واقع الأمر، فإن غالبية الجيش من الرتب المنخفضة، سواء كانوا شيعة أم سنة، هم من مؤيدي حزب الله. وفي ١٨ مايو، توسط أمير قطر وجامعة الدول العربية بين الحكومة والمعارضة في الدوحة، وأنهوا بذلك ثمانية عشر شهرا من الطريق المسدود الذي كانت الأمور قد وصلت إليه. أُجبرت الحكومة على عمل التنازلات من بينها إصلاح القانون الانتخابي بحيث يعكس، واقعيا، التوازن الطائفي في البلد. بالطبع، يرى كثيرون أن إصلاح القانون

الانتخابى وحده لا يمكن أن يوفر حلا حقيقيا للنظام الطائفى الذى يُدخل البلاد، من حين لآخر، فى أزمات سياسية. وافقت الأطراف المعنية على الدخول فى حوار لتعزيز سلطة الدولة و تحديد العلاقة بينها وبين حزب الله. رحبت إيران وسوريا بالاتفاق، ورأته السعودية والولايات المتحدة خطوة إيجابية ضرورية. وفى ٢٠٠٨، أصبح ميشيل سليمان، القائد المستقل السابق للجيش اللبنانى رئيسا للجمهورية، واحتفظ نبيه برى وفؤاد السنيورة بمنصبيهما فى رئاسة مجلس النواب ورئاسة الوزراء على التوالى.

وفى هذا الصراع، كما فى الحالات السابقة، أخطأت الحكومة اللبنانية التى تدعمها الولايات المتحدة وحلفاؤها فى المنطقة، تقدير شعبية حزب الله وحلفائه من حركة أمل وقطاعات من الطائفة المسيحية بزعامة الجنرال عون. وفى واقع الأمر، انتهى هذا الصراع بهزيمة كبرى لمخطط واشنطون وإسرائيل. وعلى الرغم من دعم الغرب والسعودية ومصر للحكومة اللبنانية فى مواجهة المعارضة، وبخاصة بسبب العلاقات الوثيقة بين السعودية والحريرى، فقد أرسل أوباما مبعوثه چورچ ميتشل إلى المنطقة فى مهمة لإجراء مفاوضات سلام بين العرب وإسرائيل. وفى مارس ٢٠٠٩، ذكرت بريطانيا أنها تميز بين جناحى حزب الله السياسى والعسكرى وأعلنت استعدادها لإجراء حوار سياسى مع التنظيم. وكما ذكرت ريما علاّف، المتخصصة فى شئون الشرق الأوسط بتشاتام هاوس، المعهد الملكى للعلاقات الدولية بلندن، فليس باستطاعة الولايات المتحدة وبريطانيا تجاهل حزب الله الذى يمثل جزءا مهما من سكان لبنان.

فى يونيو ٢٠٠٩، فاز تحالف ١٤ آذار الحاكم بواحد وسبعين مقعدا من مقاعد البرلمان البالغ عددها ١٢٨ مقعد، فيما فاز تحالف ٨ آذار بسبعة وخمسين مقعداً. وعلى الرغم من خسارته. فقد فاز تحالف ٨ آذار

بمعدل ٥٥٪ من مجموع أصوات الناخبين، ودافع الجنرال عون عن تحالفه مع حزب الله بقوله إنه يساعد على استقرار لبنان وأن إسرائيل تمثل التهديد الرئيسى للبنان. ترى لاله خليلى أنه لو أن الانتخابات اللبنانية أجريت على أساس نظام صوت انتخابى لكل فرد لفاز تحالف ٨ آذار:

«لقد فازوا بنسبة ٥٥٪ من مجموع الأصوات. لكن النظام الانتخابى يقوم على أساس محاصصة أصوات المناطق على غرار الجمعيات أو الهيئات الناخبة التى تصوت لانتخاب رئيس الولايات المتحدة. يعنى هذا أنهم على الرغم من فوزهم بنسبة ٥٥٪ من مجموع الأصوات الفردية فلم يحصلوا على نسبة كافية من خلال نظام الدوائر الانتخابية كى يكون لهم غالبية برلمانية. بيد أنهم سيكونون أكثر فاعلية كقوة معارضة. لو أنهم فازوا لتحملوا مسئولية فساد النظام اللبنانى وطوائفيته مثلما تحملت حماس مسئولية فساد سلطة الحكم الفلسطينية».

وفيما أنه كان باستطاعة أعضاء البرلمان الواحد وسبعين من تحالف الحريرى تعيينه رئيسا للوزراء، إلا أنه مد يده لحزب الله والمعارضة فى تحالف ٨ آذار من أجل تشكيل حكومة وحدة وطنية. أيضا، قام حليفه وليد جنبلاط بتغيير موقفه وأعلن أنه ينبغى ضم حزب الله إلى الحكومة. فى أكتوبر ٢٠٠٩، رأى آية الله فضل الله أن لبنان و صلت إلى نقطة أصبحت معها على استعداد لتلقى أى أنباء من الولايات المتحدة عن السلام فى المنطقة. وفى نفس الوقت، دعا نصر الله إلى التقارب بين السعودية وإيران من أجل تجسير الانقسام الشيعى/ السنى وذلك لإطفاء نيران المذهبية والطوائفية.

أما من حيث العلاقات بين إيران وحزب الله، فتقدم المؤسسة السياسية الإيرانية مستويات مختلفة من الدعم للحزب. منذ ثورة ١٩٧٩،

تمتع حزب الله بعلاقات وثيقة مع قوات الأمن في إيران، واستمرت هذه العلاقات طوال فترة حكومتي رافسنجاني وخاتمي الإصلاحيتين، وحكومة أحمدي نجاد المحافظة. يتميز نصر الله بحنكته السياسية ويدرك أن حزب الله بحاجة إلى دعم إيران سواء كان المحافظون أو الإصلاحيون هم من يمسكون بمقاليد الأمور. قام بتهنئة أحمدي نجاد عام ٢٠٠٩ حينما أُعلن فوزه في الانتخابات، لكن حالما عُرِف أنه ثمة شك في صحة تلك النتائج أعلن أنه، بغض النظر عمن يفوز في الانتخابات، ستظل علاقات حزب الله بإيران وثيقة.

لتحالف الغرب والولايات المتحدة مع الأنظمة العربية المحافظة أهمية كبرى، وبخاصة بالنسبة للمصالح الأمريكية في المنطقة. بيد أنه قد يُنظر إلى تحسن العلاقات بين إيران وحماس وحزب الله باهتمام متزايد. لقد تغيرت طبيعة الإسلام السياسي في إيران، ولدى حزب الله في لبنان وحماس في فلسطين والإخوان المسلمين بمصر. ووفقا لأطروحتي في هذا الكتاب، فإن ثمة مؤشرات واضحة على أن الحداثيين الإسلاميين في إيران وفي أنحاء المنطقة على استعداد لتشكيل سياساتهم وفقا للسياسات الكوكبية، ولو حدث مثل هذا التغيير في سياسة الولايات المتحدة الخارجية فسيكون له أثره على الشرق الأوسط في مختلف الظروف والأحوال.



-5-

العلاقة بين إيران والعراق

قبل قيام الإمبراطورية العربية الإسلامية وبعدها، تعرضت العراق لسلسلة من الغزوات. اختفت المدن عصر الأوسطية وحلت محلها مدن كثيرة، وقُمعت القبائل القديمة وازدهرت أخرى جديدة. كان الآراميون يعيشون فى سوريا وفى أجزاء من مناطق «بين الرافدين» منذ القرن الحادى عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وهاجر العرب إلى العراق فى العصور القديمة المتأخرة (٥٠٠ قبل الميلاد). لدى الفتح العربى، كان سكان العراق منوّعين إثنيا. ومع صعود الإمبراطورية الساسانية الإيرانية، آخر إمبراطورية إيرانية قبل الإسلام (٢٢٤- ٦٥١م) شهد العراق هجرات كبيرة إيرانية تشكلت من النخب الإيرانية ومعها قطاع صغير من صغار الفلاحين. وبحلول عام ٦٤٤م، كانت الإمبراطورية العربية تتشكل، فيما تم فتح جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، وجزء من الإمبراطورية الساسانية وإقليمى سوريا ومصر من الإمبراطورية البيزنطية. أدى الفتح العربى إلى أسلمة سكان العراق وتعريبهم واستيعاب سكانها العرب والإيرانيين.

وكما أوضحنا فى الفصل الثالث، فمنذ حكم الصفويين (١٥٠١-١٧٢٢) تماهى المذهب الشيعى والمؤسسة الشيعية مع إيران. وفيما بين عامى ١٦٢٣ و١٦٣٨، استولى الصفويون على مدينتى النجف وكربلاء المقدستين من العثمانيين. استمرت الطبيعة الشيعية للمدن الواقعة جنوبى بغداد طوال هيمنة الأتراك العثمانيين (١٥٣٤- ١٦٢٢؛ و١٦٣٨-١٩١٧) والمماليك الجراكسة (١٧٤٩- ١٨٣١)، لكن سياسة العثمانيين كانت تحابى العرب السنة فى تولى مناصب الدولة. أدى تحول إيران إلى المذهب الشيعى إلى صعود رجال الدين الشيعة الأقوياء فى إيران والعراق. نشط رجال الدين النافذون الذين كانوا قد انتقلوا من إيران إلى العراق فى الحياة السياسية والدينية للبلد فى ظل العثمانيين، وظلت تلك العلاقة التاريخية قائمة منذ وقتئذ. لكثير من العائلات الشيعية المرموقة

أصول عربية وإيرانية وسورية. تشمل الشخصيات الكبيرة ذات الأصول الإيرانية الحالية آية الله سيد محسن الحكيم الذى كان الزعيم الروحى للشيعة على مستوى الكوكب بين عامى ١٩٥٥ و١٩٧٠؛ وآية الله محمد باقر الصدر الذى أعدمه صدام حسين عام ١٩٨٠؛ وأبا القاسم الخوى وهو من كبار آيات الله الشيعة وتوفى عام ١٩٩٢، وآية الله على السيستانى فى يومنا هذا.

مدينة النجف العراقية هى من أقدس المواقع الشيعية، وكذلك مدينة قم الإيرانية حيث يوجد ضريح السيدة فاطمة المعصومة، وهذه المدن المقدسة مراكز للدراسات الشيعية ويقيم بها رجال الدين الشيعة كزعماء روحيين لطائفتهم، ويؤمها ملايين الزوار الشيعة من المنطقة وخارجها. حدث، فى فترات مختلفة، وأن كان ثمة تنافس بين مدينتى النجف وقم على القيادة

الكوكبية للشيعة، وكانت المرجعية الشيعية تنتقل من قم إلى النجف وبالعكس. فى الستينيات، كان آية الله بروجوردى هو المرجع الشيعى وكان يقيم فى قم، وبعد وفاته، انتقلت المرجعية إلى النجف الأمر الذى وجده الشاه فى صالحه إذ تمكن من إطلاق يديه فى شئون البلد دونما تدخل من رجال الدين وأدى ذلك إلى اكتساب النجف مزيدا من الأهمية. وفيما بعد، حظر صدام حسين على المرجعيات سكنى النجف مما قوى من وضع قم إذ انتقل كثير من رجال الدين العراقيين الشيعة إلى إيران. وبعد سقوط صدام، صعد نجم النجف مرة أخرى بصفتها مكان المرجعيات. وكما ذكرنا فى الفصل الثانى، فقد ازداد التقارب بين النجف وقم منذ ٢٠٠٣، وهما الآن مركزان للجدل الدائر حول ما إن كان ينبغى ترك شئون الحكم للحكومات، أم أنها من اختصاص رجال الدين.

من الواضح أن استمرار السمة الشيعية لبعض أجزاء العراق ترتبط جزئياً بوجود النجف وكربلاء، وأيضا بالعلاقات التاريخية والتجارية بين البلدين. فى القرن التاسع عشر، كان كثير من التجار فى بغداد إيرانيين وكثير من هؤلاء يهودا إيرانيين. وتاريخياً أيضا أبقى كثير من الشيعة الذين كانوا يسكنون جنوب العراق ووسطها على روابط اقتصادية وثقافية مع إيران فيما أبقى كثير من العرب السنة فى المناطق الوسطى والوسطى الشمالية على روابط اقتصادية وسياسية وثقافية مع العالم العربى. من الناحية الإثنية فإن غالبية شيعة العراق عرب باستثناء الشيعة الإيرانيين الذين يسكنون البصرة والنجف وكربلاء. بيد أنه من المهم أن نبين أنه على الرغم من غلبة السمات الشيعية فإن هذه المناطق تضم أقليات سنية.

وعلى الرغم من أن المناطق السنية ظلت هى وادى الفرات شرقى بغداد، ودجلة فيما بين بغداد والموصل فإن ثمة أقلية شيعية كبيرة تسكن

هذه المناطق. بعض المستوطنات التركمانية شيعية وبعضها سنية. يسكن الأكراد شمال العراق وشمالها الشرقى وهم من أهل السنة ويتمايزون عن السنة العرب؛ وأيضا ثمة أقلية كردية شيعية. تأثر الأكراد والشيعة العرب والسنة بالصوفية. هناك أيضا مجموعات غير مسلمة من اليهود والمسيحيين واليزيديين والصابئة تسكن مختلف المناطق الحضرية والريفية. وتاريخيا، فإن تلك الجماعات تمازجت في بعض المناطق أكثر من غيرها مما يوضح أن هويات الجماعات المختلفة لا تقوم فقط على أساس دينى. بيد أنه، وحتى سقوط صدام، هيمنت الأقلية السنية العربية على مؤسسات الدولة.

وعلى الرغم من أن الشيعة يشكلون غالبية سكان العراق لكنهم فى واقع الأمر يتكونون من جماعات متنوعة. وفى مختلف الحقب التاريخية، اعتنق بعضهم القومية العربية فيما اعتنق آخرون القومية الإيرانية، وأصبح بعضهم أعضاء فى حزب البعث فيما انضم البعض الآخر للحزب الشيوعى. لاذ بعضهم بالمناطق الشيعية وقاداتها، الذين هم فى غالبيتهم من أصول إيرانية، فى محاولة منهم للتغلب على إقصائهم الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى داخل المجتمع العراقى.

أدى اجتياح البريطانيين للعراق واحتلالهم لها ما بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨ إلى وحدة صفوف الشيعة والسنة الذين شكلوا حركة مقاومة ضد البريطانيين، وفيما بعد، لعبت مدينة النجف والعلماء الشيعة دورا مركزيا فى مقاومة البريطانيين والملك فيصل فى عام ١٩٢٤.

منذ العشرينيات صعودا، أثر التصنيع والتحضر فى البنية الطبقية والمعايير الثقافية. تفاعلت مختلف المجموعات الإثنية مع بعضها فى المناطق الحضرية فيما رأى الكثيرون التمايز الإثنى جزءا من سياسة «فرّق تسد» الاستعمارية. فى العشرينيات فى ظل الملكية، كان الخط

المذهبى الفاصل بين السنة والشيعة يقوم على أساس تمايز طبقى ولم يكن دينيا إذ إن العائلات المهيمنة اقتصاديا واجتماعيا كانت من السنة. كان مدرك المجموعات الشيعية للتهميش متنوعا يتراوح بين الاستغلال الطبقى والتقسيم الحضرى / الريفى والدينى/ العلمانى. كانت غالبية مظالم الشيعة ترتكز على عدم توازن الدولة العراقية، ومعدل تمثيل الشيعة السياسى المنخفض نسبيا، وإقصائهم اقتصاديا وقمعهم سياسيا. بيد أن صفوف الشيعة والسنة توحدت ضد تحكّم البريطانيين فى العراق.

فى الخمسينيات والستينيات، حدث تغير نسبى فى وضع الشيعة الاجتماعى/ الاقتصادى إذ بدأوا يراكمون الثروات ويحتلون مناصب عالية فى مؤسسات الدولة. أصبح التزاوج بين الشيعة والسنة شائعا. بيد أن الفقراء كانوا فى غالبيتهم من الشيعة، وبالنسبة لكثير من الشيعة كانت القومية العربية أيديولوجيا نخبوية تُقوّى من هيمنة السّنة. عمل إصلاح الأراضى فى نهاية الخمسينيات على إقصاء ملايين المزارعين الشيعة عن مزارعهم ورحلوا عنها ليستقروا جنوبى بغداد (مدينة الصدر) وعلى الحواف الشرقية والشمالية للعاصمة. لكن الشيعة منذ الأربعينيات وحتى الستينيات كان لهم مكان بارز فى الحزب الشيوعى ولعبوا دورا مهما فى مواجهة الانقلاب البعثى.

كان لعبدالكريم قاسم، الذى كان والده عربيا سنيا ووالدته كردية شيعية، رؤية إدماجية للعراق. أثناء رئاسته (١٩٥٨- ١٩٦٣) تمتع بعض الشيعة بدرجة نسبية من السلطة السياسية. أدى ظهور «حزب الدعوة الإسلامية» إلى مشاركة بعض السياسيين الشيعة فى الحياة السياسية. أيضا، فى هذه الفترة، ذهبت كتابات محمد باقر الصدر فى مجال

الفلسفة والاقتصاد إلى أن الآراء الشيعية حول العدالة الاجتماعية تتسق مع مفاهيم الماركسية والليبرالية الغربية، ولقيت آراؤه تلك شعبية كبيرة لدى غالبية الشيعة، كما شهدت الفترة ذاتها أيضا إحياء الأحزاب الكردية والشيعية رغم أن قاسم عمل على ألا يتحدى أى تنظيم أو جماعة الجيش أو سلطته. أيضا أتيح التعليم للنساء وحققن درجة من المساواة مع الرجال. قَيَّد قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩٥٩ تعدد الزوجات وتم تعيين نزيهة الدليمي في منصب وزيرة. وبعد الانقلاب على عبدالكريم قاسم، أدى صعود القومية العربية وحزب البعث إلى تهميش الجماعات الشيعية مرة أخرى. بيد أن عددا لا بأس به من الأقليات استمر فى اعتناقه القومية العربية وانضم الكثيرون منهم إلى حزب البعث الذى كانت سمته فى الستينيات هى الشراكة الحقيقية بين الشباب السنى والشيعى من أنصار القومية العربية، بيد أن هذه الشراكة تراجعت فى أواخر الستينيات.

وكما ذكرنا فى الفصل الأول، فى عام ١٩٦٣، عارض عدد من رجال الدين الشيعة إصلاحات الشاه التى كانت تقوض سلطتهم، وبعد سلسلة من التعبير عن الاستياء تم ترحيل آية الله الخمينى إلى العراق حيث أقام فى النجف مع غيره من رجال الدين الشيعة. ومن منفاه هناك، وجَّه النقد إلى رجال الدين لموقفهم السلبى من الصهيونية والاستعمار والاستكبار العالمى ودعا إلى الإطاحة بالشاه، وبذلك لعب دورا كبيرا فى ثورة ١٩٧٩ . فى عام ١٩٧٩، بدأت مجموعة من شباب الشيعة، باستلهامهم آية الله محمد باقر الصدر وآية الله الخمينى، يناضلون ضد حكومة البعث من خلال حزب الدعوة. اكتسبت هذه المجموعة شعبية فى السبعينيات والثمانينيات، لكن لدى تولى صدام حسين السلطة عام

١٩٧٩، حظر ذلك الحزب وطرد آلافا من الشيعة من النجف وكربلاء، ذهب بعضهم إلى لبنان وسوريا والأردن فيما استقرت غالبيتهم فى إيران. وفى إبريل ١٩٨٠، أعدم صدام محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى التى كانت عالمة إسلامية مؤثرة. حظر مراسم عاشوراء وطرد آلافا من العرب من ذوى الأصول الإيرانية واعتقل آلافا آخرين. أُرسل المنفيون منهم إلى إيران وتمت مصادرة أملاكهم.

الحرب مع إيران، اجتياح الكويت، العقوبات وسقوط صدام:

بدأت الحرب الإيرانية العراقية فى سبتمبر ١٩٨٠. اعتقد صدام أن الحرب ستكون قصيرة، ينتصر فيها العراقيون ويستعيدون سيادتهم على شط العرب كاملا، تلك المنطقة المتنازع عليها منذ عام ١٩٧٥، كما ستثبت الحرب قدرة العراق كقوة إقليمية على هزيمة الثورة الإيرانية. بيد أن هذه الحرب (١٩٨٠– ١٩٨٨) لم تُضعِف الثورة فى إيران. قُدِّر عدد قتلى تلك الحرب من العراقيين والإيرانيين بمليون ونصف المليون شخص، وقُدِّرت قيمة الدمار الذى ألحقته بالبلدين بـ ١,٢ مليار دولار. دعمت السعودية والكويت والأردن ومصر العراق سياسيا وماليا إذ رأوا فى هذه الحرب حرباً إيرانية/ وشيعية/ سنية. كان جيش صدام الكبير المؤلف من المجندين يتكون من الجنود الشيعة بشكل أساسى فيما كانت القيادات سنية فى غالبيتها، هذا على الرغم من أن عددا من الشيعة المؤيدين لحكم البعث كانوا يتولون مناصب سياسية وعسكرية عليا. ركزت حملة دعاية صدام القوية على الهوية العربية الإسلامية فى مواجهة الإيرانيين غير العرب وكان الهدف هو كسب شيعة العراق ليواجهوا الإيرانيين. بيد أن كتَّابا من أمثال سامى رمضانى يذهبون إلى أن الدولة العراقية لم تكن تقوم على أساس مذهبى أو طائفى، على الرغم من أن سياساتها أنتجت

تأثيرات طائفية. مثلا، كان محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام فى عهد صدام، من بين الشيعة الذين ترقوا واحتلوا مناصب مرموقة وكان هو من وصف الشيعة بأنهم عملاء لإيران وقام بتطهير حزب البعث من أعضائه الشيعة.

حاول صدام، طوال سنوات الحرب، من جهة أن يقلب سياسة تهميش الشيعة على المستويين الرمزى والمادى وذلك بتضمينهم فى المجلس الوطنى وزيادة الأموال المخصصة للحفاظ على مدينتى النجف وكربلاء، ومن جهة أخرى هاجم المجموعات الشيعية بضراوة وأجبرهم على الذهاب إلى المنفى(١). قدمت الحكومة العراقية حوافز مالية للمتزوجين من إيرانيات كى يطلقوهن، كما أخضعت رجال الدين الشيعة والمزارات والأضرحة والمساجد الشيعية لتحكم الحكومة، وجعلت من علماء الشيعة موظفين يتلقون رواتب من الدولة.

فى عام ١٩٨٢، أجبر محمد باقر الحكيم وشقيقه عبدالعزيز الحكيم (ابنا آية الله السيد محسن الحكيم) على الذهاب إلى المنفى فى إيران. قاما فى طهران وقم بتنظيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق وأقرا بمبدأ ولاية الفقيه الذى تبناه الخمينى. وأثناء الحرب الإيرانية العراقية، قام الحرس الثورى الإيرانى بتجنيد عدد من أسرى الحرب وتدريبهم للانضمام إلى فليق بدر والقتال ضد جيش صدام وبخاصة فى إقليم كردستان. ولهذا السبب استهدف صدام الشيعة الذين تورطوا كنشطاء سياسيين ذوى توجهات إيرانية وكثيرا من أعضاء المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق، وبخاصة أفراد عائلة الحكيم الذين

(١) من المنطقى القول إن تلك المجموعات التى هاجمها كانت هى المناوئة لنظام الحكم والموالية لإيران. (الترجمة)

سجنوا أو أعدموا. أيضا، هاجم صدام الأكراد بضراوة، ودمر مناطق كردية بأكملها وذلك لأن الحزب الكردى الديمقراطى واتحاد كردستان الوطنى تحالفوا مع إيران فى عامى ١٩٨٥- ١٩٨٦.

وعلى الرغم من بشاعات صدام ودعايته، لم تتماه الجماعات الشيعية العراقية مع الإيرانيين لأنهم كانوا يعتزون بهوياتهم القبلية والعشائرية والطبقية والحضرية والريفية والسياسية مثلما يعتزون بهوياتهم الشيعية. شعر كثيرون من الشيعة والسنة والأكراد أن التدخل الأجنبى خزىٌ وطنى وقومى. استشهد الكاتب والصحفى پاتريك كوكبيرن برأى جندى عراقى شيعى كتذكرة قوية بالطبيعة المهجنة لتشكيل وإعادة تشكيل الهوية. قال الجندى «فى البداية شعر كثير من الشيعة أن صدام ينبغى له قتال الإسرائيليين بدلا من قتال الشيعة المسلمين وقتلهم. بيد أن بعد ذلك حينما رأينا أصدقاءنا يقتلون ويصابون وجّهنا نيراننا لقتل الإيرانيين».

وعلى الرغم من الإقصاء والتمييز ضدهم، ظل الشيعة بعامة موالين لبلدهم. وفى الواقع، لم يطالب الشيعة أبدا بدولة شيعية مستقلة رغم نضالهم من أجل إنهاء التمييز ضدهم. بيد أن وحشية صدام استمرت. هاجم فى عام ١٩٩١ المدن والبلدان ذات الغالبية الشيعية وقُتِل عشرات الآلاف فى النجف وكربلاء والحلة ولم تكتشف مقابرهم الجماعية إلا بعد سقوط صدام. فبعد انتفاضة الشيعة فى ذاك العام، وضع صدام آية الله الخوى قيد الإقامة الجبرية وتم قتل عدد من أفراد أسرته ومرافقيه وسجن بعضهم، على الرغم من أنه كان قد دعا إلى إنهاء الانتفاضة[١].

---

(١) أنذاك، قام الشيعة بحركات احتجاجية وأعمال شغب كادت ترقى إلى ثورة على الحكومة وهذا فى الوقت الذى كان الأطلسى بقيادة الولايات المتحدة قد قام بفرض عقوبات قاسية على العراق وحصارها وتحديد منطقة يحظر فيها الطيران. كان للشيعة مظالمهم، لكن تشكيل مجلس أعلى للثورة الإسلامية العراقية وفيلق بدر كانا يُعدَّان بمثابة أفعال خيانة من وجهة نظر النظام القائم. كما أن الأطلسى لعب دورا كبيرا فى تأجيج «الانتفاضة» الشيعية فى الجنوب العراقى. (الترجمة)

شارك أنصار المجلس الأعلى للثورة الإسلامية العراقية وحزب الدعوة فى تلك الانتفاضة التلقائية وقام جيش صدام بقمعهم بضراوة، مات عشرات الآلاف أو التجأوا إلى إيران وفى حالات كثيرة تعرضت النساء للتعذيب والقتل بسبب قرابتهن لـ «أشخاص مطلوبين». وفى عام ١٩٩٤ وُضع آية الله السيستانى قيد الإقامة الجبرية، وفى عام ١٩٩٩ اغتيل آية الله صادق الصدر واعتقل أفراد أسرته ورفاقه المقربون.

اجتاح صدام الكويت عام ١٩٩٠ الأمر الذى أدى إلى فرض العقوبات على العراق من قبل مجلس الأمن الدولى. أدى هجومه على المجموعات الشيعية والكردية عام ١٩٩١ إلى مزيد من قرارات مجلس الأمن وخلق ما يسمى بـ «الملاذ الآمن» الذى كان يعنى واقعيا إقامة كيان كردى ذى استقلال ذاتى فى شمال العراق. نجم عن العقوبات أزمة إنسانية كان لها أثر كارثى على سكان البلد. فى عام ١٩٩٦، قدِّر عدد وفيات الأطفال بسبب تلك العقوبات بنصف مليون طفل، بما يفوق ضحايا هيروشيما من الأطفال، لكن وزيرة خارجية كلينتون، مادلين أولبرايت رأت أن ذلك ثمن يستحقه الهدف (من العقوبات). انخفضت ميزانية التعليم من ٥٠٠ مليون دولار قبل حرب الخليج عام ١٩٩١ إلى أقل من ١٠٪ من هذا الرقم وارتفع معدل الأمية من ٨٪ إلى ٤٥٪ بين عامى ١٩٨٥ و١٩٩٩، ونجم عن تدهور النظام التعليمى انخفاض المستويات التعليمية فى المدارس الثانوية والتعليم العالى. وطوال فترة العقوبات خضع الشعب العراقى لحملات قصف أدت إلى تدمير مصافى النفط ومنشآته وانبعاث آلاف الأطنان من الغازات والمواد السامة. أدى معدل وفيات الأطفال العالى وتدهور نظام الرعاية الصحية وسوء التغذية وانتشار الفقر إلى تدمير حياة ملايين العراقيين. هبطت معدلات عمل المرأة، والتى كانت الأعلى فى المنطقة، من ٢٣٪ قبل عام ١٩٩١ إلى ١٠٪ عام ١٩٩٧. أثر الفقر

وانهيار نظام الرعاية الاجتماعية والتبعات العمالية التى تمثلت فى صعود أيديولوجيا الجندر المحافظة بتزايد، أثّرت بخاصة فى وضع النساء فى المجتمع العراقى.

كان المقصود من برنامج النفط مقابل الغذاء الذى تم التوصل إليه بين الأمم المتحدة والحكومة العراقية تقليل معاناة الشعب العراقى. بيد أن هانس ڤون سپونك، مسئول الأمم المتحدة الأرفع مكانة والأكثر احتراما آنذاك، قدم استقالته احتجاجا على سياسات الولايات المتحدة ضد العراق وذهب إلى أن مجلس الأمن وحكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا تجاهلت العقبات فى سبيل ذلك البرنامج ومعها معاناة الشعب العراقى بالرغم من البراهين القاطعة على أن الشعب العراقى كان يدفع ثمن جرائم لم يرتكبها بل ارتكبها صدام حسين. توفر لنا تجربة هيفاء زنجانا الكاتبة والناشطة العراقية، تذكرة مؤسفة لتلك الملابسات البشعة. كتبت تقول:

«فى ٦ ديسمبر ١٩٩٥، أرسلت ظَرفاً مُبطنا مقاس A4 إلى أولاد وبنات أخى بالموصل. كان الظرف يحوى حقيبة أقلام رصاص، وثلاث مسّاحات، وثلاث برّايات، وستة أقلام حبر، وقلمين لوضع العلامات، وقضيبا للصمغ، وقلمين جافيْن. كتبتُ على الظرف «هدايا أطفال». أُعيد إلىّ الظرف وختم عليه «لم نستطع إرسال طردك إلى العنوان المذكور بسبب العقوبات المفروضة على العراق». أُخبرتُ أن علىّ الاتصال بوزارة التجارة والصناعة البريطانية لمزيد من المعلومات».

منذ الأشهر الأخيرة فى عام ١٩٩٨، أصبح «تغيير النظام» هو سياسة الولايات المتحدة الرسمية تجاه العراق. بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، خططت الولايات المتحدة وبريطانيا واستراليا وإيطاليا لغزو العراق وقاموا بقصف بغداد فى مارس ٢٠٠٣، ونفذوا ضربات جوية هائلة فى

أنحاء البلد. تم إلغاء برنامج النفط مقابل الغذاء ورفع العقوبات (جزئيا) حينما أزال قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ كثيرا من الالتباسات القانونية من طريق غزو العراق. في مايو ٢٠٠٣، بمقتضى ذلك القرار أصبحت الولايات المتحدة وبريطانيا هى القوات المحتلة واعترفت الأمم المتحدة بإقامة مجلس الحكم المؤقت.

التغييرات فى الموازين الشيعية/ السنية فى هيئات الدولة:

كان لسقوط صدام والنظام البعثى عام ٢٠٠٣ بداية تغيير موازين القوة السنية الشيعية. بيد أنه يجب النظر إلى ظهور القيادات الشيعية كقوة سياسية على أنه نتيجة ثلاثة عوامل مهمة. أولا، وكما الحال فى إيران ولبنان ومصر وفلسطين، عجزت القوى القومية والليبرالية واليسارية العلمانية عن تقديم البديل. ثانى هذه العوامل هو اضطهاد هذه التنظيمات السياسية المنهجى من قبل الدولة فى البلدان المتحالفة مع الغرب. العامل الثالث كان هو إقصاء الجماعات الشيعية سياسيا واقتصاديا منذ الإطاحة بعبدالكريم قاسم عام ١٩٦٣ وتولى حزب البعث.

فى مارس ٢٠٠٣، حينما سارت قوات الولايات المتحدة للاستيلاء على بغداد، طلب آية الله السيستانى من المجموعات الشيعية عدم المقاومة. وحينما دخلت القوات الأمريكية إلى مدينتى النجف وكربلاء لم تواجه بأية مقاومة. اختار السيستانى تعاونا مشروطا مع الولايات المتحدة لأنه رأى فى سقوط صدام تحولا سياسيا كبيرا فى صالح الشيعة. فهو يعتبر الإسلام جزءا جوهريا من تكوين الهوية القومية العراقية وبالنسبة له فإن الإسلام هو أحد مصادر المرجعية الشرعية ولا ينبغى استبعاده من الكيان القانونى العراقى. بيد أن نموذجه للحكومة يختلف عن الأنظمة الاستبدادية فى المنطقة وعن نظام الحكم فى إيران إذ إنه يدعو إلى حياة سياسية إسلامية ديمقراطية وإلى حكم إسلامى ديمقراطى لا حكم

حكم استبدادى. ومن هذا المنطلق فهو يرفض مبدأ ولاية الفقيه الذى تبناه الخمينى. يرى أن مسئولية «المرجع» هو الدفاع عن الجماعات الإسلامية والمسلمة وليس ممارسة السلطة المطلقة فى جميع شئون الدولة، ويدعو إلى قيام حكومة تخضع للمحاسبة على أساس حكم الغالبية وتمثل الهوية الشيعية. كما أن نهجه لإقامة الجسور بين مختلف الطوائف والجماعات على نفس القدر من الأهمية وهو موقف أكسبه دعم الغالبية فى المنطقة. تعترف به كثير من الجماعات الشيعية فى لبنان وسوريا وإيران. وكما جاء فى الفصل الثانى، يدعم موقف السيستانى فى إيران عدد من رجال الدين وبخاصة آية الله شريعتمدارى وآية الله منتظرى، وكما ذكرنا فى الفصل الرابع أيضا، فقد تصدى آية الله فضل الله الزعيم الروحى لحزب الله لمفهوم ولاية الفقيه. وتمثل ملايين الدولارات التى يتبرع بها الملايين فى المنطقة من أموال الأخماس والزكاة والأوقاف تصويتا على الثقة به.

وعلى الرغم من دعم السيستانى المشروط للاحتلال وسقوط صدام عام ٢٠٠٣، فقد أصدر فتوى ضد فكرة الأمريكيين التى كانت تقضى بأن يضع الدستور أشخاص عينتهم الولايات المتحدة ورأى بدلا من ذلك أنه ينبغى أن يضع الدستور أشخاص ينتخبهم الشعب العراقى. كما أصر على نظام «فرد واحد وصوت واحد». لقى ذلك قبولا من غالبية العراقيين، ولمدة خمسة أيام تظاهر العراقيون بأعداد كبيرة إلى أن قَبِل الأمريكيون اقتراحه. تناقش مع الإيرانيين ومع حزب الله من أجل إقناعهم أنه ينبغى عليه التعاطى مع الأمريكيين ببراجماتية كى يضمن حقوق الشيعة بدون تهميش أية طوائف أو جماعات أخرى. رأى كثير من العراقيين أن التنوع الشيعى/ السنى/ العربى/ الكردى ظل موجودا تاريخيا بالعراق، وبخاصة فى ظل حكم صدام. إلا أن «مأسسة»

الطائفية بما فى ذلك من كيانات الدولة المختلفة هى ظاهرة جديدة بدأت مع احتلال العراق عام ٢٠٠٣. ومنذ وقتئذ، ظل السيستانى يدعو المليشيات ورجال الدين الشيعة لاجتناب الحرب الأهلية ووصف الانتقام من السنة بسبب الهجمات على الجماعات الشيعية بأنها خطيئة كبرى. ومن هذا المنطلق، اكتسبت رسالته القومية شعبية لدى غالبية العراقيين من مختلف الطوائف والمذاهب والقوميات. أيضا، رأى أنه ينبغى انتخاب الحكومة الانتقالية بإشراف من الأمم المتحدة.

فى عام ٢٠٠٥، شجع السيستانى الجماعات الشيعية المختلفة على الانضمام إلى الائتلاف العراقى الموحد والمشاركة فى الانتخابات وفى عملية وضع الدستور كمرشحين وناخبين. اشترك ملايين الشيعة والأكراد فى الانتخابات (بمعدل ٥٨٪ ممن لهم حق الانتخابات). بيد أن العرب السنة قاطعوا الانتخابات إذ شعروا أنهم مهمشون وأن الائتلاف العراقى الموحد هو تنظيم طائفى يساهم فى تأجيج الصراع. كانت الانتخابات انتصارا للشيعة إذ فاز الائتلاف بـ ٤٨٪ من الأصوات وبحوالى نصف مقاعد البرلمان (١٤٠ مقعد). فاز مجلس الثورة الإسلامية العراقية وحزب الدعوة بغالبية الأصوات وفاز مجلس الثورة بمعظم مقاعد البلديات. حصلت النساء على ٧٠ مقعداً من مقاعد البرلمان البالغ عددها ٢٧٥ مقعد (أى ٢٥٪ من مجموع المقاعد). أضفت هذه الانتخابات الشرعية على المجموعات الشيعية. أما تحدى هذه الشرعية فتتمثل فى النسبة المنخفضة لتمثيل العرب السنة (٢٪). لم يَبْل أنصار مقتدى الصدر الذين خاضوا الانتخابات مستقلين عن التآلف، بلاء حسنا. ونتيجة لذلك انضموا إلى التآلف فى الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٥ حيث حقق هذا التآلف انتصارا للشيعة ككل. فازوا بنسبة ٤٦٪ من مقاعد البرلمان وحصل أتباع مقتدى الصدر على أكبر نسبة من

التصويت الشعبى. شاركت بعض المجموعات السنية أيضا فى تلك الانتخابات حيث بلغت نسبة الناخبين من تلك المجموعات ٧٩,٦٪.

فى أبريل ٢٠٠٥، أصبح جلال الطالبانى، الزعيم الكردى الذى عاش فى إيران لسنوات عديدة، رئيسا للجمهورية العراقية فيما أصبح إبراهيم الجعفرى من حزب الدعوة رئيسا للوزراء ليخلفه فى عام ٢٠٠٦ نورى المالكى الأمين العام لحزب الدعوة واحتل محمود المشهدانى العربى السنى منصب رئيس البرلمان وخلفه فى عام ٢٠٠٩ إياد السمرائى العربى السنى. يوضح الحضور الشيعى الطاغى فى مواقع السلطة تغير ميزان القوة وتحوله لصالح الشيعة بدلا من السنة. عاد كثير من الشيعة العراقيين الذين عاشوا بالمنفى لسنوات طويلة، وبشكل رئيسى فى إيران وأصبحوا يتحدثون الفارسية عادوا للمشاركة فى حياة بلدهم السياسية. شغل بعضهم المناصب الحكومية، أو مواقع فى المجالس البلدية، وعمل بعضهم بالمساجد والمدارس الدينية، والحوزات ويتواجدون فى مختلف المدن من البصرة إلى بغداد. يمثل بعض هؤلاء النفوذ الإيرانى فى العراق ويعملون على تقوية الروابط بين البلدين. يشعر البعض بارتباط مع إيران من حيث العقائد الشيعية ويُلقون بمسئولية الحرب العراقية الإيرانية التى نجم عنها وفاة مليون ونصف المليون شيعى فى البلدين، يلقون بها على صدام حسين.

وعلى الرغم من ارتباطهم الدينى/ السياسى بإيران، فإن غالبية الشيعة الذين عاشوا فى إيران لسنوات طويلة حملوا معهم هويتهم العراقية إلى المنفى. يوضح آية الله مهاجرانى، السياسى الإيرانى هذا بقوله:

«خلق الشيعة العراقيون الذين عاشوا فى إيران طوال تلك السنوات مدينة «نجف» مصغرة فى قم. كانوا أثناء مراسم إحياء عاشوراء

يشكلون مجموعات الحداد الخاصة بهم المتمايزة عن المجموعات الإيرانية وكانوا يُسمَّون مجموعات النجف أو مجموعات كربلاء. قويت هويتهم العراقية الشيعية سياسيا واجتماعيا في قم. بعد سقوط صدام عادوا إلى العراق وشاركوا في الحياة السياسية العراقية».

احتلال الولايات المتحدة للعراق يقوى وضع إيران

إن الروابط بين إيران والجماعات الشيعية في العراق هي شأن تاريخي. بيد أن النقلة التي حدثت في موازين القوة في السلة السياسية لصالح القيادات الشيعية ترتبط بجلاء بدور الولايات المتحدة في العراق ولا ترتبط بإيران. ظلت ثمة روابط بين مجلس الثورة الإسلامية العراقي وحزب الدعوة وبين إيران منذ الثمانينيات وفي ظل الجمهورية الإسلامية. لكل من الحزبين ميلشياته الخاصة مثل فيلق بدر ومجموعة المقاومة. أيضا، ومنذ ٢٠٠٣، تشكل جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر و الذي له روابط مع إيران. بيد أن نفوذ إيران السياسي/ الديني في العراق أكثر تعقيدا مما يصوره به الغرب. ليست تلك التنظيمات مجرد امتداد لإيران تستطيع أن تستغلها وتتلاعب بها. إنها متنوعة ومستقلة عن إيران ومازالت تتنافس مع بعضها على السلطة وفقاً لرؤاها المختلفة حول بناء الدولة في العراق.

في الواقع فإن العلاقة المعقدة بين إيران والعراق سياسية أكثر منها دينية. وكما أسلفنا، فقد نشأ حزب «الدعوة» في إيران في الستينيات. وفيما بعد تركزت أنشطة مناصري آية الله باقر الصدر وآية الله الخميني ضد نظام البعث. كان «الدعوة» أكبر حزب إسلامي، قاعدته من رجال الدين أحيانا وأحياناً أخرى من غير رجال الدين. في السبعينيات كان كثير من أعضاء حزب الدعوة وأنصاره أعضاء في الحزب الشيوعي أيضا. كان ذلك التنظيم في غالبيته ضد الاحتلال، بيد أن الأمريكيين

أقنعوا قياداته بالانضمام إلى مجلس الحكم المؤقت. كان إبراهيم الجعفرى الذى أصبح أول رئيس وزراء منتخب قد عاش منفيا فى إيران وأوربا لسنوات طويلة وكان المالكى الذى خلفه قد عاش سنوات طويلة أيضا منفيا فى إيران وسوريا.

وكما أسلفنا، فقد تشكل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق فى إيران عام ١٩٨٢، بدأ قادته فى التعاون مع الولايات المتحدة فى التسعينيات فيما كانوا مازالوا يتخذون إيران قاعدة لهم، وكانت العلاقات الأمريكية/ الإيرانية وقتئذ فى أدنى مستوياتها وكانت إدارة بوش قد صنّفت إيران على أنها عضو فى «محور الشر»، وزعمت أن إيران تستغل التنظيمات الشيعية العراقية لتعمل ضد الولايات المتحدة، على حين أن قيادات حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق، والذين كان لهم علاقات وثيقة مع إيران، كانوا فى واقع الأمر يدعمون الاحتلال. فى ٢٠٠٣، قتل متطرفون من أهل السنة باقر الحكيم وخمسة وثمانين من أتباعه بتفجيرات فى مدينة النجف. أصبح شقيقه عبدالعزيز الحكيم الذى كان قد عاش منفيا فى إيران لسنوات طويلة، قائدا لمجلس الثورة الإسلامية فى العراق. وعلى الرغم من أن عبدالعزيز الحكيم يدعم إيران، إلا أنه يؤيد الاحتلال وله علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن إيران تدعم هذين التنظيمين، إلا أنها تعارض بقوة واتساق احتلال أمريكا للعراق.

أيضا، فإن لموقف آية الله العظمى السيستانى أهميته. وُلد فى إيران ويحمل المواطنة الإيرانية ويتحدث العربية بلكنة إيرانية لكنه غدا قائدا ذا شعبية لشيعة العراق. وكما سبق وأوضحنا، فهو برفضه مبدأ ولاية الفقيه يعتبر معارضا للنظام السياسى فى إيران، ومن هذا المنطلق، فهو

يحظى بدعم الشيعة وأيضا المجموعات الأخرى فى العراق كما أن إدانته المتسقة للصراعات السنية الشيعية على نفس الدرجة من الأهمية.

وهكذا، دعمت إيران الحزبين اللذين يؤيدان الاحتلال (الدعوة ومجلس الثورة الإسلامية بالعراق) لكنها دعمت أيضا التيار الصدرى المعادى للاحتلال وجيش المهدى، جناحه العسكرى. ترجع الروابط بين مقتدى الصدر وإيران إلى ما بعد سقوط صدام مباشرة حيث قام بزيارة آية الله الخامئنى والحرس الثورى بإيران، وأسمى مليشيته جيش المهدى إضمارا منه أن تنظيمه يتبع الإمام الشيعى الثانى عشر الذى اختفى فى عام ٨٧٤، وخلافا لمجلس الثورة الإسلامية بالعراق وحزب الدعوة اللذين انضما إلى مجلس الحكم العراقى الذى شكلته الولايات المتحدة، رفض مقتدى الصدر الانضمام إليه وشجبه بصفته غير شرعى عين أفراده الاحتلال غير الشرعى. لا يعود الفضل فى موقفه المعادى للاحتلال إلى تأثير إيران، بل لأن سياسته التى تمزج الإسلام والأيديولوجيا القومية تلقى تأييدا شعبيا من غالبية العراقيين - يتكون أتباعه، بشكل رئيسى من سكان الأحياء الفقيرة فى بغداد والبصرة ويلقى أيضا الدعم من الشيعة التركمانيين بكركوك. وكما بينًا من قبل، فقد كان والده، آية الله محمد صادق الصدر، يؤمن بوحدة الشيعة والسنة وكان ذا شعبية فى أوساط الفقراء وأمد الشيعة الحضريين، وبخاصة فى مدينة الصدر التى يبلغ عدد سكانها ٢ مليون نسمة، بالموارد اللازمة. حينما قتل محمد صادق الصدر، واصل مقتدى أعمال والده الخيرية ودعا للوحدة بين الشيعة والسنة. زادت شعبيته عام ٢٠٠٤ حينما قاتل جيش المهدى ضد قوات الولايات المتحدة. تحدى السيستانى ومجلس الثورة الإسلامية وفيلق بدر ودخل جيشه مدينة النجف واحتل ضريح الإمام على. وخوفا

من شن هجوم أمريكى على الضريح، تدخل السيستانى وحزب الله (العراقى؟) وتفاوضوا معه على سحب جيشه من مدينة النجف.

فى عام ٢٠٠٦، دعم مقتدى الصدر وتياره رئاسة المالكى، لكن، وبضغط من واشنطن، شن المالكى هجوما مسلحا على الصدريين. فى عام ٢٠٠٧، انسحب الصدريون من الائتلاف العراقى الموحد فيما تم القبض على آلاف من أعضاء التيار ومناصريهم واعتبرت الولايات المتحدة التيار الصدرى الذى تدعمه إيران أكبر عقبة يواجهها الاحتلال. تنامت شعبية مقتدى الصدر، وفى عام ٢٠٠٨، انضم الآلاف إلى المسيرات الاحتجاجية والاعتصامات فى بغداد دعما للقضية التى يناضل من أجلها، ثم قامت قوات الأمن العراقية بدعم من قوات الاحتلال بشن هجمات وحشية على جيش المهدى. قررت إدارة بوش، وحكومة المالكى (حزب الدعوة) والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق الذى غير اسمه إلى المجلس الإسلامى العراقى الأعلى فى عام ٢٠٠٧، قرروا جميعا سحق التيار الصدرى. غادر مقتدى الصدر العراق ليقيم فى مدينة قم الإيرانية ويواصل دراسته الفقهية هناك. فى انتخابات ٢٠١٠، زعم إياد علاوى الذى ترأس الوزراء فى الحكومة الانتقالية لمدة تسعة أشهر فى عامى ٢٠٠٤-٢٠٠٥، زعم أنه فاز على رئيس الوزراء نورى المالكى. حصل تياره، الحركة الوطنية العراقية على ٩١ مقعدا من مقاعد البرلمان البالغ عدده ٣٢٥ مقعد، بزيادة مقعدين على ما حصل عليه ائتلاف المالكى. فاز الائتلاف القومى العراقى، وهو كتلة شيعية تضم مقتدى الصدر، بسبعين مقعدا، وبذلك أثبت التيار الصدرى صلابة قاعدته الشعبية مرة أخرى وأنه ينبغى على من يتولى السلطة التعاطى مع حقيقة أن مقتدى الصدر قوة يجب أن تؤخذ فى الحسبان.

تُبين تلك الأحداث التاريخية أن إيران، وبدون شك، ظلت تعمل وفقا

لصالحها وتدعم التنظيمات الشيعية بما يتفق مع أجندتها. بيد أن الولايات المتحدة بسياستها التى تقوم على توحيد الحكومة مع المجلس الإسلامى العراقى الأعلى ضد مقتدى الصدر تعمل على إذكاء فتنة شيعية/ شيعية واندلاع حرب أهلية شيعية فى العراق. وكما بين جوناثان سيتل، فهذا يماثل سياسة الولايات المتحدة فى فلسطين حيث تقوم بتمويل فصيل فتح الذى يرأسه محمود عباس وتسليحه ضد حركة حماس وتتسبب بذلك فى الانقسام الفلسطينى الفلسطينى. تتهم الولايات المتحدة إيران بدعم التيار الصدرى، بيد أن إيران تدعم أيضا حزب الدعوة والمجلس الإسلامى العراقى الأعلى، والفرق هو أن هذين التنظيمين يؤيدان الاحتلال فيما يعارضه الصدر وأتباعه.

أيضا فإن قضية الفدرلة، التى هى شكل آخر للطائفية، محل نزاع بين تلك التنظيمات. فى عام ٢٠٠٥، أيد الحكيم والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق قيام دولة فدرالية فى وجود كونفدرالية شيعية فى المناطق الجنوبية تتشكَّل بحيث يتاح لها نسبة من إنتاج حقول النفط الجنوبية.

رفض السيستانى، والدعوة، والصدر، والقوميون العلمانيون هذا المقترح وأدانوا أى شكل من أشكال الفدرالية. ظلت إيران دائماً ضد الفدرالية فى العراق لأنها ستعمل على زعزعة الأوضاع وتهدد أمن إيران، وبخاصة إذا قامت دولة كردية مستقلة لديها وفرة من احتياطى النفط. خسر الفدراليون انتخابات ٢٠٠٩، بضغط من ٨٦٪ من سكان العراق الذين يعارضون أى تقسيم للبلد.

من الجلى أن التأثير الدينى/ السياسى لإيران فى العراق يتمثل فى السيستانى والتنظيمات الشيعية بما فيها التيار الصدرى حيث تؤيد

بعض تلك التنظيمات الاحتلال وتعارضه الأخرى. أما دوافع إيران فتتعلق بشكل أساسي بالدفاع عن نفسها أكثر مما تتعلق بالهيمنة الشيعية أو الإقليمية. فواقع الأمر هو أن سقوط حكم طالبان في أفغانستان وصدّام بالعراق كان لصالح إيران، وبخاصة في العراق حيث تولى السلطة نظام يهيمن عليه الشيعة. وعلى الرغم من ذلك، تواجه إيران تهديداً مستداماً بالتدخل العسكري من جانب الولايات المتحدة وإسرائيل، أو حتى هجوم آخر من العراق. يذهب بعض المحللين إلى أنه إذا حدث تهديد لأمن إيران فستتولى الرد، وفي تلك الحالة ستعاني المنطقة بكاملها. وفي الواقع، فإن قوات الولايات المتحدة ما فتئت تقوم بعمليات عبر/ حدودية من شمال العراق وجنوبه. بحلول عام ٢٠٠٨، كان مدى المهام التي قامت بها السي آي إيه وقيادة العمليات الخاصة المشتركة ضد إيران وحجمها قد تعاظمت بموافقة الحكومة العراقية وتفويضها. مضت إيران، وهي على علم تام بهذا الوضع، في دعمها للحكومة العراقية وجميع الأحزاب الشيعية. ولكي تؤمّن نفسها ضد أي تهديد من جانب الولايات المتحدة وحلفائها، فإن إيران ماضية في إقامة تحالفات، غالبا ما تكون غير مستقرة، بل ومرتبكة أحيانا مع الحركات الشيعية بجميع أطيافها السياسية في العراق. في عام ٢٠٠٨، حينما أعلن المالكي أن العراق على غير استعداد لتكون قاعدة تنطلق منها العمليات السرية ضد إيران، أوضح هذا بجلاء أن إيران قد نجحت في إقناع الحكومة العراقية بعدم السماح للولايات المتحدة باستخدام العراق قاعدة للهجوم على إيران.

أوجه النقد للدور الإيراني:

يتفق عراقيون كثيرون بالداخل العراقي وبالشتات بمن في هذا المجموعات الشيعية في طهران ودمشق ولندن، يتفقون على أن الكارثة

الكبرى التى حلت بالعراق هى نتيجة الاحتلال الأمريكى، لكنهم أيضا ينقدون بشدة موقف إيران بل ويبدون العداء له. فهم يرون أن الحكومات الثلاث جميعها مسئولة عن استمرار الفساد والعنف والتدهور الاقتصادى. تقول زينب، الأكاديمية العراقية.

«أمل الشعب، بعد سقوط صدام، فى إعادة الإعمار والديمقراطية. بيد أن العراق الآن أصبح «سفرة» مفتوحة يدخل إليها الجميع لتحقيق مصالحهم لا مصالح الشعب العراقى. غدت العراق ميدانا للمعارك بين إيران وأمريكا. تتنافس كل منهما على تمويل المجموعات المختلفة وتُنفق الأموال على الأسلحة التى يقتلون بها بعضهم، حتى أن الشيعة يقتلون الشيعة ويقتل أهل السنة السنة الآن، بنفس الأسلوب الذى يقتل به الشيعة السنة ويقتل به السنة الشيعة».

وفى رد على هذا، يقول السياسى الإيرانى آية الله مهاجرانى إن:

«إيران تدعم الحكومة العراقية بصفتها ممثلة للعراقيين جميعهم لا للشيعة فقط. وإذا كانت الحكومة العراقية لا تعمل لصالح الشعب العراقى، ولا حتى لصالح الشيعة، فإن هذا مرده هو الاحتلال الأجنبى الذى ترزح العراق تحته. لم تعترف إيران أبدا باحتلال العراق، وظلت، منهجيا، تطالب بانسحاب القوات الأجنبية. قبلت الحكومة العراقية بالاحتلال. لقد فشلت الولايات المتحدة فى العراق وأفغانستان وأوجدوا أوضاعا كارثية فوضوية. بيد أن إيران لا تستطيع القيام بمهام الحكومة العراقية للشعب العراقى، لكن ينبغى عليها فى نفس الوقت دعم الحكومة العراقية».

يذهب سامى رمضانى إلى أنه لا يمكن المساواة بين إيران والولايات المتحدة إذ إن ما تقوم به إيران هو رد فعل على وجود الولايات المتحدة بالعراق، كما أنه ليس بوسعنا أن ننسى مساندة الغرب لصدام حسين

إبان الحرب الإيرانية العراقية بهدف سحق الثورة والقضاء عليها. بيّن لي أننا:

«إذا أخذنا هذه الخلفية في الاعتبار سنفهم سبب رد فعل إيران على الولايات المتحدة في العراق. إيران هي الطرف المُهدَّد ويحتمل للعراق أن تكون أكبر قاعدة للهجوم على إيران. ثمة ٥٠٠٠ من أفراد تنظيم مجاهدي خلق بالعراق سلّحتهم الولايات المتحدة ودربتهم، وهم على استعداد لتنفيذ «تغيير النظام» بإيران. وفي مناسبات عدة، قاموا بالعبور من معسكرهم إلى الداخل الإيراني لتنفيذ الاغتيالات والتدمير. تدخل الوحدات الإسرائيلية إلى إيران من كردستان، وتقوم إسرائيل بتسليح الحزب الكردستاني».

تقوم الولايات المتحدة، ومن أجل تقويض المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، بتمويل المليشيات السنية، وتأجيج المشاعر المعادية للشيعة ولإيران. وعلى المستوى الإقليمي، أوجدت الولايات المتحدة تحالفا معاديا لإيران من الدول العربية ذات القيادات السنية، وعلى المستوى الدولي، تقوم بتصوير إيران على أنها تهديد إقليمي لكي تقوم هي بدور رجل الشرطة في منطقة الخليج بذريعة التوسط في الخلاف الشيعي السني المُصنّع عن عمد. يواكب هذا حملة دعائية عنصرية معادية لإيران في الإعلام العربي. وعلى الرغم من هذا، تتمتع إيران بشعبية لدى معظم شعوب الشرق الأوسط على الرغم من الاختلاف المذهبي. بيد أن لمعظم العراقيين نظرة إلى إيران تختلف عن نظرائهم في فلسطين ولبنان حيث يشعرون أن إيران قد خذلتهم بل وخانت قضيتهم بنفس الأسلوب الذي يشعر به الفلسطينيون واللبنانيون بخيانة الأنظمة العربية الموالية للغرب لقضاياهم.

لا يجري العمل وفقاً لنموذج حزب الله اللبناني بنجاح في العراق.

فكما أسلفنا فى الفصل الرابع، أدى تآلف حزب الله مع قطاع كبير من السنة والمسيحيين إلى زواء الصراعات المذهبية والسنية؛ هذا بالإضافة إلى أن حزب الله يقوم بتوفير الرعاية الاجتماعية لمختلف الجماعات وقاد مقاومة ناجحة ضد إسرائيل. بيد أن الحكومة التى يهيمن عليها الشيعة فى العراق لا تستطيع، بصفتها تدير دولة عميلة للولايات المتحدة، حل الصراعات بين المجموعات السنية والشيعية بل إنها غير راغبة فى ذلك. تشتبك العصابات الإجرامية المسلحة فى هجمات ضارية لحساب الفصائل السياسية وتتصارع مع بعضها للسيطرة على تجارة السوق السوداء فى النفط. كثير منها يلجأ إلى العنف والجريمة بانتهازية ضد الجماعات المختلفة من أجل مكاسبها المادية. انتشرت أنشطة تهريب النفط والمخدرات والخطف؛ فيما تتدهور سريعا أساسيات الحياة مثل إمدادات المياه والكهرباء، والرعاية الصحية والتعليم وفرص العمل؛ وترتكب أعمال القتل الطائفية والقتل على الهوية من قبل المتطرفين السنة والشيعة معا.

فى عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، كانت أعمال العنف الطائفية والمذهبية يقوم بها جماعات من غير العراقيين بشكل أساسى، مثل تلك المجموعة التى كان يقودها أبومصعب الزرقاوى الأردنى المرتبط بالقاعدة التى شنت أبشع الهجمات عنفا ووحشية ضد مختلف الجماعات، لكن غالبيتها كان موجها ضد الشيعة ومنذ وقتئذ تعاظمت الصراعات الطوائفية وامتدت إلى خارج بغداد. يقوم بالهجمات الإسلاميون السنة والبعثيون والإسلاميون الشيعة. يعتقد كثير من العراقيين أن الدولة العميلة للولايات المتحدة والتى يهيمن عليها الشيعة وتدعمها إيران هى المسئولة عن هذا الصراع العنيف، وأيضا فهى تتحمل مسئولية الفساد وتردى الأوضاع الاقتصادية.

يوجد حوالى ٢ مليون مسلح ينتمون إلى تنظيمات نشطة بالعراق، وهؤلاء مزيج من قوات الاحتلال، والمرتزقة الأجانب المتعاقد معهم، والقوات العراقية التى يدعمها الاحتلال، والمليشيات العراقية السرية التى تتحكم فيها الولايات المتحدة، ومجموعات الخطف الخاصة، والمليشيات وقوات المقاومة التابعة لأحزاب مختلفة. تختلف دقة المعلومات المتاحة عن الضحايا بدرجة كبيرة. تقول هيفاء زنجانا إن عدد القتلى العراقيين منذ عام ٢٠٠٣ بلغ مليون شخص. يعانى الناس من مختلف الإصابات نتيجة استخدام الولايات المتحدة والبريطانيين لقذائف اليورانيوم المنضب. تم تدمير بنية البلد الأساسية بكاملها، وثمة المئات من المواقع الخطرة فى بغداد وحدها نتيجة إلقاء القنابل العنقودية. بحلول عام ٢٠٠٥، كانت المياه النظيفة متاحة لنسبة ٢٣٪ فقط من العراقيين، وفى عام ٢٠٠٦، هبط معدل توليد الكهرباء إلى ٤١٠٠ ميجاوات، وكلا الرقمين أقل كثيرا كثيرا من المستويات التى كانت عليها قبل الغزو. تعاظمت معدلات البطالة، وغدت غالبية الشعب على حافة الإملاق. ومثلما هو الوضع فى أفغانستان، لا يستفيد الشعب العراقى من المليار دولار التى تمول بها الولايات المتحدة إقامة المنظمات غير الحكومية والديمقراطية، ولا يستفيد أيضا من اقتصاد السوق الحر الذى تشجعه الولايات المتحدة والمؤسسات المالية الدولية. فقد استُخدمت تلك الحجج ذريعة لاحتلال الولايات المتحدة العسكرى للعراق ولا يتربح منها سوى الكوربورشنات والشركات الدولية التى تستغل موارد العراق وتستنفدها.

وكما هو الوضع فى أفغانستان، لم يحدث سوى تغيير طفيف جداً فى قضايا الجندر فى العراق، هذا على الرغم من أن النساء يشغلن أكثر من ربع مقاعد البرلمان، تخشى النساء العراقيات أيضا من صعود التطرف الدينى ومن هيمنة الإسلاميين المحافظين على مؤسسات الدولة. لا يردن

تصـدير ممارسـات الجندر المحـافظة السـائدة فى إيران مـثل التحـجب الإجبارى.

تقول الصحفية نجد:

«يشـجع السيـاسيـون الشيـعة الحـجاب. أخبرنى بعضـهم أننى إذا ارتديت الحـجاب سـأرقـى إلى منصب بارز فى إعلام الدولة لكنى رفضت العرض. الحجاب مسألة شخصية بالنسبة للنساء، وإننا نحن من نقرر إن كنا نحـتاج إلى ارتدائه أم لا، لا أن يجـبرنا السـياسـيون أن نـرتديه من أجل أن نترقى».

تعاظم العنف ضد من يعملن بالسياسـة. تشـمل أمـثلة الهجـوم على النسـاء داخل مؤسسـات الدولة اغتيال عقيلة الهاشمى وكانت عضـوا فى مـجلس الحكم العراقى عـام ٢٠٠٣؛ واغتيال أمل المعملاش وكانت تعمل مسـتشـارة لوزارة البلديات والأشـغال العامـة فى عام ٢٠٠٤؛ ومـحـاولة اغتيال سلمى الخافجى وكانت أيضـا عضـوا فى مـجلس الحكم العراقى عام ٢٠٠٤. بالطبع تحدث مئات الهجمات يوميا على عامة النساء ولا يرد لها ذِكر. تقاتل ميلشيات الحكومة، والجماعات القبلية وميلشيات الطوائف (السنية والشيعية) بعضـها. تم تدمير المرافق العامة والمؤسسات العامة مثل المرافق والمؤسسـات التعليمية والصحية التى كانت قائمة فى عهد صدام. أدى هذا بدوره إلى ظهور شـبكات طائفية جديدة وقوية تتصارع مع بعضها، ليس على القضايا الدينية، بل على السلطة السياسية. وفى ظل هذه الأوضـا ع، يرى الكثيرون أن إيران تتحمل مسئولية جزئية. بحلول ٢٠٠٦، كان ثمة ٢ مليون عراقى اقتُلعوا وهُجروا داخليـا، فيما التجأ ٢ مليون آخرون إلى خـارج العراق. ووفقا للهلال الأحمر العراقى، فإن ثلثى المقتلعين والمهجرين هم من النسـاء والأطفال. بينت لى أحلام التى شهدت أزمة النازحين فى سوريا قائلة إنه:

«منذ الاحتلال أجبر الكثيرون على مغادرة العراق. قُتِل الكثيرون أثناء

عملية النزوح، واغتُصبت نساء كثيرات، وعاش الكثيرون فى المناطق الحدودية. ثمة أعداد كبيرة ممن أجبروا على الهجرة يعيشون فى بلدان الجوار فى أوضاع رهيبة. يعانى النازحون من مشاكل كثيرة، وبخاصة الأسر التى تقوم عليها النساء وآخرون من المعرضين للخطر ومن هم بحاجة إلى رعاية، ولا يوجد أحد يعى حتى أوضاعهم، ولا يتحدث عنهم أحد».

بل إنه حتى فى المناطق الكردية حيث مستوى العنف منخفض نسبيا وتوجد درجة من الاستقرار الاقتصادى، يحتج الناس ضد الفساد والقمع السياسى وعدم المساواة الاقتصادية. قام الناس فى حلابجة بإحراق متحف تذكارى قائلين إن الحكومة لا تفعل شيئا إزاء عدم وجود مرافق أو موارد وإنهم يأتون مرة كل عام بسياراتهم الفارهة لينعموا بمشاهد معاناة الناس.

قالت إحدى النازحات، واسمها أم إيمان إن:

«الطالبانى والبرزانى يديران الحياة السياسية فى كردستان. يتحكمان فى جميع الموارد ولم يفعلا سوى أقل القليل لصالح الأكراد العاديين. ليست لدينا كهرباء أو مياه، ولا يوجد سوى أنشطة اقتصادية قليلة جدا. غدت الممارسات القبلية القديمة مثل القتل بسبب الشرف، والزيجات الإجبارية وكبار السن الذين يتزوجون صغار الفتيات، غدت هى المعايير الاجتماعية. وإضافة إلى المشاكل الاقتصادية، أوجدت كل هذه العوامل أوضاعا بشعة بالنسبة للنساء مثل الأوضاع التى تعانى منها بقية النساء فى أنحاء العراق. نرى فى الجزء الكردى جرائم ترتكب ضد النساء، على حين أن انعدام الأمن فى أنحاء العراق الأخرى لا يسمح برؤية هذه الجرائم. الناس يقتلون يوميا، وتقتل النساء يوميا وتباع الفتيات فى أسواق الدعارة».

يقوم الجنود من القوات الغازية وقوات الشرطة العراقية باغتصاب النساء العراقيات على نطاق واسع أثناء الغارات التى يشنونها على البيوت وعمليات الاعتقال التى يقومون بها. تُغْتصب النساء فى المعتقلات وداخل بيوتهن بعد اعتقال ذويهن من الذكور، وبعد أن يُسَقن إلى أقسام الشرطة بتهمة مساعدة المتمردين. يمارس التعذيب، على غرار أبوغريب وغيره من الأنواع فى جميع السجون والمعتقلات العراقية. كان ما فعله منتظر الزيدى الصحفى الشاب الشيعى الاشتراكى حين ألقى حذاءه فى وجه بوش فى ديسمبر ٢٠٠٨ قائلاً: «هذه قبلة وداع لك يا كلب من الأرامل والأيتام والقتلى العراقيين» كان يرمز إلى غضب الشعب وتحديا للحكومة العراقية المدعومة من الولايات المتحدة. أصبح الزيدى بطلا على المستوى القومى والإقليمى وفى أعقاب سجنه اندلعت التظاهرات المؤيدة له والمعادية للحكومة والاحتلال فى النجف والفلوجة وبغداد والموصل وطالبت بإطلاق سراحه.

بالتأكيد لا يمكن مقارنة دور إيران بدور الولايات المتحدة فى العراق. بيد أن كثيرا من العراقيين يرون أن ثمة احتلالاً مشتركاً من قبل البلدين. قالت لى عائشة أيضا:

«يماثل الوضع أوضاع الحرب الباردة حيث يتعاون الطرفان على قضايا معينة ويتقاتلان ضد بعضهما وفقط عامة الناس هم من يعانون. تستخدم إيران والولايات المتحدة العراق لتسوية خلافاتهما. إن هذا أكثر من مجرد رياء، إنها سياسات القوة والعراقيون هم الضحايا».

بالطبع فإن مقاومة الاحتلال والحكومة التى تدعمها إيران تضطلع بها أيضا تنظيمات مدنية حقه. فى عام ٢٠٠٤، تم إنشاء مؤتمر مؤسسة العراق الوطنية. وكانت تلك منظمة معارضة لنظام صدام وللاحتلال ولأى تقسيمات على أساس فروق طائفية أو دينية أو إثنية. الشيخ جواد

الخليلى، عالم الدين الشيعى المرموق، هو أمينها العام ومن بين الأعضاء المؤسسين مثنى الضارى المتحدث باسم رابطة علماء المسلمين السنة ووميض نظمى القومى العربى العلمانى. شجبوا الإرهاب ودعوا إلى إنهاء الاحتلال ووحدة الشعب العراقى. بيد أنهم ليس لديهم جناح عسكرى ويعملون على المستوى السياسى فقط. وعلى الرغم من أنهم يخاطرون مخاطرة كبرى لأنهم ناشطون، وأن تأثيرهم محدود، إلا أنهم يواصلون العمل فى بغداد.

أيضا أقيم تنظيم نسائى يسمى «العمل معا» ومقره لندن هدفه إيقاظ الوعى حول قضايا النساء فى ظل الاحتلال. فتحت ميسون بشاشى، وهى صانعة أفلام، مدرسة لصناعة الأفلام فى بغداد عام ٢٠٠٤ إلا أنها اضطرت لإغلاقها فى عام ٢٠٠٧ بسبب الصراعات الطائفية لكنها أعادت فتحها مرة أخرى فى عام ٢٠٠٩، دربت مدرستها ثمانين سينمائيا/ سينمائية من الشيعة والسنة والأكراد والعلمانيين صنعوا أحد عشر فيلما وثائقيا. توضح جهود الأفراد والمجموعات لتوحيد مختلف التيارات كيف أن العراقيين يحدوهم الأمل فى مستقبل أفضل. تدمر الحروب والصراعات والاحتلال الأجنبى والاجتياح مختلف المجموعات السكانية. تلعب النساء بخاصة أدوارا مهمة لتوليد الشبكات (الاجتماعية) وإرساء المعايير فى جماعاتهن، وبهذا الأسلوب فإن ثمة رفضا جميعا لقوات الاحتلال الأجنبى وللقوات الطوائفية والمذهبية وبخاصة فى بغداد حيث تقام الأسوار لفصل الأحياء الشيعية عن السنية.

علقت هناء، ناشطة حقوق النساء ومؤسسة جمعية «إرادة النساء العراقيات» عام ٢٠٠٢، بقولها:

«ظل ثمة اختلاف بين الشيعة والأكراد والسنة، فقهيا وتاريخيا، وثقافياً، لكن هذا الاختلاف تم تسييسه منذ الاحتلال. لسنوات طويلة

ظلت هناك تزاوجات وتناغم بين تلك المجموعات. كان الاحتلال هو من خلق الصراعات العنيفة بينها وحتى اليوم، فإن الجماعات السنية والشيعية لا يقتلون بعضهم، فهناك مجموعات أوجدها الاحتلال والحكومة تقاتل بعضها وتقتل بعضها. وفي منظمتي وحتى يومنا هذا تعمل كثير من النساء الشيعيات والسنيات والكرديات جنبا إلى جنب ويحاولن تقديم المساعدات للنساء من مختلف الأطياف ممن هن بحاجة إلى مساعدة. قامت الحكومة وقوات الاحتلال بإقامة جدران إسمنتية لفصل المجموعات المختلفة عن بعضها وقد خلقت هذه الجدران التوترات والصراعات. لكن الناس يحاولون كسر تلك الجدران التي فُرضت عليهم بشتى الطرق مثل إقامة حفلات الزفاف على كل من جانبي الجدران في آن».

أيضا، رفعت اتحادات عمال النفط والموانئ أصواتهم. سيطروا على الموانئ وكبرى حقول النفط في احتجاج منهم على «قانون النفط» الجديد الذي، وبناء عليه، تجرى خصخصة صناعة النفط والسماح للشركات الأجنبية الدولية بالتحكم في إنتاج النفط العراقي وتسويقه. يقول سامي رمضاني:

«تم وضع مخطط قانون النفط في الولايات المتحدة قبل غزو العراق، حيث تشكلت لجنة في وزارة الخارجية الأمريكية ضمت عددا من العراقيين (الموجودين في الولايات المتحدة). وضعوا قانون النفط في عام ٢٠٠٧، الذي يعني أن تتحكم كوربورشنات النفط الأجنبية في الإنتاج والمبيعات والأسعار، وتستولي على ما بين ٧٠٪ و٨٠٪ من الأرباح. تعارض غالبية الشعب هذا القانون ولعب عمال النفط دورا مهما في معارضته. نتيجة لذلك، لم يتم بعد تمرير القانون، لكن الحكومة وقعت العقد مع شركة BP عام ٢٠٠٩. ثمة خلاف أيضا بين الحكومة والقيادات الكردية حيث يريدون الاستمرار في الاتفاق الحالي الذي

يخصص بمقتضاه ١٧٪ من عائدات النفط للمنطقة الكردية والسكان الأكراد».

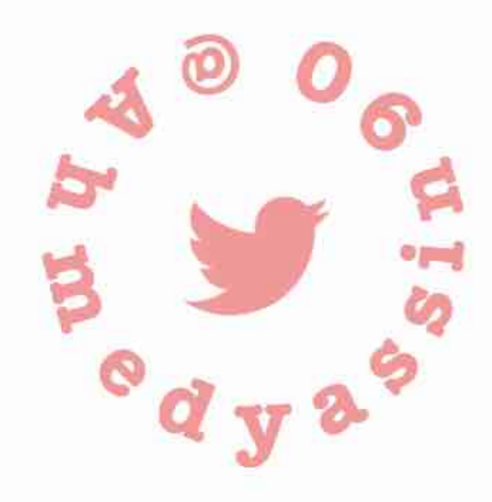
قامت الولايات المتحدة بصفتها القوة العظمى بتدمير العراق كبلد عامل فاعل واستخدمته قاعدة تهدد منها سيادة إيران. على الجانب الآخر، قامت إيران بمناورات للتواجد بالعراق لمجابهة التهديد المحتمل من الولايات المتحدة. عمل هذا المزيج على تحويل العراق إلى فسيفساء من الفصائل المتناحرة فيما تُنتهك أعداد هائلة من الناس. وعلى الرغم من أن للشرائح المختلفة في المؤسسة السياسية الإيرانية آراء متنوعة بشأن العراق، بيد أنه ثمة إجماع في إيران على الحاجة لخروج الولايات المتحدة من العراق. وفي نفس الوقت فقد عملت الحكومات الإيرانية المختلفة ما في وسعها لإجبار الولايات المتحدة على التعاون معها.

بيد أنها تحققت أنه طالما استمرت إيران في دعم القوى المناهضة للاحتلال، لن ترحل الولايات المتحدة من العراق أو تُنهي احتلالها. من ثم، بدأت إيران في التراجع عن دعم التيار الصدري والقوى الأخرى المناهضة للاحتلال. وبناء على ذلك سلمت الولايات المتحدة معسكر أشرف إلى الحكومة العراقية كجزء من خطة للانسحاب من العراق. عمل هذا في صالح إيران إذ إن منظمة مجاهدي خلق كانت تستخدم ذلك المعسكر لشن الهجمات ضد إيران.

في عام ٢٠٠٩، أعلنت بريطانيا والولايات المتحدة جدولا زمنيا للانسحاب من العراق، بيد أن غالبية العراقيين يتشككون في أن الانسحاب سيكون كليًا. مازالت القوات المسلحة البريطانية موجودة في بعض القواعد، كما أن ١٣٢٦١٠ من المسلحين الأجانب المتعاقد معهم سيظلون متواجدين، وقامت قوات الولايات المتحدة بإعادة ترسيم حدود بعض المدن مثل الموصل وبعقوبة وأعلنت أنها ستظل هناك حتى أغسطس ٢٠١٠. وفي ظل تلك الأوضاع، وطالما بقيت الولايات المتحدة بالعراق،

ستشعر إيران أنها مهددة وستستمر فى دورها هناك. وفى حوار لى معه، يقول سامى رمضانى:

«تهدف استراتيجية الولايات المتحدة إلى وجود دولة عميلة تابعة فى العراق، لكنها لن تستطيع تحقيق ذلك من خلال صناديق الاقترا ع بل من خلال تواجد فيزيقى قوى لها هناك. يزعمون أنهم يعملون على بناء الجيش العراقى وقوات الأمن والمؤسسات الأخرى، لكن تلك الجهات يعمل بها عدد جد كبير من «المستشارين» الأمريكيين، وهذا وضع لا يتقبله العراقيون وسيستمرون فى مقاومتهم ضد وجود القوات الأجنبية. ولهذا السبب، لن تنسحب الولايات المتحدة من العراق فى المستقبل المنظور إلا إذا غيروا سياستهم تجاه العراق والشرق الأوسط أى إذا تركوا الشعب العراقى يعمل تحالفاته الخاصة مع البلدان المجاورة مثل إيران ولبنان وفلسطين. من ثم، فإننى لست متفائلاً على المدى القصير، لكننى واثق أننا سنستعيد استقلالنا على المدى البعيد».


@Ahmedyassin90



-6-

العلاقة بين إيران وفلسطين وحماس

يعود تاريخ فلسطين ككيان جيوسياسى إلى عام ٣٠٠٠ ق م. كانت منذ عام ١٥٠٠ قبل الميلاد أرض الكنعانيين، ذلك الشعب القديم الذى خضع فيما بعد لحكم المصريين والفلسطينيين وبنى إسرائيل والفينيقيين والبابليين والفرس والمقدونيين والرومان و العرب والصليبيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. فتح المسلمون فلسطين عام ٦٣٨م وسمحوا للناس من مختلف الأديان والعقائد بالعيش بسلام هناك ورحبوا بالحجيج من جميع الأديان. عاش الأهالى الأصليون، المسلمون منهم والمسيحيون واليهود معاً فى سلام فى ظل الحكم الإسلامى، بالتقابل مع غياب التسامح ووجود التعصب آنذاك فى أوروبا المسيحية عصر الأوسطية. بين عامى ١٠٩٧ و١٢٩١ شن الصليبيون الغربيون حروبا للسيطرة على فلسطين وارتكبوا المذابح التى قتلوا فيها عشرات الآلاف من السكان المسلمين [والمسيحيين واليهود المشرقيين] ومن ثم حكموا القدس لمدة سبعين عاما قبل أن يهزمهم صلاح الدين ويحرر المدينة.

كان الحكم العثمانى لفلسطين شديد التسامح مع المسيحيين واليهود. كانت تلك المجموعات تتمتع بالاستقلال الذاتى وكان لها قدر كبير من السلطة على حكم نفسها بما فى هذا جباية ضرائبها الخاصة وتوزيعها، وكان هذا نظاماً أكثر تقدما بكثير من أى نظام معاصر فى تعاطيه مع مجموعات الأقليات الدينية. بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية وفرض الحكم البريطانى الكلونيالى، طالب الفلسطينيون لأنفسهم بدولة ذات سيادة. بيد أن وعد بلفور عام ١٩١٧ الذى كان نتاج المصالح البريطانية الإمبريالية والصهيونية اليهودية والمسيحية عمل على تسهيل إقامة دولة يهودية فى فلسطين. بعد الحرب العالمية الأولى دعمت الحركة الصهيونية الحكم الكلونيالى البريطانى فى فلسطين. وبعد سلسلة طويلة من الاحتيالات والمناورات السياسية تدفقت الهجرات اليهودية من أوربا على

فلسطين، ولتبرير اقتلاع الأهالى الفلسطينيين تم تصوير المستوطنين اليهود الأوروبيين والعصابات الصهيونية المسلحة على أنهم متحضرون، والفلسطينيين على أنهم «جماعات غير يهودية» من العرب الشرقيين الهمج المتخلفين. سحق الجيش البريطانى بدعم من الأيديولوجيات المسيحية الصهيونية انتفاضة الفلسطينيين ضد الاستعمار التى استمرت من عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٣٩. أقيمت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد الحرب العالمية الثانية وغدت إحدى الأصول الاستراتيجية للولايات المتحدة فى المنطقة، بصفتها كيانا عسكريا لحماية المصالح الغربية وإمدادات النفط. ومنذ إنشائها ظلت تلك الدولة وذاك المجتمع ذو التركيبة العسكرية فى حروب مستدامة ضد الفلسطينيين وشعوب الدول العربية.

ظلت النساء الفلسطينيات يلعبن دورا مهما فى المقاومة والحركات

القومية. تُبين النظرة السريعة على تاريخ الحركة النسائية أن «اتحاد النساء الفلسطينيات» قام بتنظيم تظاهرات ضد وعد بلفور عام ١٩٢١. وفى عام ١٩٢٩، حضرت مائتا موفدة أول مؤتمر للنساء العربيات فى فلسطين وأثناء الانتفاضة التى اندلعت بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩ قاومت النساء البريطانيين والصهاينة. وبدءا من عام ١٩٤٨ وإلى عام ١٩٦٤/١٩٦٥ ابتدعت تنظيمات نسائية متنوعة أشكالا جديدة من الأنشطة المعادية للاحتلال.

استُخدِمت الهلوكوست تكرارا لتبرير إقامة دولة إسرائيل ومحاولة إعادة تشكيل أرض الفلسطينيين «أرضا يهودية». ومثل الهلوكوست، بالنسبة للفلسطينيين، فإن نكبة عام ١٩٤٨ جريمة ضد الإنسانية يعاقب عليها القانون الدولى وتناظر التطهير العرقى فى القارات الأمريكية وإفريقيا واستراليا الذى ارتكبه المستعمرون الغربيون. وفى الحرب المستدامة التى بدأت عام ١٩٤٨ [وقبلها على يد العصابات الصهيونية] قتل الصهاينة الفلسطينيين فى سبعين مذبحة. كانت مذبحة دير ياسين الشهيرة ترمز إلى مستوى الرعب والبشاعة المستخدمة لإجبار الفلسطينيين على النزوح من أراضيهم ومنازلهم. وضع الإسرائيليون قانون «أملاك الغائبين» الذى صادروا بمقتضاه الأوقاف الإسلامية التى كانت تشمل مساحات كبيرة من الأملاك والأراضى الموقوفة فى فلسطين التاريخية. فقد الفلسطينيون أكثر من ٧٨٪ من بلدهم بما فى هذا القدس الغربية [ويجرى الآن الاستيلاء على القدس الشرقية وتهويدها]. أصبح الفلسطينيون لاجئين وطُرِدوا إلى الضفة الغربية وغزة ولبنان وسوريا؛ حُرِموا من أرضهم وهويتهم الوطنية وانتهى الأمر بالكثيرين منهم إلى العيش لاجئين فى المنفى.

ومن هذه الخلفية، تتضح أهمية دور إيران فى الشرق الأوسط فى الخمسينيات، وكما أسلفنا فى الفصل الأول، اكتسب انتصار حركة مصدق القومية التى دعمها الشيوعيون والإسلاميون، شعبية فى المنطقة. ألهم تأميم النفط الإيرانى موجة من الحركات المعادية للإمبريالية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط. بيد أن الانقلاب الأمريكى/ البريطانى عام ١٩٥٣ غيّر موقف إيران. شكّل شاه إيران وإسرائيل وتركيا تحالفا ضد العالم العربى. وفى مواجهة صعود التيارات القومية والشيوعية فى المنطقة وقتئذ كان هذا التحالف مهما لإيران كونها دولة خط أمامى فى الحرب الباردة، ودعمت الولايات المتحدة تحالف إسرائيل مع شاه إيران وعملت على تقويته. اعترفت إيران بدولة إسرائيل وأمدتها بحوالى ٨٠٪ من احتياجاتها النفطية. وعلى الرغم من عدم تنفيذ إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة القاضية بعودة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم فقد استمرت إيران فى علاقاتها الاقتصادية مع إسرائيل. وكما سنوضح فى الفصل القادم، فقد ازدادت تلك العلاقات قوة فى أعقاب حرب السويس عام ١٩٥٦، وبخاصة فى مجالات التعاون العسكرى والاستخباراتى بما فى هذا التعاون الوثيق بين جهازى الموساد الإسرائيلى والساڤاك الإيرانى، وظل هذا التعاون قائما حتى سقوط الشاه عام ١٩٧٩.

منذ الخمسينيات وحتى السبعينيات كانت تيارات القومية العربية العلمانية والأيديولوجيات الماركسية ذات شعبية فى فلسطين مثلما كان الحال فى معظم أنحاء المنطقة، تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وتبنت النضال المسلح لتحرير فلسطين، ومعها الدعوة إلى إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية يعيش فيها العرب ويهود ما قبل عام ١٩٤٨ معا. خاض ياسر عرفات كرئيس لمنظمة فتح، كفاحا مريرا وكسب اعتراف غالبية الشعب الفلسطينى والشعوب العربية والإسلامية.

بيد أن إضعاف تيار القومية العربية والدعم الغربى المؤيِّد لإسرائيل جعلا من المستحيل على منظمة التحرير مواصلة العمل على تحقيق هدفها بتحرير فلسطين.

فى عام ١٩٦٧، هاجمت إسرائيل مصر وسوريا والأردن واستولت على شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة من مصر، وهضبة الجولان من سوريا، وأيضا الضفة الغربية والقدس الشرقية اللتين كانتا فى عهدة الأردن. بعد ١٩٦٧ برز الدور الفاعل لحركات المقاومة ضد الاحتلال الصهيونى للضفة وغزة، وكان اللافت فيها مشاركة النساء، وبخاصة ليلى خالد عضو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والمجلس القومى الفلسطينى والتى أصبحت أسطورة لمشاركاتها فى عمليات لاختطاف الطائرات من أجل جذب أنظار العالم إلى البشاعات التى تُرتكب ضد الفلسطينيين وإلى قضية الشعب الفلسطينى. وفى أواخر السبعينيات وبدايات الثمانينات، عملت لجان نسائية ومراكز نسائية معا لوضع قضايا الجندر على أجندات الحركات القومية.

بعد أحداث سبتمبر الأسود عام ١٩٧٠، أُجبرت منظمة التحرير على نقل مقارها الرئيسى إلى بيروت. وفى تلك الأثناء، زودت الولايات المتحدة إسرائيل بمليارات الدولارات على شكل مساعدات وأسلحة متطورة. كانت مصر قد ظلت تاريخيا قائدة الجبهة العربية الموحدة ضد إسرائيل، لكنها، بعد حرب عام ١٩٧٣ ثم توقيعها اتفاقية كامب دايفيد استُبعدت من المواجهة العربية ضد إسرائيل والمعارضة لها مقابل مساعدات عسكرية واقتصادية أمريكية، وبهذا تدعّم دور إسرائيل كأهم أصول الولايات المتحدة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من ذلك، فأثناء السبعينيات، كان اليسار الفلسطينى

العلماني والقوميون في الجبهة الأمامية للصراع ضد الصهيونية. كان لتلك المنظمات أيديولوجيات سياسية متنوعة تتراوح بين الشيوعية والقومية، وتتماهى مع حركات المقاومة في أنحاء العالم. كانت الحركات الماركسية الإيرانية، وتنظيمات حرب العصابات تتخذ من حركة فتح، ومعها حركات المقاومة الجزائرية والأمريكية اللاتينية والفيتنامية نماذج تحتذيها في صراعها ضد الشاه. تسلل بعض أعضاء هذه التنظيمات من إيران إلى معسكرات منظمة التحرير في لبنان. كانت المعسكرات الفلسطينية في لبنان تقوم بتدريب مقاتلين من جميع أنحاء العالم بما في هذا مجموعات حرب العصابات الإيرانية.

وعلى الرغم من هيمنتها لمدة عقد من الزمان، فشلت قيادة منظمة التحرير في إنجاز شيء بل وأُجبِرت، بممارسة ضغوط من الصهيونية العالمية، على عمل تنازلات لإسرائيل. في تلك الأثناء، كانت «معاهدة السلام» المصرية الإسرائيلية قد تزامنت مع قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. كان للشعار الذي أطلقته الثورة الإيرانية «إيران اليوم وفلسطين غدا» وما قدمته من مساعدات لمقاومة الهجمات الإسرائيلية على لبنان، كان لها أهمية ذات شأن بالنسبة للفلسطينيين. علق صالح وهو طالب فلسطيني ناشط من جامعة بيرزيت، بالقول:

«كانت ثورة ١٩٧٩ في إيران مهمة للمسلمين في المنطقة. اكتسبت كتب علي شريعتي شعبية في فلسطين وبدأ الكثيرون يوجهون النقد إلى الحركات الإسلامية في المنطقة لعدم إنجازها شيئا يذكر على حين تمكنت إيران من هزيمة الشاه ودولته العميلة للولايات المتحدة وصديقة إسرائيل. اكتسب الإسلام أهمية كقوة سياسية نتيجة للثورة الإيرانية».

تذهب لاله خليلي إلى أن كثيرا من المثقفين الفلسطينيين الذين كانوا

يؤمنون بالتحـرر القومي بدأوا يرون «تشـابها بين الخطابات التي تدعـو إلى قيام دولة قومية، والخطابات التحررية والخطابات الإسلامية؛ مثلا ألّف فتحى الشقاقى[1] كتابا بعنوان: «الخمينى: الحل الإسلامى والبديل» والذى أعلن فيه أن التوجه الإسلامى الخمينى هو الاستراتيجية الوحيدة للتحرير.

بعد ثورة ١٩٧٩، كشف سفير إسرائيل السابق فى إيران، أنه، وعبر السنوات، قامت جميع القيادات الإسرائيلية بزيارة الشاه بمن فيهم دايڤيد بن جوريون وجولدا مائير وإسحق رابين ومناحم بيجين وموشيه ديان. أنهى قيام الجمهورية الإسلامية هذه العلاقة وقام عرفات بزيارة الخمينى، وسحبت إيران اعترافها بدولة إسرائيل وطالبت بتحرير فلسطين والقدس. وقامت أيضا بقطع جميع علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل وتحويل مقر سفارة إسرائيل فى طهران إلى مقر لسفارة فلسطين. من ثم، تحولت تركيا إلى اللاعب الأساسى لحساب إسرائيل فى المنطقة وغدت الولايات المتحدة قوة مضادة لإيران وسوريا هناك.

ظهور حماس:

تاريخيا، منذ وقت طويل ظل للإسلام السياسى فى فلسطين أبعاد قومية فلسطينية معادية للاستعمار. كان للإسلاميين الفلسطينيين دور مهم فى الثورة المعادية للاستعمار التى اندلعت ما بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩. وبعد ذلك، تشكلت أفرع من جماعة الإخوان المسلمين فى القدس عام ١٩٤٦ وفيما بعد فى غزة ويافا وحيفا واللد والرملة. وأثناء حرب ١٩٤٨، قاتل أعضاء من الجماعة الإسرائيليين بدعم من متطوعى

---

(١) المهندس الفلسطينى العبقرى مؤسس حركة الجهاد الإسلامى والذى اغتالته إسرائيل. (الترجمة)

الإخوان من الأردن وسوريا. فى الضفة الغربية التى كانت تحت سيطرة النظام الهاشمى الأردنى، تبنى الإسلاميون المقاومة السلمية، أما فى قطاع غزة، فكان للإخوان المسلمين الفلسطينيين روابط وثيقة مع نظرائهم المصريين، وبمنتصف الخمسينيات كانوا قد أصبحوا قوة سياسية يعمل لها حساب هناك. بعد عام ١٩٦٧، وفيما كانت منظمة التحرير تشتبك فى نضال مسلح ضد الاستعمار، تركزت أنشطة الإخوان على توفير الرعاية الاجتماعية فى مخيمات اللاجئين والمناطق الحضرية الفقيرة. وفى هذا السياق، استطاعت المنظمة أن تعمل علنا دون خشية من انقضاض إسرائيل عليها. أيضا، كانوا قد عادوا إلى الظهور بأسلوب أكثر سرعة وقوة في غزة منه في الضفة الغربية، وذلك لأن منافسيهم من الشيوعيين والقوميين كانوا ضعفاء هناك.

فى عام ١٩٨٧ تأسست حركة المقاومة الإسلامية (حماس) أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩٣). فى البداية، أجرت الولايات المتحدة وإسرائيل اتصالات رسمية مع حماس على أمل أن تعمل قوة المنظمة المتنامية على تقويض منظمة التحرير القومية العلمانية وتأييدها الواسع. بيد أنه فى عام ١٩٨٩، أعلنت إسرائيل حماس تنظيماً غير قانونى. أيضا، أدى دعم منظمة التحرير لصدام حسين فى حربه ضد إيران إلى إضعاف العلاقات بين منظمة التحرير وإيران، وبالرغم من ذلك، واصلت إيران سياساتها المعادية للصهيونية والمؤيدة للفلسطينيين مع دعمها العلنى لحماس.

بدأت الانتفاضة الأولى فى ديسمبر عام ١٩٨٧ حينما هرب عدد من الأسرى الفلسطينيين من سجون الاحتلال بعد أن قتلوا جنديا إسرائيليا. وفى نفس الوقت، قام الإسرائيليون بقتل عدد من العمال الفلسطينيين

وإصابتهم أثناء عودتهم من العمل بالداخل الإسرائيلي. أدى ذلك إلى اندلاع احتجاجات جماهيرية في الضفة الغربية وغزة ومضى الصبية الفلسطينيون يقذفون جنود الاحتلال بالحجارة، وسرعان ما انضم جميع سكان غزة والضفة إلى الانتفاضة وإزاء ذلك فرضت إسرائيل بقيادة رابين عقابا جماعيا غير مسبوق على الفلسطينيين - بما في هذا الاعتقالات الجماعية والتعذيب وكسر العظام ومنع التجول وهدم المنازل - الأمر الذي أدى إلى سقوط عشرات آلاف القتلى والجرحى الفلسطينيين.

لعبت حماس دورا مهما في الانتفاضة بتعبئة أعضائها ومناصريها من خلال شبكة المساجد والجامعات. طالبت بإلغاء دولة إسرائيل وتبنت الكفاح المسلح ضد الاحتلال. أدى إصرار حماس على أن فلسطين التاريخية هي وقف إسلامي إلى قيام حملات حقوقية لاستعادة أملاك الأوقاف الإسلامية التي صادرتها إسرائيل. لقيت تلك السياسات والمطالبات شعبية لدى غالبية الفلسطينيين بالتقابل مع سياسات منظمة التحرير التي كانت قد وقّعت «إعلان الجزائر» عام ١٩٨٨، وبهذا، تخلت واقعيا عن هدفها الأصلي في إقامة دولة فلسطينية موحدة على جميع أراضي فلسطين التاريخية. أما من ناحيتها، فقد رفضت حماس ذلك الإعلان ومفهومه الأساسي القائم على حل الدولتين. كان هذا هو بداية التوتر بين حماس وفتح، فيما شعرت قيادة فتح بتحدي سلطتها. بحلول عام ١٩٩٢ كانت حماس قد أصبحت حركة مقاومة قوية في المناطق المحتلة. وكانت تلك هي فترة الترحيلات الجماعية وطرد الأكاديميين والأطباء والمهندسين ورجال الدين والمدرسين والعاملين في مجال الصحة والمثقفين الفلسطينيين إلى جنوب لبنان حيث قتل الإسرائيليون

الكثيرين منهم. أدى هذا إلى مقاومة أكثر عنفا ضد إسرائيل وإصرار على حق العودة حيث عملت تلك الترحيلات الجماعية واسعة المدى كتذكرة بعمليات الاقتلاع والنزوح فى عامى ١٩٤٨ و١٩٦٧. تدريجيا، طورت حماس من خلال أعضائها الذين رُحّلوا إلى جنوب لبنان علاقة أوثق مع حزب الله، ومن ثم مع إيران.

وكما فى حالة حزب الله، كان ظهور حماس كحركة مقاومة شعبية نتيجة مباشرة لسياسات إسرائيل والولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فى عام ١٩٩٣، وقعت منظمة التحرير اتفاقيات أوسلو التى استضافها الرئيس كلينتون وحيث صافح عرفات رئيس الوزراء الإسرائيلى رابين. زُعم أن تلك الاتفاقيات خطوة أخرى باتجاه حل الدولتين. وعلى الرغم من ذلك، أخذ عدد المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية وغزة فى التنامى، ومضى الإسرائيليون يقيمون حواجز الطرق ونقاط التفتيش ويشيدون جدار العزل العنصرى بهدف اقتلاع الفلسطينيين وجعلهم غير مرئيين. وفى واقع الأمر، فقد أضفت اتفاقيات أوسلو الشرعية على مصادرة الأراضى الفلسطينية ومصادر المياه، الأمر الذى يعنى أنه فيما يعانى الفلسطينيون من شح المياه يملأ الإسرائيليون أحواض السباحة فى منازلهم ونواديهم وتُزهر أحواض ورودهم. تتحكم إسرائيل فى حوالى ٩٠٪ من مياه الضفة الغربية وقد تم تحويل المياه إلى المناطق الاستيطانية فيما تُجفّف أراضى الفلسطينيين وأشجارهم.

يضطر الفلسطينيون من أجل الحصول على المياه لاستخداماتهم اليومية إلى شرائها من المستوطنين أو من دولة إسرائيل، وفى هذا الصدد يقول عمر من مدينة قلقيلية:

«إنهم مهتمون بقلقيلية بخاصة لأن فيها مصادر كبيرة للمياه. يمنعون

عنا مياهنا ويحرموننا منها لكننا مازلنا نقاوم بعد كل هذه السنوات. زرعوا على الجانب الآخر من الجدار ، جبلا من الزهور للتظاهر بأنه ليس ثمة جدار بين المستوطنين وبيننا».

أيضا، أنكرت اتفاقيات أوسلو حق العودة على خمسة ملايين لاجئ ومنفيّ فلسطيني. سهل هذا تجاهل كلينتون لقرار مجلس الأمن رقم ١٩٤ بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤٨ الذى ينص على حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم ووطنهم. علاوة على ذلك، كان لاعتماد فتح والسلطة الفلسطينية على المساعدات الخارجية والاستثمارات الخاصة وتمويل الولايات المتحدة لفتح ضد حماس أثر مدمر للاقتصاد الفلسطيني. تشكلت السلطة الفلسطينية برئاسة عرفات فى عام ١٩٩٢ واضطلعت بمهام الجيش الإسرائيلي فى غزة وأريحا، وفيما بعد، فى أجزاء أخرى من الضفة. وكما ذهب الراحل إدوارد سعيد، أصبحت منظمة التحرير بمقتضى اتفاقيات أوسلو، الآلية الأمنية نيابة عن إسرائيل العنصرية التى مضت قدما فى سياساتها التوسعية وتهميشها للفلسطينيين.

وفيما كانت شعبية منظمة التحرير تتراجع، كانت شعبية حماس تشهد تصاعدا وذلك لموقفها من إسرائيل. طوال عامى ١٩٩٥ و١٩٩٦، اتبعت حماس، بدعم من إيران نهج التفجيرات الاستشهادية الذى كان حزب الله قد اتبعه فى لبنان عام ١٩٨٢، وذلك لأنه كان الوسيلة الوحيدة المتاحة للفلسطينيين لردع هجمات إسرائيل المتصاعدة على الفلسطينيين العُزّل. كانت حماس أول تنظيم إسلامى سنى يتبنى استراتيجية التفجيرات الاستشهادية. ولهذا أهمية خاصة حيث إن فكرة التفجيرات الاستشهادية كانت قد ظلت غريبة على تنظيمات حرب العصابات

الفلسطينية العلمانية. ووفقا لما جاء على لسان نور ما شاء الله فى حديث معى:

«ظل مفهوم الاستشهاد سلاحا قويا فى صراع الفلسطينيين ضد الصهاينة والبريطانيين منذ فترة الانتداب، لكن ليس تكتيك التفجيرات الانتحارية. سُمِّى الجناح العسكرى لحماس، أى كتائب القسام، على اسم الشيخ عز الدين القسام الذى قتله البريطانيون هو وأتباعه فى معركة شهيرة فى الريف الفلسطينى، وساعد استشهادهم على إشعال الثورة الفلسطينية بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩. فى فترة ما بعد ١٩٦٧، غُطيت الجدران فى المدن الفلسطينية ومخيمات اللاجئين بالضفة الغربية وغزة بصور الشهداء وبأسماء أشخاص قتلوا وهم يقاومون الاحتلال الإسرائيلى. أيضا، يتغنى الفلسطينيون فى أهازيجهم بأسماء أكثر الشهداء شهرة وبخاصة الذين قتلهم البريطانيون أثناء انتفاضة الثلاثينيات».

وهكذا، وابتداء من التسعينيات، تبنى الفلسطينيون تكتيك التفجيرات الانتحارية (الاستشهادية) التى كانت قد ارتبطت بالشيعة وبلبنان. نفذت حماس أولى تلك التفجيرات فى أعقاب مذبحة ٢٩ فلسطينى أثناء صلاتهم فى الحرم الإبراهيمى بالخليل عام ١٩٩٣ على يد طبيب مستوطن إسرائيلى/ أمريكى يسمى الدكتور باروخ جولد ستاين. نفذت النساء الفلسطينيات أيضا تلك العمليات وكانت أولاهن (وردة؟) إدريس فى السادسة والعشرين من العمر، وآخرهن زينب على فى عام ٢٠٠٤، رأى كثير من الفلسطينيين فى تفجيرات حماس الاستشهادية ردًا على التصاعد الهائل فى أعداد القتلى الفلسطينيين على يد جيش الاحتلال الإسرائيلى، وكان رد حماس على تصوير الإسرائيليين للنضال

الفلسطيني على أنه إرهاب هو «توقفوا عن قتل المدنيين الفلسطينيين نتوقف عن قتل المدنيين الإسرائيليين». بالطبع، كان عدد القتلى الفلسطينيين على يد الإسرائيليين أضعافا مضاعفة لعدد القتلى الإسرائيليين. وكان شجب الإعلام والسياسيين الغربيين وإدانتهم للفلسطينيين أكثر قسوة بكثير من شجبهم للإسرائيليين [هذا إن شجبوهم]. وفي رد من إسرائيل على تفجيرات حماس الانتحارية في القدس، فرضت عقوبات جماعية على المناطق الفلسطينية المحتلة، وقامت هي والولايات المتحدة بممارسة ضغوط هائلة، على السلطة الفلسطينية التي تقودها فتح كي تقوم بقمع حماس. أدى هذا إلى تصاعد التنافس بين حماس وفتح في المدة بين عامي ١٩٩٤ و٢٠٠٠ حيث قامت قوات الأمن الفلسطينية بقتل أنصار حماس في غزة. أُنفقت ملايين الدولارات على الأنشطة الأمنية والبوليسية فيما لم يُنفق سوى أقل القليل على الشئون الصحية والتعليم والتوظيف. ألقى فلسطينيون كثيرون بالمسئولية على اتفاقيات أسلو التي أُجبرت عليها السلطة الفلسطينية وحولتها إلى قوة شرطة تعمل لصالح إسرائيل.

أدى تدهور الوضع الفلسطيني وعدم دعم الأنظمة العربية للفلسطينيين إلى تقوية العلاقة بين إيران وحماس، حيث إن إيران كانت قد ظلت الحكومة الوحيدة التي تدعم علناً الفلسطينيين في مواجهة إسرائيل. في عام ١٩٩٨، قام الشيخ أحمد ياسين، قائد حماس، بزيارة رسمية لإيران في عهد خاتمي وأثنى على إيران لدعمها الفلسطينيين. ثم ذهب، بعد تلك الزيارة إلى الإمارات والكويت وقطر وسوريا واليمن ووجه أثناء تلك الزيارات النقد لياسر عرفات لمباحثاته مع بريطانيا والولايات المتحدة واصفا إياها بأنها عديمة الجدوى.

بدأت الانتفاضة الثانية فى عام ٢٠٠٠ فى أعقاب اقتحام آرييل شارون المستفز للحرم القدسى الشريف فى محاولة إثبات أن إسرائيل تتحكم حتى فى الأماكن الإسلامية المقدسة. وكانت الانتفاضة أيضا ردا على فشل اتفاقيات أوسلو واستمرار بناء المستوطنات فى القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة. علاوة على ذلك، كان الاقتصاد الفلسطينى قد أُضعف بدرجة كارثية حيث بلغ معدل البطالة ٣١٪ وكانت نسبة ٤٧٪ من السكان يعيشون تحت خط الفقر. تحولت الانتفاضة الثانية هذه إلى مواجهات مسلحة مع الإسرائيليين واكتسبت شعبية كبيرة فى جميع الأوساط الفلسطينية بما فيها فتح ومؤيدو منظمة التحرير. وخلافا للاعتقاد العام لم تكن إيران هى مصدر الأسلحة المستخدمة، بل كان مصدرها مصر، هذا على الرغم من موقف الحكومة المصرية الرسمى، وأيضا السوق السوداء، وبعض قوى الأمن المستائين من الأوضاع. كما أن حماس طورت عمليات تصنيع محلى للأسلحة البدائية.

وفى بداية القرن الحادى والعشرين، طورت إدارة جورج دبليو. بوش علاقة أوثق بإسرائيل. حينما أصبح بوش رئيسا فى ٢٠٠١، كانت عملية سلام أوسلو قد انهارت وكانت الانتفاضة فى أوجها. كان آرييل شارون هو رئيس وزراء إسرائيل المنتخب وكان قد استخدم الحد الأقصى من القوة لسحق الانتفاضة. بعد ٩/١١، شنت إدارة بوش حربها على «الإرهاب» وحاول المحافظون الجدد فرض نسخة من الصهيونية أكثر تعصبا على السياسة الأمريكية/ الإسرائيلية فيما بدأ بوش يتحدث عن «دولة فلسطينية قابلة للحياة» لكنه وإدارته لم يأتوا بأية محاولة لمنع إسرائيل من بناء المزيد والمزيد من المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة،

ولم يكن ثمة ذكر للقدس ولحق العودة للاجئين. وفى بدايات عام ٢٠٠٣، أعلنت إدارة بوش «خارطة الطريق» للسلام الإسرائيلى/ الفلسطينى. اتفق عرفات وحماس على أن خارطة الطريق ليست فى صالح الفلسطينيين. لكن محمود عباس، رئيس الوزراء الفلسطينى وقتئذ، قبل بها ثم خلف عرفات بعد وفاته فى ١١ نوفمبر ٢٠٠٤، فى رئاسة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. يرى كثير من الفلسطينيين أن لغته التصالحية، تصب فى مصلحة الإسرائيليين لا الفلسطينيين، بما فى هذا تعليقاته حول التنازل عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين. قال لى أدهم اللاجئ الفلسطينى بدمشق والذى كان قد ظل طوال حياته مؤيداً لفتح، إنه قد فقد الثقة فى فتح والسلطة الفلسطينية وذلك لأن:

«فتح كانت فى الأصل حركة تحرر وطنى وكانت تمثل الفلسطينيين عن حق. وطوال عقود واجهنا الفشل تلو الفشل. من ثم، فقدت فتح ثقة الشعب، وذلك بسبب أساسى، هو ضغط الأنظمة العربية عليهم. فى السنوات الأخيرة، ظل محمود عباس يحاول التعاطى مع الولايات المتحدة بضغط من السعودية. لكنه، وبأسلوب منهجى، ماضٍ فى تقديم التنازلات ومزيد من التنازلات ولا يعمل لصالح الفلسطينيين. بالنسبة لى، فإننى أعتقد أنك إذا بدأت بتقديم التنازلات للعدو فليس ثمة عودة عن هذا الطريق وستمضى فى تقديم التنازلات حتى تجد نفسك فى النهاية تفعل ما يريدون منك فعله. أيضا، أفسدت الامتيازات المنظمة وقادتها. ولسوء الحظ، فقد ركز مؤتمر فتح فى عام ٢٠٠٩ على كيفية مواجهة حماس بدلا من أن يركز على كيفية النضال ضد عدوان إسرائيل المتصاعد على الفلسطينيين. لم يكن ثمة نقاش حول التعلم من الماضى وتشكيل رؤية للمستقبل. كان انتخاب مروان البرغوثى أمرا إيجابيا لكنه لن يحدث فرقا

إذ إنه أسير فى المعتقلات الإسرائيلية ولا يستطيع المشاركة فى صنع القرار. ولهذه الأسباب مجتمعة غدت حماس البديل الوحيد».

تمضى الولايات المتحدة وإسرائيل عن عمد فى إخفاء بُعْدِ التحرر الوطنى الذى هو جوهر أنشطة حماس ويعمدون إلى تصويرها على أنها منظمة إرهابية بل وتضمينها فى خطاب «الإرهاب الكوكبى». فى عام ٢٠٠٣، ألزمت حماس نفسها بوقف مؤقت لإطلاق النار استمر حتى عام ٢٠٠٥ بالرغم من استمرار إسرائيل فى شن غاراتها على غزة. وفى عام ٢٠٠٤، قامت إسرائيل باغتيال الشيخ أحمد ياسين ومعه تسعة فلسطينيين آخرين بواسطة طائراتها المروحية. كان هو خلف اقتراح الهدنة التى أدت إلى وقف إطلاق النار مع إسرائيل، فيما طالب بانسحاب إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧ وإعادة الأراضى الفلسطينية المستولى عليها والتخلص من المستوطنين اليهود وإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين، ورأى أن هذا هو السبيل الوحيد لوقف العمليات الاستشهادية. كان أيضا يعارض بقوة تطور حرب أهلية بين الفلسطينيين نتيجة التنافس بين حماس وفتح.

ومع أخذ هذه الخلفية فى الاعتبار، يرى الفلسطينيون أنه ليس ثمة حكومة فى المنطقة باستثناء إيران، وتركيا مؤخرا، تعارض علنا بشاعات إسرائيل. ومن أجل أن يستطيع القارئ فهم سبب شعبية حماس ودعم إيران لها، علينا أن نستوعب أولا مدى محاولات إسرائيل بدعم من الغرب اقتلاع الفلسطينيين، حيث تعمد منهجيا إلى زيادة عدد اليهود إلى الحد الأقصى وتقليص عدد الفلسطينيين إلى أدنى حد ممكن ورفض الانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧، كما أن جدار الفصل العنصرى ما هو إلا استمرار لعملية التطهير العرقى ويترك الجماعات الفلسطينية مشظاة

ومعزولة عن بعضها فى القدس والضفة والقطاع ومختلف أنحاء البلد. تشجع الدولة الصهيونية، كجزء من أجندتها، الهجرة إلى إسرائيل. تأتى أعداد كبيرة من فقراء المهاجرين من إفريقيا وروسيا وجنوب شرق آسيا ويستوطنون هناك. يُمنح ذوو الخلفية اليهودية جوازات سفر إسرائيلية. ويشكلون عمالة رخيصة ويعمل بعضهم حراس أمن، أو رجال شرطة أو يلتحقون بالجيش. تعطى إسرائيل هؤلاء المهاجرين الأولوية فى العمل، فيما ترفض، غالبا، تشغيل الفلسطينيين أو تعمل منهجيا على إذلالهم فى الأعمال التى تتيحها لهم. يمول الصهاينة فى إسرائيل والولايات المحدة بناء ما يسمى «المعبد الثالث» على موقع الحرم القدسى الشريف (المسجد الأقصى وقبة الصخرة) وهذا من شأنه أن يؤدى إلى تدمير المقدسات الإسلامية وإلى صراع محلى وإقليمى.

لم يحتجّ أى قائد عربى على أحداث العنف التى وقعت بالمسجد الأقصى فى أكتوبر ٢٠٠٩. فقط المرجع الشيخ حسين فضل الله هو الذى أعلن أن إسرائيل قد دخلت مرحلة جديدة لتهويد القدس بالكامل، وأن سياستها هى إنكار قداسة المسجد الأقصى بسماحها لجنودها باقتحامه. ألقى باللوم على الأنظمة العربية لمساعدتها إسرائيل على التوسع فى انتهاكاتها وقال إنها لم يكن باستطاعتها التمادى فى انتهاكاتها لو اتخذ العالم الإسلامى والعربى خطوة واحدة لوقف الاجتياحات الإسرائيلية. وفى مقابلة لى مع سامية من رام الله، قالت:

«إن الصهيونية أكثر سوءا من نظام الأبارتايد جنوب الإفريقى ومن أى نظام فاشى فى العالم. إن الغرب يدعمها بسبب عقدة الذنب من الهلوكوست. لا يتعلق الأمر باليهود المشرقيين من سكان المنطقة الأصليين فقد كان هؤلاء اليهود جزءا لا يتجزأ من سكان فلسطين. إن

مسألة من المسلم؟ ومن اليهودى؟ ومن المسيحى؟ هى ظاهرة جديدة خلقتها الصهيونية. يريدون إقامة دولة يهودية صهيونية خالصة نقية من أية عناصر إثنية أو دينية أخرى».

تقع سلوان خارج مدينة القدس القديمة مباشرة وكانت قد ظلت تاريخيا بلدة فلسطينية يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠٠ نسمة. نُقل إليها فى السنوات الأخيرة ٣٠٠ مستوطن مسلح، ووضعوا الأعلام الإسرائيلية فوق مبانيهم ويقومون، بصفة مستدامة، بتهديد سكان سلوان. يقول خالد الذى يعمل ضمن حملة لإنقاذ سكان سلوان والإبقاء عليهم:

«فى عام ٢٠٠٩، أصدرت الحكومة خارطة زائفة ومستقبلية للحى لتثبت أنه لم يكن ثمة سكان فلسطينيين بسلوان وأنها جزء مما تسميه «جبل المعبد اليهودى». سنقاتلهم إذ إنه ليس لدينا بديل عن هذا. هذا موطننا ولن نغادره».

منذ عام ٢٠٠٨ وإسرائيل ماضية فى تكرار مستويات عام ١٩٤٨ من تدمير المنازل الفلسطينية وإقصاء السكان الفلسطينيين. يعمل جدار الفصل العنصرى والخط الأخضر وإقامة مستوطنات جديدة على خنق المجموعات الفلسطينية بشكل يومى. يجبر عدم وجود أنشطة اقتصادية أو مدارس أو مستشفيات الناس على الرحيل. تصف فدوى الوضع كالتالى:

«يعزل الجدار بيوتنا عن أراضينا، ويفصل بين بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومستشفياتنا وأماكن عملنا. يهدفون إلى إصابة حياتنا بالشلل الكامل. لا نستطيع الذهاب إلى المستشفى أو المدرسة أو الجامعة أو مكان العمل بدون السفر لساعات طويلة والمرور من خلال نقاط التفتيش. وتلك مسافة لا يستغرق قطعها سوى بضع دقائق بالطرق المعهودة.

يقيمون أحيانا نقاط تفتيش مؤقتة ومتنقلة ليحولوا، عن عمد، دون وصول الطلبة إلى مدارسهم وجامعاتهم، وبخاصة فى أوقات الامتحانات. الجدار من الإسمنت فى بعض أجزائه، وفى أجزائه الأخرى يتكون من أسلاك شائكة أو حادة الحواف أو مكهربة مثبت عليها كاميرات. يعيش الناس معتقلين فى تلك المدن والبلدان والقرى. أغلقت طرقهم ولا يستطيعون الذهاب أو العودة إلا من خلال نقاط التفتيش الدائمة، أو المؤقتة والمتنقلة، أو حواجز الطرق بحيث لا يجد الناس فى أحوال كثيرة سبيلا لمغادرة قراهم أو العودة إليها لشراء الأطعمة والمستلزمات اليومية بمركباتهم. عليهم السير أميالا للوصول إلى المحلات ثم يكون عليهم حَمل السلع بأيديهم عودة إلى قراهم».

أخبرنى محمد الناشط القيادى فى حملة «أوقفوا الجدار» عن تجربة أسرته:

«لا يعطون تصاريح الانتقال من المنازل إلى الأراضى التى يفصلها عنها الجدار سوى لكبار السن الذين لا يستطيعون العمل بالأرض منذ عام ٢٠٠٣ وهم يرفضون إعطائى وأشقائى وشقيقاتى تصاريح للذهاب لنعمل بأرضنا. من ثم، جفّت أشجار الزيتون فى أرضنا لأن والدى البالغ من العمر ٧٥ عاما لا يستطيع رعاية الأرض أو المزروعات. المستوطنون مسلحون ويهاجمون الفلسطينيين ويحرقون منازلهم ويجبرونهم على الرحيل من منازلهم. مياه الصرف الصحى بالمستوطنات موجهة نحو أراضى الفلسطينيين وقراهم، وبهذا يدمرون المحاصيل الزراعية والبيئة. يعيدون كتابة التاريخ بتغيير أسماء القرى والمدن من أسماء عربية إلى أسماء عبرية من أجل التمويه والتظاهر أن هؤلاء السكان الفلسطينيين لم يكن لهم وجود أبداً».

كانت جهود ياسر عرفات تتركز على حل الصراع من خلال إقامة دولتين، كما أن حنان عشراوى، المتحدثة باسم الوفد الفلسطينى إلى مؤتمر مدريد عام ١٩٩١، وبعده، لم تتوقف عن محاولاتها لإقرار السلام. بيد أن تلك الجهود والتنازلات لم تقابل من الجانب الإسرائيلى سوى بالازدراء، وواصل الإسرائيليون بناء جدار الفصل وإقامة المستوطنات وخنق مصادر عيش الفلسطينيين. أتت رئاسة باراك أوباما عام ٢٠٠٩ معها بالتكهنات حول الضغط على إسرائيل لقبول فكرة إقامة دولة فلسطينية بشكل ما إلى جانب دولة إسرائيل. كانت تهنئته للإيرانيين بمناسبة رأس السنة الفارسية (٢١ مارس ٢٠٠٩- عيد النيروز) وخطابه بالقاهرة فى ٤ يونيو ٢٠٠٩ قد أثارا قدرا من الأمل. بيد أنه فشل فى إقناع إسرائيل بتجميد الاستيطان، ورفض نتنياهو حق العودة للفلسطينيين وأصر على بقاء القدس تحت السيطرة الإسرائيلية. رفض نتنياهو أيضا القرار الذى صوت عليه أعضاء مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة بإدانة العدوان الإسرائيلى على غزة فى يناير ٢٠٠٩، كما رفض طلب الولايات المتحدة فى مارس ٢٠١٠ بتجميد بناء المستوطنات والمنازل اليهودية فى القدس الشرقية. مثلت تلك المواقف صفعات جديدة لجهود أوباما من أجل حل الدولتين لدرجة أن قيادات فتح نفسها عبرت عن فقدان الأمل واعتقدت أن أوباما لا يستطيع مقاومة ضغوط اللوبى الصهيونى. ترى آن الكساندر وجون روز أن السبيل الوحيد لإنهاء الصهيونية هو اتباع سبيل إنهاء نظام الآبارتايد فى جنوب إفريقيا من خلال إجراء انتخابات على أساس نظام صوت واحد للشخص الواحد لكل سكان فلسطين وإنشاء دولة واحدة ديموقراطية يعيش فيها الجميع جنبا إلى جنب. قال لى الناشط الفلسطينى محمود:

«إننى متفائل. قد لا يحدث التغيير أثناء حياتى، لكن الفلسطينيين على استعداد للتضحية مائة عام أخرى للحصول على حقوقهم المشروعة. لقد جاء الصليبيون ورحلوا، وجاء البريطانيون والفرنسيون ورحلوا، وسيكون على المحتلين الحاليين أن يرحلوا. لابد لهذا الظلم أن ينتهى».

مشاركة حماس فى الحياة السياسية الانتخابية:

ورثت حماس فكرة المشاركة فى الانتخابات عن جماعة الإخوان المسلمين وحزب الله. منذ عام ١٩٩٢، تنافس أنصار حماس مع نظرائهم من فتح فى انتخابات الاتحادات المهنية واتحادات الطلبة. يتركز أنصار حماس بشكل رئيسى فى المناطق الحضرية فى أحياء الطبقة الوسطى والفقيرة معا وفى بعض المناطق الريفية. وفى عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥، فازت حماس فى الانتخابات المحلية بثلث المقاعد. كان فوز حماس الساحق فى الانتخابات فى يناير ٢٠٠٦ ذا أهمية خاصة. وفقا لخالد حروب، الأكاديمى والكاتب الفلسطينى، تتمتع حماس بتأييد نسبة تتراوح بين ٣٠٪ و٤٠٪ من الفلسطينيين ويقوم تأييد حماس على أساس الإحباط الذى يشعر به الفلسطينيون من العدوان الإسرائيلى العسكرى المتواصل وفشل السلطة الفلسطينية فى وقف جرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين. أنهت الانتخابات التشريعية احتكار فتح فى فلسطين، حيث أُجرى اقتراع عادل وديموقراطى شارك فيه عدد غير مسبوق من الأفراد. وفقا للنظام الانتخابى أصبحت حماس حزب الغالبية فى المجلس التشريعى الفلسطينى بحصولها على ٤٤٪ من أصوات الناخبين حيث فازت بأربعة وسبعين مقعدا من أصل ١٣٢ مقعد. فى انتخابات عام ٢٠٠٧ بغزة، هزمت حماس فتح [وبعد أحداث مؤسفة] سيطرت على قطاع غزة فيما ظل محمود عباس، رئيس السلطة ورئيس فتح مسيطرا

على الضفة الغربية ووزاراتها وقوات أمنها. صوت كثير من المسيحيين العلمانيين واليساريين والقوميين، والمسلمين من مختلف الأطياف لصالح حماس. كان هذا التأييد أيضا تصويتا على سحب الثقة من فتح ولإظهار المعارضة للولايات المتحدة. تقول أيلين قطب الأكاديمية بجامعة بيرزيت:

«ثمة عدد من القرى غالبية سكانها مسيحيون. كانت رام الله فى الأصل قرية مسيحية. يعيش مسيحيون كثيرون فى رام الله وبيرزيت والناصرة والقدس. صوتت عدد من القرى فى منطقة رام الله لصالح حماس لأنهم، وبشكل أساسى، كانوا بحاجة لتغيير الحكم. ثانيا، فهم يعتبرون الإسلام جزءا من ثقافتهم ولا يتناقض مع طموحاتهم القومية. ثالثا، لقد حُشروا فى معاقل ضيقة نتيجة للمستوطنات الجديدة وبتسبب الجدار ونقاط التفتيش فى معاناتهم. لقد استولى الصهاينة على معظم أراضينا ومنازلنا. سئم الناس من رياء الغرب والولايات المتحدة والسلطة الفلسطينية الفاسدة القامعة. أيضا، توفر حماس الخدمات الاجتماعية اللازمة لجميع المجموعات والأهالى».

طورت حماس علاقة وثيقة نسبياً مع منظمتين يساريتين هما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. فى انتخابات ٢٠٠٧، دعمت حماس مرشحيْن مسيحييْن وعينت مسيحيا وزيرا للسياحة فى مجلس وزرائها. أيضا، حققت فوزا ساحقا فى الانتخابات البلدية والطلابية والنقابية.

وكما أسلفنا، فإن التعبئة السياسية الجماهيرية للنساء أثناء الانتفاضتين الأولى والثانية أوضحت مرة أخرى فاعلية الفلسطينيات وأكدت على هويتهن. ومنذ وقت قريب، وفى نطاق حماس، ظلت النساء مرئيات فى التعبئة السياسية وظلت أصواتهن فى الانتخابات الجامعية

والمحلية والقومية من الأسباب الرئيسية لفوز حماس. يلعبن دورا مهما بخاصة فى مجالات التعليم والصحة، والمنظمات الخيرية، وأيضا فى الإعلام. ومثلما هو الحال بالنسبة لحزب الله، فليس لهن مواقع قيادية فى المستويات العليا السياسية أو فى صنع القرار. فى انتخابات ٢٠٠٦ التشريعية، ترشحت ١٣ امرأة وفقا لبرنامج حماس الانتخابى من بين المترشحات واللاتى بلغ عددهن ٦٦ امرأة؛ فازت سبع منهن بمقاعد، لكن حماس لم تعين فى مجلس وزرائها سوى وزيرة واحدة لشئون المرأة هى الأكاديمية ميريام صالح مؤسسة عدد من المنظمات النسائية فى الضفة الغربية.

وعلى الرغم من ذلك، تشجع عضوات المجلس التشريعي، والناشطات النساء على المشاركة فى الحياة السياسية والمطالبة بالمساواة بين النوعين. وترى هدى القناوى وجميلة الشنطى أن حماس ستتخلص من سياستها فى التفريق بين النوعين بمرور الوقت. جميع مرشحات حماس اللاتى فزن فى انتخابات ٢٠٠٦ مِهنيات متعلمات أو ناشطات أهليات. تنادى هدى النعيم التى انتخُبت عام ٢٠٠٦ لعضوية المجلس بإنهاء الزيجات الإجبارية وأعمال «القتل على الشرف» والأجور المنخفضة وعدم إرسال الفتيات إلى المدارس.

عارضت إسرائيل والولايات المتحدة وأوربا وفتح حكومة حماس المنتخبة ديموقراطيا، وقامت إسرائيل والولايات المتحدة فى أعقاب فوزها بتجميد كل التمويلات المرسلة إلى المناطق المحتلة. يعنى حصار إسرائيل لغزة وقف جميع الصادرات ووضع القيود المفرطة على الواردات مثلا، تقطع الكهرباء عن غزة، التى تضم مليون ونصف المليون شخص، لساعات عديدة يوميا. فى يونيو ٢٠٠٦، دعت حماس لتشكيل حكومة

وحدة وطنية لبدء تفاوضات السلام. وفى اليوم التالى، قصفت إسرائيل محطات الطاقة ومنازل المدنيين بذريعة الثأر لأسر الجندى جلعاد شاليط.

حماس وتوفير الخدمات والموارد:

توفر حماس المساعدات الاجتماعية والرعاية الصحية والمؤسسات الثقافية. والرياضية، وكلها ذات أهمية حاسمة فى حياة الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظل الاحتلال الإسرائيلى. وقد أسهم هذا فى زيادة الدعم الشعبى لها بدرجة هائلة. وعلى غرار حزب الله فى لبنان، تُنفَّذ هذه المساعدات بأسلوب شفاف من خلال المنظمات الخيرية والمساجد والاتحادات والمدارس والنوادى الرياضية. حاول الإسرائيليون بمساعدة من السلطة إغلاق مؤسسات حماس للعمل الاجتماعى وتجميد أرصدتها المصرفية. لكن تلك المحاولات وُوجهت بتظاهرات شارك فيها مئات الآلاف من الفلسطينيين بمن فيهم أنصار فتح والمسيحيون، والمجموعات العلمانية وغيرهم من متلقّى الخدمات التى توفرها حماس.

وبدون توفير تلك الخدمات من جانب حماس، لما تمكن فلسطينيون كثيرون من البقاء أحياء. يدفع الفلسطينيون الضرائب للدولة الصهيونية التى ترفض توفير تلك الخدمات. وفقا للقانون الدولى فإن إسرائيل تتحمل مسئولية توفير تلك الخدمات والموارد بصفتها قوة احتلال لكنها ترفض ذلك وتلقى بالمسئولية على السلطة الفلسطينية. بيد أن غالبية عائدات السلطة وموازنتها تذهب إلى تقوية الأجهزة الأمنية الفلسطينية التى كثيرا ما تستخدم لإخماد حركات المقاومة. أما الخدمات التى توفرها الأمم المتحدة ومعها عدد كبير من التنظيمات غير الحكومة فلا تجدى نفعا إذ إن الولايات المتحدة والرباعية الأوروبية تسمح لإسرائيل بإملاء نوع المساعدات المسموح بها. وفى واقع الأمر، يشعر كثير من

الفلسطينيين بالعداء تجاه وكالات الغوث والمساعدات لأنهم يرونها تنفذ الأجندة الصهيونية وتعمل على استدامتها. مثلا، قالت لى هنا فى حوار معها فى إحدى البلدان:

«أقامت وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية (يوسايد) هذه المدرسة طلبنا منهم ألا يبنوها فى مواجهة الجدار لأننا لا نريد لأطفالنا أن يبصروه على أساس يومى، لكنهم أصروا على بنائها فى هذا الموقع لكى يتقبله الأطفال كواقع ولا يقاوموه. يكره الناس فى القرية هذه الوكالة الأمريكية. ردّ الأطفال برسومات ضخمة على حائط المدرسة المواجه للجدار الصهيونى وكتبوا عليه «سنستمر فى المقاومة».

توضح تجارب الفلسطينيين بجلاء أن شعبية حماس مردّها الاحتلال الوحشى، وتهميش الغرب المنهجى لليسار العلمانى والقوميين.

وعلى غرار نموذج حزب الله اللبنانى، ظهرت حماس كحركة مقاومة مؤثرة، ووفرت الرعاية والخدمات الاجتماعية حيث فشلت الدولة فى الاضطلاع بهذا الدور المهم لصالح مواطنيها. بالطبع ثمة اختلاف بين حزب الله الشيعى وحماس السنية، واختلافات أخرى من حيث التشكيلة المختلفة للدولة والبنى الاجتماعية والسياسات التى يتبعها كل بلد منهما.

وكما فى حال حزب الله، يعتقد الغرب، مخطئا، أن تمويلات حماس تأتيها من إيران فقط. ظلت التمويلات، ولعدة عقود، تأتى حماس من بلدان فى المنطقة، بعضها موالٍ للولايات المتحدة وأخرى معادية لها (الكويت، إيران، السعودية، دول الخليج، السودان، والجزائر).

أثناء اجتياح العراق للكويت، دعمت منظمة التحرير العراق لكن حماس نقدته ووجهت اللوم أيضا إلى سياسة الولايات المتحدة بالمنطقة، وفى ضوء هذا، استمرت حماس تتلقى الأموال من إيران والكويت.

أيضا، شهدت تلك الفترة صعود الحركات الإسلامية. كما أن كثيراً من بلدان الخليج والمجتمعات ذات الغالبية المسلمة التى كانت تمول منظمة التحرير رأت فى حماس بديلا وحولت إليها دعمها المالى من أجل إضعاف المجموعة العلمانية وتقوية حماس. ويعتبر أثرياء رجال الأعمال المسلمين المصدر الرئيسى لتمويل حماس، كما تتلقى حماس أيضا أموالا من التنظيمات الإسلامية والأفراد فى الولايات المتحدة وأوربا. تُنقل جميع التحويلات المالية إلى حماس من خلال المصارف الغربية والإسرائيلية وتخضع لرقابة مشددة.

فى أغسطس ٢٠٠٩، سمحت إسرائيل بعدد محدود من الشاحنات التى تحمل الأطعمة بالدخول إلى غزة، كما استعاد «اقتصاد الأنفاق» بين مصر وغزة نشاطه. تشرف حماس على أنشطة تجارية واستثمارات مربحة وتمكنت من إنشاء شركة للتأمين وبنك، كما تقوم بشراء كثير من عقارات غزة. بيد أن «اقتصاد الأنفاق» يظل معرضا بدرجة كبيرة للضغوط المصرية والإسرائيلية المستدامة، كما ظلت حماس تواجه حصارا منهجيا من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والسلطة الفلسطينية. علاوة على ذلك، تواجه الحركة الآن شُحًا ماليا حادا إذ إنها ورثت من فتح ديونا مصرفية هائلة وهيئات بيروقراطية ضخمة تضم أكثر من ١٦٠٠٠٠ موظف، بما فى هذا القوات الأمنية الملتزمة بقمع أية حركة مقاومة.

كما تخضع حماس لعقوبات من جانب الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وإسرائيل فيما تمنع عنها إسرائيل ملايين الدولارات شهريا التى تجمعها من جباية الضرائب من السلطة الفلسطينية.

أثّر النقص الحاد الحالى فى الأموال إلى جانب الانقسامات بين

قيادات حركة المقاومة الفلسطينية على قدرة حماس على توفير الخدمات الاجتماعية. ونتيجة لذلك، أخذت نساء عديدات بزمام المبادرة وعملن مع جماعات قاعدية لتقديم الرعاية الصحية والتعليم وتوفير الفرص لممارسة الرياضة، وإقامة مشروعات للتمكين من خلال بناء الثقة وخلق التكافل والتلاحم. قالت لى أيلين قطب الأكاديمية والناشطة وعضو مركز بيسان للأبحاث والتنمية، قالت لى فى بيرزيت:

«إن بلدة بيسان جزء من فلسطين التاريخية. نعمل فى جنين والخليل ومختلف القرى ونربطها ببيسان. نحاول إيقاظ الوعى بالتحدث إليهن/ إليهم عن حركة المقاومة وعن مقاطعة السلع الإسرائيلية. نتبع نهج باولو فريرى لتعليمهم أن يقاوموا. نحاول تعزيز مفاهيم الاعتماد على الذات و التنظيمات ذات الأسس المجتمعية ومن خلال العمل التشاركى نساعد الناس على البقاء، وفى هذا السياق تبرز أهمية حزب الله لنا لأنهم تمكنوا من توحيد مختلف المجتمعات والطوائف».

هدى، أكاديمية وناشطة بجامعة القدس، وهى عضو منتخب فى الرابطة النسائية بالقدس الشرقية. تحاول تلك الرابطة توفير التعليم والرعاية الصحية ومساعدة الأسر على حل مشاكلها اليومية. علّقت بالقول:

«ثمة جمعيات نسائية كثيرة فى فلسطين تديرها فتح وحماس والتنظيمات السياسية الأخرى. بيد أن الإسرائيليين يضعون عقبات هائلة فى طريقنا. ولهذا السبب، تعمل بعض هذه الجمعيات مع النساء فى القدس الشرقية من أبوبيس. نستطيع العمل بمزيد من الفاعلية ونحن خارج نطاق التحكم الإسرائيلى نقوم بإقامة الشبكات مع الجمعيات النسائية الأخرى أيا كانت توجهاتها وارتباطاتها السياسية (فتح، حماس، الجهاد، الجبهة الشعبية..) نعمل معاً لسد احتياجات النساء».

الحروب الإسرائيلية توحد الفلسطينيين ضدها:

كما أسلفنا فى الفصل الرابع، كان هدف إسرائيل من الهجوم على حماس وحزب الله عام ٢٠٠٦ هو إثبات أنها على استعداد لتدمير أية منظمات تتحدى قوتها العسكرية وسيطرتها على المنطقة. كانت أيضا رسالة غير مباشرة إلى إيران وسوريا عما ينتظرهما إذا لم تسيرا فى ركاب سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة. صرح إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل وقتئذ، أن الهجوم العسكرى الشامل على غزة كان يهدف إلى تحرير جلعاد شاليط. وعلى هذا الأساس هاجموا محطات توليد الكهرباء وتركوا غزة فى ظلال شامل، أطلقوا الصواريخ على الجبهات المدنية بما فى هذا أحد الملاعب، وموكب جنائزى، وعلى أطفال كانوا يلعبون على الشاطئ.

عُرفت حرب عام ٢٠٠٩ على غزة بمذبحة غزة. شنت إسرائيل هجوما عسكريا استخدمت فيه القنابل العنقودية على المناطق السكنية المدنية بذريعة ردها على إطلاق الصواريخ على جنوب إسرائيل [لم تحدث سوى أوهى الإصابات] وبزعم تهريب السلاح إلى غزة قتلوا ١٤٠٠ فلسطينى [بخلاف عديد المصابين والمشوهين] وأصبح ٤٠٠٠٠٠ من سكان غزة بدون مياه جارية، وهدِم ٤٠٠٠ منزل أو دمرت تدميرا شديدا مما ترك عشرات الآلاف بدون مأوى. قصفت ٨٠ مبنى حكوميا، وقُتِل مدنيون عزّل كانوا يرفعون الرايات البيضاء. استخدموا الفلسطينيين دروعا بشرية فى خرق فاضح للمواثيق الدولية. استهدفت القوات الإسرائيلية قواعد حماس، ومعسكرات تدريب الشرطة، ومقار الشرطة، والمكاتب، والبنية الأساسية المدنية بما فى هذا المساجد والمنازل والمرافق الصحية والمدارس بزعم أن تلك المبانى يستخدمها مقاتلو حماس مخازن للأسلحة

والصواريخ. وفقا للصليب الأحمر فإن الآلاف الذين دمرت منازلهم فى هذه المذبحة مازالوا بدون مأوى فى عام ٢٠١٠ على الرغم من التعهدات بتقديم مساعدات تبلغ ٤,٥ مليار دولار، وذلك لأن إسرائيل ترفض السماح بدخول الإسمنت ومواد البناء الأخرى إلى قطاع غزة. مازالت المستشفيات تواصل النضال من أجل توفير احتياجات الحد الأدنى لمرضاها بسبب منع إسرائيل وصول الإمدادات الطبية، كما أن ٩٥٪ من مياه غزة لا توفى بمعايير منظمة الصحة العالمية علاوة على ذلك، فإن وجود نسبة عالية جدا من النيترات فى إمدادات المياه تعرض آلاف المواليد لخطر التسمم. تحظر إسرائيل على وكالات العون والإغاثة الاتصال بحماس بتاتا ويعنى هذا عجز هذه الوكالات عن إصلاح مرافق المياه والمرافق الصحية.

أثناء الحرب على غزة حدثت ثلاث هجمات على إسرائيل من جنوب لبنان من مؤيدى حزب الله[1]. وحدت الحرب على غزة الفلسطينيين ضد إسرائيل. صرح لى يوسف، المدرس بالقدس الشرقية وأحد نشطاء فتح، قائلاً:

«إن ما يحدث من شقاق داخلى بين الفلسطينيين هو شأن النخب السياسية ولا علاقة له بعامة الناس الذين يشعرون أن قيادات الفريقين يغشونهم. عدونا الوحيد هو إسرائيل سواء كنا من مناصرى فتح أو حماس أو الجهاد أو الجبهة الشعبية أو الشيوعيين. قاتلنا فى غزة موحّدين ضد إسرائيل عملا بالمثل القائل «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب».

السياسات الإسرائيلية تعمل على تقوية حماس وإيران:

الفلسطينيون هم أكثر شعب علمانى فى المنطقة ومازالت توجهاتهم

(١) نفى حزب الله أن تكون له أية علاقة بهذه الهجمات. (الترجمة)

القومية العلمانية إحدى سماتهم الغالبة وليس ثمة سياسات طائفية أو مذهبية في فلسطين. من ثم، فإن تأييدهم لحزب الله، وإيران، وحماس، يمكن تفسيره فقط على أساس ما حققه حزب الله من نجاح في لبنان حيث استطاعت مقاومته الباسلة دحر القوات الإسرائيلية من لبنان عام ٢٠٠٠، منذ غزو العراق عام ٢٠٠٣، عمد الإعلام الموالي للغرب والإسرائيلي على التركيز على الانقسام الشيعي/ السني بهدف إضعاف النسيج المجتمعي في المنطقة وضمان أن تصبح إسرائيل القوة الوحيدة هناك. وعلى الرغم من هذه الدعاية، فحينما انتصر حزب الله في الحرب ضد إسرائيل عام ٢٠٠٦، ترك هذا الانتصار أثرا عميقا على الفلسطينيين مرة أخرى وظهر التأييد الحماسي لحزب الله وإيران وكأن ليس ثمة وجود للانقسام المذهبي حيث إن كرامتهم وهويتهم الوطنية أهم كثيرا من الفروق الشيعية/ السنية. في هذا الصدد، تقول إصلاح جاد من جامعة بيرزيت:

«أثناء الحرب رأى الناس الحريري السني الذي يدعمه الغرب غير آبه بهجمات إسرائيل على لبنان. وفي المقابل، وحّد حزب الله المسيحيين والفلسطينيين السنة ضد إسرائيل. وفي هذا السياق، غدا حزب الله ونصر الله بالنسبة لغالبية شعوب المنطقة هم قادة الأمة العربية منذ ٢٠٠٦. علّق الناس صور نصر الله في بيوتهم ومحالهم التجارية ويحملون علم حزب الله وصور نصر الله أثناء تظاهراتهم ويهتفون به قائداً لهم. وذلك لأن حزب الله ونصر الله يتحدون إسرائيل عدو الفلسطينيين واللبنانيين وينتصرون عليها ويؤكدون على عزة العرب وكرامتهم. بعد الحرب، بدأت السلطة الفلسطينية تتحدث لغة مذهبية مرة أخرى وتؤكد على الانقسام الشيعي/ السني وتروّج أن الحرب كانت

بسبب سيطرة المذهب الشيعى على المذهب السنى وثقافته فى المنطقة. بدأ الناس يتساءلون عن سبب عدم مناصرة أى قائد سنى عربى للفلسطينيين ضد الإسرائيليين. نتيجة لذلك، أدركوا أن الصراع لا علاقة له بالدين أو المذهب بالرغم من دعاية الإعلام الغربى والصهيونى والعربى، بل إنه يتعلق بمن يريدون الخضوع لإسرائيل وحلفائهم الغربيين ومن يرفضون مثل هذا الخنوع، وبمن يناصر الفلسطينيين فى مواجهة الجرائم الإسرائيلية ومن لا يناصرهم».

يُعجَب كثير من الفلسطينيين بتعددية حزب الله ويرون هذا توجها إسلاميا حداثيا ونموذجا جديرا بأن يحتذى. يعنى هذا أيضاً أن غالبية الفلسطينيين لا يؤيدون تنظيم القاعدة أو بن لادن أو غيرهم من المسلمين المتعصبين. يمثل تعاون حماس وحزب الله الوجه الجديد للإسلام السياسى غير المتعصب أو المحافظ، بل التعددى الذى يركز على النضال ضد الصهيونية والإمبريالية، والذى اكتسب شعبية كبيرة فى المنطقة. مى، هى عضو فى تنظيم «ابن البلد» العلمانى الديموقراطى الذى يدعو إلى حل الدولة الواحدة، أى الحل الذى كانت منظمة التحرير قد تبنته لدى إنشائها. عندما التقينا قالت إن:

«حزب الله اكتسب شعبية فى فلسطين منذ عام ١٩٨٢ لأنهم تحالفوا مع المسيحيين والدروز والفلسطينيين السنة فى لبنان؛ ظلوا يدعمون كل حركات المقاومة، وليس حماس فقط، ودعوا إلى الوحدة بين جميع الفصائل والحركات فى فلسطين. نرى فى لبنان تعاونا بين حزب الله والقوى الأخرى بما فى هذا اليساريون والمجموعات العلمانية. ونرى فى غزة أيضا تعاونا بين حماس والمجموعات الأخرى بما فى هذا مجموعات مناصرى فتح القاعدية. وفقا لمناصرى فتح والجبهة الشعبية فى غزة، فإن

حماس تتعلم من غالبية مناصريها أنه ليس بإمكانهم فرض أساليبهم المتشددة على مناصريهم وأن عليهم أن يكونوا متسامحين فى البداية، فرضوا على النساء، ارتداء الحجاب، لكنهم عدلوا عن فرضه فيما بعد. والآن، تؤيد الكثيرات من غير المحجبات حماس فى غزة وأنحاء فلسطين الأخرى».

وكما أسلفنا فى الفصل الرابع، فإن التناقضات المتأصلة فى موقف حزب الله الدينى/ السياسى ومعها الضغوط من جماهير القاعدة أدت إلى تغيير طبيعة التنظيم. مازال من غير الواضح ما إن كانت حماس ستتغير بنفس الدرجة. إن الدافع الدينى لدى حماس جلىّ وقوى، من ثم، يعترى القلق كثيرا من الفلسطينيين حول نوايا حماس لأسلمة المؤسسات الفلسطينية العلمانية سياسياً والليبرالية اجتماعياً وإحلال أجندتها المحافظة اجتماعياً محلها. أوضح لى عمر البرغوثى أحد الأعضاء المؤسسين للجنة «الحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل أكاديمياً وثقافياً». أوضح لى فى رام الله:

«يمكن أن يكون للنسخة الوهابية من الشريعة أثر ساحق وبخاصة أن من يدعمها هى الأسرة المالكة السعودية الأتوقراطية، والقامعة ثقافيا، والتى تملك موارد مالية هائلة تمكنها من تمويل نشر آرائهم الإسلامية عصر الأوسطية. فى اعتقادى أن مفهوم الاجتهاد الشيعى كان له أكبر الأثر فى انفتاح حزب الله على التحالفات مع المسيحيين فى لبنان، والفلسطينيين السنة، والقوميين العرب والعلمانيين، بل والماركسيين أيضا. لكن قيادات حماس من جهتها لم تظهر مثل هذا التوجه ناهيك عن خلق شراكة حقيقية مع القوى السياسية أو النشطاء السياسيين من ذوى الأيديولوجيات التى لا تتناغم مع أيديولوجيا حماس. يُوظّف حزب الله

مهنيين بعضهم شيوعيون ومسيحيون ونساء غير محجبات فى شبكات مدارسهم ومراكز الرعاية الصحية الواسعة التابعة للحزب، لكن حماس لا تفعل ذلك. لقد أثبت حزب الله وفقا لمعظم المعايير، وعلى الرغم من أى نقد قد يوجه إلى آرائه الإسلامية على المستويات الاجتماعية/الثقافية والفكرية، أثبت أنه أكثر حركات المقاومة تقدما وتطورا ورقيًا فى التاريخ الحديث العربى والعالمى. منذ عام ٢٠٠٦، عوّقت حركة حماس واقعيا تطور المراكز الفنية والثقافية فى غزة. مثلا، كانت موسيقى ورقصات وأغانى الـ Hip- hop مزدهرة كشكل من أشكال التعبير الثقافى فى مخيمات اللاجئين المكتظة، والآن تخضع تلك الأغانى لرقابة صارمة وتفرض القيود على عروضها من قبل حماس. كما تخضع المسرحيات للرقابة المشددة والحظر. انقرض الرقص تماماً من غزة باستثناء بعض العروض الفولكلورية الباهتة لفرق ذكورية بالكامل. وفى هذا، فإن حماس تُظهر توجها وهابياً ظن الكثيرون أنها قد نبذته - أو أصلحته بشكل شامل حينما تحولت الحركة عن أصولها المرتبطة بالإخوان المسلمين إلى حركة مقاومة قومية فلسطينية رئيسية لها توجه إسلامى معتدل».

وفى رد على هذه الاتهامات، أعلنت حماس مراراً أنها لن تفرض أية ممارسات دينية على الفلسطينيين. وفى واقع الأمر، فإن المجتمع الفلسطينى يتميز بالتنوع ويضم العلمانيين والمتدينين والمسيحيين والمسلمين الذين تعايشوا معا لقرون طويلة. يناصر غالبية هؤلاء السكان حماس بصفتها حركة مقاومة ضد إسرائيل، ولأنها توفر الخدمات والرعاية الاجتماعية، لكنهم لا يؤيدون أجندتها الدينية.

علاقة إيران بحماس:

علاقة إيران بحماس متعددة الأبعاد: سياسياً وأيديولوجيا وثقافياً.

تتعلق على المستوى السياسى بعزلة الفلسطينيين فى العالم العربى. وقد نشأت تلك العلاقة فى سياق فشل الأنظمة العربية فى نصرة الفلسطينيين من ثم، يرى كثير من الفلسطينيين أن إيران هى البلد الوحيد الذى يدعمهم. ومثل حزب الله، تقيم حماس علاقات دبلوماسية مع إيران، ولها مكاتب ومتحدثون باسمها هناك، وتعمل على كافة المستويات السياسية والإعلامية. لكن تختلف علاقة إيران بحماس على نظيرتها مع حزب الله التى نشأت على أسس دينية/ تاريخية ولها أصول فى الأيديولوجيا الشيعية، أما علاقتها بحماس فهى نوع من الاتحاد السياسى. تقيم حماس روابط مماثلة مع سوريا والسودان وليبيا ولبنان، وتتمتع أيضا بدعم دول مثل مصر والسعودية وقطر والكويت لكنه من نوع مختلف. تدعم الدول الموالية للغرب والولايات المتحدة حماس لتجابه النفوذ السورى/ الإيرانى. استقبلت دول أخرى مثل باكستان وماليزيا وإندونيسيا وتركيا وفودا من حماس دعما للفلسطينيين.

وعلى النقيض مما يزعم السياسيون والإعلام الغربى الذين يربطون بين المنظمة وإيران، فإن حماس، وتحت تأثير الإخوان المسلمين، تبدى إعجابا خاصا بالأحزاب الإسلامية المعتدلة الحاكمة فى تركيا وماليزيا أكثر من تأثرها بإيران وإعجابها بها. وقد قام كبار المسئولين فى حماس بزيارة تلك البلاد التى أرسلت دبلوماسييها للتواصل مع حماس. ولهذه الروابط الرسمية أهمية خاصة لدى حماس التى تحاول تغيير صورتها التى روجها الغرب كـ«منظمة إرهابية»، وأن تحل محل منظمة التحرير كممثل للفلسطينيين. وفى نفس الوقت، فإن علاقتها بالمعسكرات المناهضة لإسرائيل والولايات المتحدة مثل إيران تساعدها إلى درجة كبيرة على جمع الأموال. وتعبئة الرأى العام فى صفها بالمنطقة وخارجها.

ينقسم الفلسطينيون حول دعم إيران لحماس. تذهب تانيا التى تعرِّف نفسها كعلمانية قومية يسارية وناشطة نسوية من خلفية مسيحية إلى أن:

«لإيران أجندتها الخاصة فى الشرق الأوسط، لكننى أفضل دورها على دور الولايات المتحدة. بالنسبة لى، فإن عدوى الحقيقى هو الصهيونية وليس إيران. ومن هذا المنطلق فإننى أدعم إيران وحماس. علينا التوحد ضد الاستعمار. بالطبع يساورنى القلق بشأن أحكام الشريعة التى تلتزم بها حماس وإيران. لكننا لكى ننتصر علينا البحث عن تحالفات. نعانى معاناة هائلة من الاحتلال، وقد استطاعت حماس وحزب الله وإيران التصدى للصهيونية».

لكن قيادات فتح تتهم حماس باتباع إيران الشيعية، وأجندتها. أوضح لى أحد عناصر فتح، واسمه عمار، من القدس الشرقية أن:

«إيران أصبحت مهمة بعد ثورة ١٩٧٩، وبخاصة بعد زيارة عرفات لطهران. لكننا نشعر الآن أن دعم إيران لحماس يساعد على تقسيم الصف الفلسطينى. إن الحركة فى فلسطين لا تقتصر على حماس فقط، فهناك فتح والشيوعيون والجهاد وحماس. تدعم إيران حماس لأن لها أجندتها للسيطرة على المنطقة من خلال أيديولوجيتها الشيعية. إن لدعم الولايات المتحدة لفتح وإيران لحماس آثارا سلبية على الحركة الفلسطينية. إن التقسيم السنى الشيعى فى المنطقة خطر، وتفاقم إيران هذا الوضع. ليست هذه التحالفات لصالح الشعب الفلسطينى لأن لكل طرف أجندته. إن وحدة صفوف فتح وحماس إيجابية فقط حينما تتخلص جميع الأطراف من أجندات سائر حكومات المنطقة. إن وحدة الشيعة والسنة والمسيحيين واليهود أمر إيجابى لكن الحكومات تستغل الدين لتقسيم الشعب. علينا تحرير أنفسنا بجهودنا الذاتية. نجحت الثورة

الإيرانية لأنهم قاموا بأنفسهم ونجحت الانتفاضة الأولى لأن الشعب الفلسطينى كان هو من قام بها، أما الانتفاضة الثانية فلم تنجح لأن القادة الفلسطينيين سيطروا عليها، كل لأجندته الخاصة».

لا توافق إصلاح جاد، الأكاديمية بجامعة بيرزيت على هذا الرأى:

«ترجع الانقسامات الداخلية داخل الصف الفلسطينى إلى أن الولايات المتحدة وإسرائيل تضغطان على السلطة الفلسطينية لتظل سلبية فى مواجهة الاحتلال الوحشى لأرضنا والإذلال اليومى لنا. ومن هذا المنطلق يرى الفلسطينيون إيران وحزب الله وسوريا إلى جانبهم بالرغم من الاختلاف المذهبى. قبل عام ١٩٧٩، كان الشاه يتحكم فى جانب من المنطقة وإسرائيل فى الجانب الآخر ومنذ سقوطه وإسرائيل تحاول أن تسيطر على المنطقة بأسرها. لا يمكن لشعوب المنطقة القبول بذلك، ليس بسبب الدين، بل بسبب مخططات الصهاينة وما يرتكبونه من جرائم، بدعم من الغرب، ضد الفلسطينيين. يسائل الناس أنفسهم: ما أجندة إيران؟ إذا كانت هى التصدى لإسرائيل، إذن فهم يرحبون بها ويتبعونها».

ليست إيران وحزب الله هم وحدهم من يتمتعون بتلك الشعبية. أثناء الحرب على غزة كان الناس يرفعون العلم الڤنزويلى وذلك لدعم أوجو تشافس الفلسطينيين ضد إسرائيل. وفى يناير ٢٠٠٩، اندفع رجب طيب أردوغان، رئيس الوزراء التركى وغادر القاعة أثناء مناقشة وضع غزة بالمنتدى الاقتصادى العالمى بدايڤوس (فى احتجاج منه على رئيس الكيان الصهيونى حيث رفض أردوغان الجلوس إلى جواره أو مصافحته). كان هذا احتجاجا شفاهيا سياسيا على الحرب على غزة. لدى عودته إلى إسطنبول، لقى أردوغان استقبال الأبطال، الأمر الذى

يعكس المعارضة المتنامية من جانب الشعب التركى لعلاقات البلد الطيبة مع إسرائيل. وفى اليوم التالى، اتخذ الفلسطينيون منه بطلا، وارتفعت صوره مع العلم التركى فى المحال التجارية والشوارع. أيضا أصدر حزب الله بيانا أشاد فيه بخطاب أردوغان أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠٩، ووصف البيان خطاب أردوغان بأنه شجاع وملتزم بالقضايا الدولية وبخاصة القضية الفلسطينية. أثنى عمار الموسوى رئيس العلاقات الدولية بحزب الله أيضا على دعوة أردوغان للمجتمع الدولى بالتركيز على ترسانة إسرائيل النووية بدلا من برنامج إيران النووى، وأضاف الموسوى إنه يأمل أن تتبع البلاد العربية خطى أرودغان.

وكما يوضح كثير من الفلسطينيين، تتداخل السياسة والدين فى المنطقة. فللمرة الأولى. منذ جمال عبدالناصر، يسمع الشعب فى فلسطين وما حولها صوتا يتصدى للجرائم التى ترتكبها إسرائيل والولايات المتحدة فى فلسطين. ومن هذا المنطلق، غدت إيران قوة بديلة للولايات المتحدة بالمنطقة. يرحب الفلسطينيون بدعم إيران لهم فى قتالهم ضد الصهيونية والاحتلال، لكنهم لا يريدون لها الهيمنة على المنطقة بحيث تحل الأيديولوجيا الشيعية محل القومية العربية. يرون أن العراق بلد عربى دمره الأمريكيون وأن إيران متواطئة فى تدميره. لكنهم يرون دور إيران مسألة تقبل الجدل، فيما يرون موقف القادة العرب الذين يؤيدون الولايات المتحدة وإسرائيل علنا [والذين ساهموا فى غزو العراق واحتلاله] مشينا مُخزياً. تركزت جميع جهود الأنظمة العربية على تصوير إيران على أنها العدو، وليس إسرائيل. وقد بدأت بعض تلك الحكومات تدرك الآن أنه من المحتمل لغضب شعوبها التى تعانى من إخضاعها

لبشاعة الصهيونية والإمبريالية، الإطاحة بها. يناظر هذا وضع حماس: يدعم الناس حماس ليس لأنها متدينة أو متعصبة، بل لأنها حركة المقاومة الوحيدة الفاعلة:

يقول أسامة الناشط فى مدينة حيفا:

«تمثل إيران نموذجا جديدا على الجماهير العربية التى اعتادت أن تربط الحضارة والتنمية بالغرب والغربنة. فى السنوات الأخيرة، أمدتنا إيران بنموذج جديد للتنمية والحضارة. سئم الناس نفاق الغرب وهم يبحثون الآن عن حضارة إسلامية، أو شرقية أو شرق أوسطية».

وعلى الرغم من دعم إيران القوى فى فلسطين، فقد أثارت احتجاجات ما بعد انتخابات ٢٠٠٩ فى إيران تساؤلات لدى كثير من الفلسطينيين. وعلى الرغم من تشكك الكثيرين نتيجة لدعم الإعلام الغربى والإسرائيلى والعربى الرسمى لحركة الديمقراطية فى إيران وتساؤلاتهم عما إن كان هدفها هو زعزعة البلد، فإن الغالبية يتعاطفون معها. أخبرنى رفعت، الناشط الفلسطينى الذى يعيش فى لندن قائلاً:

«ظللنا دائما ننقد دور إيران فى العراق. والآن، يثير اضطهاد، نشطاء الديموقراطية فى إيران سؤالا لدينا: كيف لنا أن نثق فى نظام لا يمكن لشعبه محاسبته؟ إذا لم يكن باستطاعته النزول على رغبة شعبه، فكيف له أن يؤازرنا. من المؤكد أن خطابهم بعد الثورة كان مهما، لكن خطابهم الحالى لا يفيد الفلسطينيين».

حماس فى السلطة:

تختلف حماس فى السلطة عن حماس فى المعارضة، كما أنها ليست منظمة ذات بعد واحد: لها جناحها العسكرى، وجناحها السياسى، وجناحها الدينى. استخدمت حماس العنف ضد إسرائيل وضد فتح،

لكنها، وكما أسلفنا فى الفصل الرابع فقد خاضت الانتخابات وفقا لبرنامج مؤسس على القانون والنظام والرفاه الاجتماعى. قبل الانتخابات، ألغت حماس من برنامجها الدعوة إلى تدمير إسرائيل، مقتربة بذلك من برنامج فتح الذى كانت قد أدانته. ومنذ الانتخابات، عمدت إلى تخفيف لهجة موقفها القومى الداعى إلى تحرير فلسطين من النهر إلى البحر. كتب محمد الزهار، وزير خارجيتها، إلى كوفى أنان، أمين عام الأمم المتحدة وقتئذ، يعلن أن حكومته على استعداد للقبول بحل الدولتين على أساس حدود ٤ يونيو ١٩٦٧، وبدولة ذات سيادة حقيقية وعاصمتها القدس. من ثم نجد أن المنظمة تتحرك باتجاه القومية البرجماتية، وبعيدا عن التوجه الإسلامى القتالى مما يمثل مصدراً للقلق لكثير من الفلسطينيين. أخبرتنى ليلى، الناشطة الفلسطينية بلندن:

«إن الأحاديث مؤخرا عن الاعتراف بدولة إسرائيل سقطت كالقنبلة على رءوس الفلسطينيين وغالبية شعوب المنطقة. إذا لم تكن الفكرة هى تمثيل طموحات الفلسطينيين بل الرقص على أنغام الولايات المتحدة، إذاً فإن فتح هى النموذج الأفضل للعب هذا الدور. كان من المفترض لحماس تبنى الرؤية السياسية للفلسطينيين وأجندتهم والعمل وفقها. لكنها الآن تبتعد عن هذا النموذج وتعتنق نموذج فتح. إذا لم تلتزم حماس بالتصرف وفقا لطموحات الشعب الفلسطينى وهى فى السلطة، فستفقد صورتها كحركة مقاومة».

أيضا، فقد حدث تعديل فى الموقف الإيرانى. صرح آية الله الخامئنى عام ٢٠٠٦، أن لإيران والبلاد العربية رؤية مشتركة حول القضية الفلسطينية، مضمرا بذلك أن إيران تقبل المبادرة العربية التى أُعلنت فى قمة بيروت عام ٢٠٠٢ والتى تدعو إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل

مقابل رجوعها لحدود عام ١٩٦٧. وعلى الرغم من أن السيد حسن نصر الله مازال يعلن أن حزب الله، كتنظيم لبنانى، لن يعترف أبدا بشرعية الكيان الإسرائيلى أو وجوده، فقد قال إنه لن يعارض أى قرار فلسطينى يؤيد حل الدولتين.

كان فوز حماس فى انتخابات ٢٠٠٦ مهما بالنسبة لإيران إذ إن علاقاتها مع الحكومة العراقية والسورية، ومع حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين تشكل لها كتلة قوية فى مواجهة السياسات الأمريكية والإسرائيلية فى المنطقة. يضع هذا الدعم، ومعه دعم القاعدة الجماهيرية بالمنطقة لإيران، يضعها فى وضع قوى للدفاع عن نفسها ضد أى هجوم محتمل من هذين البلدين. تفيد حماس أيضا من دعم إيران لها لأن ذلك يتيح لها أجندات دعم منافسى إيران، أى مصر والسعودية وتركيا، التى تخشى أن تسقط حماس فى مجال سلطة إيران ونفوذها.

تعتبر حماس علاقتها بتركيا أهم من علاقتها بإيران إذ إن تركيا عضو بالناتو وقد دعت وفدا رفيع المستوى من حماس لزيارة أنقرة. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة وإسرائيل تمارسان ضغوطا على تركيا، فقد عرضت أن تقوم بالوساطة بين حماس وإسرائيل. فى عام ٢٠٠٩، ذهب أردوغان إلى أن أى اتفاق إسرائيلى/ فلسطينى يجب أن تكون حماس طرفا فيه. برهنت حماس، المتجذرة فى جماعة الإخوان المسلمين، ومن خلال سياق القومية الفلسطينية. برهنت على استعدادها لتبنى برامج براجماتية توفيقية على غرار الحزب الحاكم فى تركيا.

حينما هاجمت إسرائيل أسطول الحرية فى المياه الدولية وهو فى طريقه لكسر الحصار عن غزة فى يونيو ٢٠١٠، وقتلت تسعة نشطاء

أتراك، تنامت شعبية تركيا فى فلسطين وأنحاء المنطقة. وبتحديها لإسرائيل وتصديها لها، أفادت الحكومة التركية على المستويين الداخلى والإقليمى.

يرى جيه. هلال فى كتابه «وفاة حل الدولتين» «أن الإسلام يوفر غطاء أيديولوجيا لمختلف أنواع التشكيلات السياسية والاجتماعية، ويتضح لنا صواب هذه المقولة من خلال سياسات إيران وحزب الله الخارجية. طالما أدت الأوضاع الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية إلى تغيير الحدود بين الإسلام المحافظ والإسلام الليبرالى الديموقراطى فى الشرق الأوسط وزحزحتها، بحيث إننا نجد أن تلك التيارات الإسلامية المتنوعة تسعى بأساليبها المختلفة لعمل التنازلات لصالح الديموقراطية الليبرالية. لكن العامل المشترك بينها جميعا هو موقفها المعادى للإمبريالية والصهيونية.



-7-

العلاقة بين إيران ومصر

منذ عام ١٥٠٠م ظلت مصر تستضيف أناسا من شعوب وثقافات مختلفة بما فى هذا الإيرانيون والأتراك واليونانيون والإيطاليون. ترجع العلاقة بين مصر وإيران إلى ما بين عامى ٥٥٠ و٤٨٦ ق م لدى حفر قناة تصل ما بين البحر الأحمر ونهر النيل وتربط بهذا البحر الأبيض بالمحيط الهندى، والتى أتم حفرها داريوس الأول الفارسى. كما كان للمذهب الإسماعيلى الشيعى بقيادة عبدالله بن ميمون، والذى عُرف بالقدّاح، وكان من أصول إيرانية، تأثيره فى قيام الخلافة الفاطمية (٩٠٩- ١١٧١) فى مصر وشمال إفريقيا. وأثناء حكم المستنصر (١٠٣٥- ١٠٩٤)، قام الشاعر والمفكر الإيرانى الكبير ناصر خسرو بزيارة القاهرة، وهناك اعتنق الشيعية الإسماعيلية. وكما أسلفنا فى الفصل الثالث، تمتع المذهب الشيعى بالانتشار والقوة، فى تلك الآونة، فى شمال إفريقيا وجنوب سوريا، فيما كانت إيران مركز الفقه السنى، لكن، حينما تراجع المذهب الشيعى فى شمال إفريقيا وسوريا، أصبحت إيران مركزا له.

ماثل التطور الرأسمالي في مصر القرن التاسع عشر نظيره في إيران؛ وكان يحفز هذا التطور بشكل أساسي احتياج الأسواق الرأسمالية الغربية للاستيراد من هذين البلدين. وكما ذكرنا في الفصل الأول، تمت عملية إدماج إيران في الاقتصاد العالمي من خلال النفط، وإدماج مصر من خلال زراعة القطن وتصديره لأوربا. أدى توسع زراعة القطن في مصر إلى تحويل الأراضي الزراعية إلى ملكية خاصة وإعادة هيكلة العلاقات الاجتماعية الزراعية.

وكحال إيران والعراق، لعب علماء الدين في مصر دور الوسيط بين الدين وعامة الشعب وشارك كثيرون منهم في الحركات المناهضة للاستعمار. كان محمد علي، والي مصر ما بين عامي ١٨٠٥ و١٨٤٨، قد

شكل الاقتصاد الحديث فى مصر والمجتمع الحداثى وتحدى الهيمنة الاقتصادية الأجنبية على مصر. وفى عهده كان العلماء يتلقون دخولا من عائدات الضرائب الزراعية ومن الأوقاف، وكان يستشيرهم فى الأمور السياسية، بيد أنه، فيما بعد، أخضعهم، وجعلهم موظفين يتلقون رواتبهم من الدولة.

قام المستثمرون الأوربيون بتطوير بنية أساسية حديثة فى مصر، وقاموا بإعادة حفر قناة السويس الذى تم عام ١٨٦٩. عمل رأس المال الأجنبى على تسهيل التنمية الاقتصادية فى تلك الفترة، حيث كان الأجانب يملكون الصناعات ووسائل النقل والمواصلات بشكل أساسى ويتحكمون فيها، وراكمت مصر ديوناً مهولة لحساب المدنيين الأوربيين.

نجم عن هذه الأوضاع حركة مقاومة جماهيرية فى مواجهة السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية، وفى عام ١٨٨٢، غزت بريطانيا مصر بذريعة حماية المصالح الأوروبية والحفاظ على قناة السويس. وبنهاية القرن التاسع عشر كانت الغالبية الساحقة من الفلاحين المصريين معدمين فيما ظهرت طبقة جديدة من كبار ملاك الأراضى وغدت هى الطبقة المسيطرة حتى قانون الإصلاح الزراعى عام ١٩٥٢.

لم يقتصر أثر علاقات السوق على المجال الاقتصادى وحده بل أيضا على توزيع السلطة والحياة الثقافية. طوال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تحدى العمال والفلاحون العلاقات الاجتماعية القائمة على الاستغلال، ولعبت الاحتجاجات والتظاهرات والإضرابات العمالية دورا مهما فى تنمية التوجهات القومية والوطنية. كان اللورد كرومر هو المندوب السامى البريطانى فى مصر فى الفترة ما بين عامى ١٨٧٩ و١٩٠٧، ورأى أنه يجب تحرير النساء المصريات من الإسلام ومن قبضة الرجال المسلمين[!!]، وعلى الرغم من ذلك، عارض تعليم المصريات، بل وحتى عارض أن تعالج الطبيبات المختصات النساء قائلاً: إن القاعدة فى أنحاء العالم المتحضر هو أن يتولى الأطباء الرجال أمور العلاج. مثل هذه المواقف والأوضاع وغيرها، استفزت النساء بحيث لعبن دورا مهما فى الحركة الوطنية.

كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ – ١٨٩٧) الذى وُلد بإيران وتلقى تعليما شيعياً من رواد الحداثة الإسلامية. عمل على تغيير الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا دينية/ سياسية وركز على مقاومة الهيمنة الغربية. كتب بالعربية وعاش بمصر من عام ١٨٧١ إلى عام ١٨٧٩ حيث قام بتدريس الفلسفة الإسلامية ونادى بمقاومة الاستعمار

إلى أن طرده البريطانيون من مصر ١٨٧٩ لخطاباته المعادية للبريطانيين. وبعد طرده واصل أتباعه اشتغالهم بالأنشطة الوطنية. عمل الشيخ محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥) مع رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) واللذان تأثرا بالأفغانى رغم اختلافهما - على ريادة مدرسة الفكر الإسلامى الحداثى التى أصبحت هى السائدة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

عارض عبده ورشيد رضا الحكم البريطانى فى مصر، وكانا من الإسلاميين الإصلاحيين الذين يؤمنون بتوافق الإسلام مع الحداثة. يذهب عاصف البيات إلى أن القرائن التاريخية تثبت أن التوجهات الإصلاحية تلك وُجدت بين أهل السنة مثلما وجدت بين الشيعة. دعا عبده إلى اكتساب العلوم الحديثة وإلى المساواة بين الرجال والنساء وإلى تعليم المرأة الذى كان البريطانيون قد كبحوه. نقد إغلاق باب الاجتهاد، وتعتبر أعماله إعادة تأويل للفكر الإسلامى بما يتناسب مع العالم الحديث. كان لأفكاره آثار واسعة واستمرت تشكل فكر الإصلاحيين الإسلاميين فى المجتمعات ذات الغالبية المسلمة وغيرها.

وكما الحال فى إيران ولبنان والعراق وفلسطين، ظلت النساء تلعب دورا مهما فى التاريخ الاجتماعى لمصر. يمكن تقصى الحركة النسائية فى مصر إلى القرن التاسع عشر حينما كانت النساء من أمثال ملك حفنى ناصف يكتبن مقالات بانتظام فى الصحف المصرية. وفى بداية القرن العشرين تعاظمت الأنشطة النسائية وظهرت حركات نسوية مختلفة حيث أنشأت النساء جمعيات نسائية وشاركن فى ثورة ١٩١٩ الوطنية التى أدت إلى صياغة دستور ١٩٢٣. لُقبت صفية زغلول، زوجة الزعيم المصرى سعد زغلول بأم المصريين لقيادتها الحركة الوطنية

النسائية، وأيضا، كان لهدى شعراوى دور رائد فى الحركة النسائية المصرية وإنشاء الجمعيات النسائية، كما لعبت المسيحيات دورا مهما فى تلك الحركة. أثيرت النقاشات حول تحرير المرأة بين الإصلاحيين الإسلاميين وفى المجلات والدوريات النسائية، وطرحت للجدل قضايا تعدد الزوجات والزيجات التى ترتبها الأسرة وتُفرض على الفتيات وقضايا تعليم النساء.

كان للقوميين العلمانيين ولليسار دور مهم أيضا، فى عام ١٩١٩، جسد حزب الوفد المصرى الكفاح من أجل الاستقلال وتمتع بتأييد جماهيرى هائل بين الطبقات العاملة فى الريف والمدن. بيد أن الحزب فقد سيطرته على الحركة العُمالية. وأدت توجهاته الليبرالية إلى إثباط غالبية الشعب، ثم تقلصت شرعيته أكثر كممثل لعامة الشعب بموقفه المهادن للملك، وعجزه عن مقاومة هيمنة كبار ملاك الأراضى[١]. بعد الحرب العالمية الثانية، فشل الوفد فى قيادة جماهير الشعب الذين كانوا يطالبون بنهاية الهيمنة البريطانية والاستقلال وعجز عن توفير قيادات لحركة المقاومة الوطنية الجماهيرية.

فى تلك الفترة تنامت قوة التنظيمات الشيوعية وتأثيرها. تبنى الشيوعيون، فى الثلاثينيات وبداية الأربعينيات مطالب العمال ونظموا الإضرابات عن العمل والطعام، والمسيرات الاحتجاجية والاعتصامات ووفروا الشرعية الوطنية للحركة العمالية. بيد أن الحركة الشيوعية تشظت فى منتصف الأربعينيات وفشلت فى تطوير دعم شعبى قاعدى لها. أيضا، أدى القمع السياسى إلى إنزال نكسات كبرى بمختلف الحركات الوطنية والشيوعية التى انتهى بها الأمر إلى حل نفسها

(١) كان عدد من زعامات الوفد من كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى. (الترجمة)

والاندماج فى الدولة الناصرية فيما بعد. فقدت الحركة الشيوعية شعبيتها بخاصة لتبعيتها للاتحاد السوفييتى وتبنيها تصديق ستالين على تقسيم فلسطين وإقامة دولة إسرائيل.

ظهرت جماعة الإخوان المسلمين، التى كان حسن البنا قد أسسها عام ١٩٢٨، كمنافس للوفديين القوميين وللشيوعيين. أضفى حسن البنا، الذى كان من أتباع الأفغانى، وخطابه بعدا إضافيا على تقاليد الكفاح السياسى الإسلامى. كان قائدا كاريزميا، ولعبت الجماعة، تحت إرشاده، دورا مهما فى النضال ضد الاستعمار البريطانى. كان البنا يؤمن بالانتخابات البرلمانية، وترشح فى عامى ١٩٤٢ و١٩٤٥ ولم يفز. أولت الجماعة أيضا اهتماما بقضايا النساء وأنشأوا فرقة الأخوات المسلمات عام ١٩٣٢، التى تركزت أنشطتها فى تلك الفترة على الأعمال الخيرية والرعاية الصحية والتعليم. كانت الجماعة فى الثلاثينيات تمد العاطلين عن العمل بالمساعدات المالية، والتزموا بتعبئة المجتمع المدنى من خلال المساجد والجمعيات الشبابية والأنشطة الرياضية والتنظيمات النسائية والمستوصفات وأنشطة العمل التعاونية، وأدى فشل الليبراليين والشيوعيين فى الأربعينيات إلى ترك الساحة للأخوان المسلمين كبديل قابل للحياة.

إيران ومصر:

تم دعم العلاقات بين إيران ومصر على مستوى الدولة عام ١٩٣٩ حينما تزوج محمد رضا، شاه إيران، بالأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق، وكان الملكان لا يتمتعان بشعبية فى بلديهما بسبب إذعانهما للهيمنة الأجنبية، كما زاد استياء الشعب المصرى من الملك فاروق بعد هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين. وخلال تلك الفترة، قوّى الإسلاميون فى

إيران ومصر علاقاتهم. فى عام ١٩٤٧، قام محمد تقى القمى، عالم الدين الإيرانى، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، بمحاولات للتقارب بين المذهبين السنى والشيعى. قام القمى بتدريس الفقه الزيدى والمذهب الاثنى عشرى الشيعى جنبا إلى جنب مع فقه المذاهب الأربعة السنى. ثم قام الإخوان المسلمون عام ١٩٥٤، فى محاولة لمتابعة تلك الجهود، بدعوة نواب الصفوى، قائد تنظيم فدائيى إسلام الإيرانى لحضور مؤتمر بجامعة القاهرة. وفى عام ١٩٥٩، تم الاعتراف بالشيعية الإثنى عشرية خامس مدرسة فقهية إسلامية (إلى جانب المذاهب السنية الأربعة) وشجعت الجامعة الأزهرية تدريس اللغة والآداب الفارسية. فى تلك الأثناء، كان قد حدث عام ١٩٤٨ أن اغتال الإخوان المسلمون النقراشى، رئيس الوزراء المصرى، وردت السلطات المصرية باغتيال الشيخ حسن البنا.

وكما أسلفنا فى الفصل الأول، كان تأميم مصدق للنفط فى إيران عام ١٩٥١ (الذى أعقبه انقلاب دبرته السى آى إيه وM16)، وتأميم جمال عبدالناصر لقناة السويس عام ١٩٥٦ قد جعلا من مصدق وناصر بطلين شعبيين فى كل المنطقة وكانت شعبية عبدالناصر فى إيران تماثل شعبية مصدق فى مصر تقول آن ألكساندر:

«غمرت مشاعر الفرح والابتهاج المصريين واندلعت التظاهرات لرؤية التقنيين البريطانيين يغادرون منشآت عبدان بعد تأميم الحكومة الإيرانية لشركة النفط الأنجلو/ إيرانية فى أغسطس ١٩٥١ ورأوا فى الحالة الإيرانية نموذجا ممكنا لصراعهم للتحرر الوطنى. بيد أن المسئولين البريطانيين والقادة العسكريين، تبينوا وقد تملكهم الذعر، وفيما كانوا يفكرون فى إرسال قوات عسكرية لعبدان، صعوبات عمل ذلك نظرا لأنه

كان عليهم التعاطى مع التظاهرات الشعبية فى أنحاء مصر والهجمات الفدائية فى منطقة القنال فى آن».

بعد انقلاب السى آى إيه فى إيران، اعتبر الشاه جمال عبدالناصر أداة للشيوعية، واعتبر عبدالناصر الشاه أداة للإمبريالية. فى عام ١٩٥٢ أُجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش وتم إلغاء الملكية عام ١٩٥٣ وأتاحت الحركة الوطنية المجال للضباط الأحرار الأخذ بزمام الأمور. فى عام ١٩٥٤، أجبرت الحركة الجماهيرية وقوتها البريطانيين على الانسحاب من قناة السويس. وبعد تأميم القناة، ضمن ناصر الحقوق الدولية للمرور من القناة وَدفَع التعويضات لكثيرين من حملة الأسهم الأجانب.

كان عبدالناصر ورفاقه، فى السنوات المبكرة يتشاركون مع الشيوعيين والإخوان فى كثير من الرؤى. لكن سرعان ما دبت الخلافات بين ناصر والشيوعيين والإخوان، والتجأ الشيوعيون إلى العمل السرى فيما أُلقى بقيادات الإخوان فى المعتقلات. فى البداية، كان عبدالناصر يعتبر سيد قطب، مؤدلج الإخوان، حليفا مفيدا. لكن الخلافات تفاقمت بين الطرفين، وبعد محاولة الإخوان اغتيال عبدالناصر، تم حظر الجماعة وأُلقى بأعضائها وقياداتها فى المعتقلات وأُعدِم أربعة منهم.

وعلى الرغم من اضطهاده للشيوعيين وموقفه المعادى للإمبريالية، كان عبدالناصر يقبل المساعدات من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فى آن.

بيد أن غالبية المصريين كانوا ينظرون لناصر على أنه هو من أطاح بالملكية وأنهى الاستعمار البريطانى وأمم قناة السويس وأصدر قوانين الإصلاح الزراعى وحقق تنمية اقتصادية.. إلخ.

استمرت الأنشطة النسائية فى الفترة الناصرية وتركزت على حقوق النساء والدفاع عنها، وعلى التنظيمات غير الحكومية وتحدى خطابات الهيمنة الذكورية.

فى عام ١٩٥٦ هاجمت فرنسا وبريطانيا منطقة القنال [فى رد منها على تأميم القناة] ودخلت الجيوش الإسرائيلية شبه جزيرة سيناء، ثم أُجبروا جميعهم على الانسحاب [وكان فى هذا نهاية الإمبراطورية البريطانية].

فى تلك الأثناء لم تتوقف الحركة المُطالِبة بالديموقراطية، بيد أن هزيمة عام ١٩٦٧ أتت معها بنكسة للتيارات القومية والشيوعية ليس فى مصر فقط بل فى جميع أنحاء المنطقة. وفى عام ١٩٧٠، بعد أن خاضت مصر حرب استنزاف ناجحة ضد إسرائيل وأعادت تسليح جيشها الذى أصبح ذا كفاءة عسكرية وقتالية عالية، قبل ناصر قرار الأمم المتحدة بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧ مقابل إقرار السلام بينها وبين الدول العربية.

وكما أسلفنا، كانت إيران فى تلك الأثناء قد اعترفت بإسرائيل وكانت تمدها بالنفط مما أدى بجمال عبدالناصر إلى قطع العلاقات مع إيران، لكن حينما توفى عبدالناصر فى سبتمبر عام ١٩٧٠، حضر فريدون هويدا، رئيس الوزراء الإيرانى جنازته ممثلا للدولة الإيرانية. خلف أنور السادات (١٩٧٠- ١٩٨١) عبدالناصر، وعكس جميع سياسات ناصر الاقتصادية وألغى دعم الدولة للإسكان والرعاية الصحية وغيرها، وفتح الاقتصاد المصرى على مصراعيه أمام الاستثمارات الأجنبية. ثم قام فى عام ١٩٧٩ بتوقيع اتفاقية كامب دايفيد للسلام مع إسرائيل.

ما بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٣، واصل اليسار العلمانى والحركات

القومية نضالهم من أجل الديموقراطية، والسيادة الوطنية، والعدالة الاجتماعية والاقتصادية، وكان لهم قدر من التأثير على الحركة العمالية.
أطلق السادات سراح قيادات جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا قد اعتقلوا فى عهد ناصر، وعلى الرغم من أن الجماعة ظلت محظورة قانونيا، إلا أنه سمح لهم فى عام ١٩٧٩ بإعادة إصدار صحيفتهم «الدعوة». كما أمر السادات بوضع دستور جديد جاء به أن الإسلام هو المصدر الأساسى للتشريع.

كانت صحيفة الدعوة تؤيد صراحة سياسات السادات الليبرالية الانفتاحية، وظلت الجماعة معادية للشيوعية والعلمانية. أقامت الجماعة حركات دعم قاعدية قوامها الاتحادات الطلابية الإسلامية والمجموعات الأخرى التى تتبنى فكر سيد قطب. وبنهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، كان الإخوان المسلمون ومعهم جماعة الجهاد الإسلامية والجماعة الإسلامية الذين مضوا يتحدون الدولة قد أصبحوا حركات اجتماعية قوية ونشطوا بخاصة فى وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية ومؤسسات الرعاية الصحية.

أعاد السادات العلاقات الدبلوماسية مع إيران وكان السادات يتحدث الفارسية بطلاقة وله علاقات وثيقة مع الشاه الذى أمد مصر بقروض لإعادة إعمار بورسعيد ودعم السادات فى قراره لتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل. وعلى الرغم من كل هذا، رحب غالبية المصريين بالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بمن فى ذلك اليساريون والقوميون العلمانيون والإسلاميون. رأوا فى الثورة برهانا على إمكانية هزيمة طاغية قوى، وردا من قبل أمة مسلمة على أعمال العدوان الإمبريالية والصهيونية.

هرب شاه إيران إلى الولايات المتحدة ثم إلى القاهرة حيث رحب به

السادات الذى كان يتعرض لمعارضة قوية فى مصر نتيجة لسياسة «الباب المفتوح» مع الغرب وموقفه المسالم من إسرائيل. ثم توفى الشاه ودفن بالقاهرة. نتيجة لذلك، قطعت إيران الثورة العلاقات الدبلوماسية مع مصر. كانت مصر هى ودول مجلس التعاون والأردن واليمن حلفاء للعراق فى حربها ضد إيران. وفى تطورات لاحقة، شاركت مصر عام ١٩٩١ فى قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة التى أدت إلى إخراج العراق من الكويت ثم بعد غزو العراق عام ٢٠٠٣، وسقوط صدام، ظلت مصر مترددة فى إقامة علاقات مع الدولة العراقية الجديدة التى يهيمن عليها الأكراد والشيعة ولها روابطها بإيران.

وعلى الرغم من ذلك، فبعد انتهاء الحرب العراقية/ الإيرانية، تم استعادة التعاون الصناعى والتجارى بين مصر وإيران. بلغ حجم التجارة بين الطرفين لدى نهاية رئاسة رفسانجانى (١٩٨٩ – ١٩٩٧) ثمانين مليون دولار. وخلال فترة رئاسة خاتمى كانت ثمة محاولات لتحسين العلاقات من خلال تبادل الزيارات الدبلوماسية وإقامة جمعية الصداقة المصرية الإيرانية فى إيران. اكتسب فوز الإصلاحيين فى انتخابات عام ٢٠٠٠ التشريعية أهمية خاصة لدى المصريين إذ رأوا إيران نموذجا للديموقراطية فى الشرق الأوسط الإسلامى، وبخاصة لأن الرئيس مبارك كان قد مدد العمل بقانون الطوارئ؛ حتى أن الأزهر، الذى كثيرا ما ينقد إيران، أكد أن هذه الانتخابات تبين أن بإمكان الحياة الديموقراطية أن تنمو فى ظل الحكم الإسلامى.

وفى عام ٢٠٠٩، غدت الانتخابات التى أجريت فى إيران وما أعقبها من قمع سياسى موضوعا للنقاش فى أوساط اليسار العلمانى، والقوميين والإسلاميين بمصر. أثار دعم إعلام التيار الرئيسى الغربى

والمصرى والعربى لحركة الديموقراطية تساؤلات كثيرة لدى المصريين. ووفقا لتعليق أميمة أبوبكر الأكاديمية والناشطة فى مجال حقوق النساء فإن:

«انتخابات يونيو فى إيران أصابتنا بإحباط عميق إذ شعرنا أن هناك انتخابات حقيقية وديموقراطية حقيقية فى إيران. وفيما رأينا الوحشية التى استخدمت ضد المتظاهرين فقد شهدنا أيضا دعم الحكومات الغربية والإقليمية لحركة الديموقراطية بإيران، مما أصابنا بالتشوش والتشكك، ومازلنا نتساءل عن وجود أيد أمريكية تعمل فى إيران».

أيضا، ظلت هناك محاولات من قبل حكومة أحمدى نجاد لعودة العلاقات بين مصر وإيران. فى ديسمبر ٢٠٠٩، حضر على لاريجانى رئيس البرلمان الإيرانى، وهو من المحافظين الوسط، اجتماع الاتحاد البرلمانى لمنظمة المؤتمر الإسلامى. وعلى الرغم من عدم وجود علاقات دبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٨٠، ومن معارضة المحافظين المتشددين، اجتمع لاريجانى بمبارك وناقشا قضايا فلسطين والسلام والأمن فى المنطقة والتبادل التجارى الممكن بين البلدين:

صعود الإسلاميين:

ناقشنا فى الفصول السابقة تأثير إيران فى لبنان والعراق وفلسطين من منطلق السياق التاريخى الأوسع، مثل التطورات الاجتماعية / الاقتصادية. والتيارات القومية والإسلامية والمسار السياسى لتلك التجارب من أجل توضيح التغييرات المتمايزة التى أحدثتها فى تلك المجتمعات. ومن نفس المنطلقات سنبحث سقوط اليسار العلمانى والحركات القومية فى مصر وصعود الحركات الإسلامية كقوة بديلة، وأيضا تناقضات الإسلام السياسى هناك، وأوجه قصوره وطبيعته الدينامية.

استغل ناصر والسادات ومبارك شعبية الإسلاميين من أجل ترسيخ سيطرتهم على الحكم. أيضا استخدموا الإسلاميين من أجل قمع اليسار العلمانى والقوميين[١]. فى ظل حكم السادات ومبارك الذى تولى السلطة عام ١٩٨١ تم إضعاف اليسار العلمانى والقوميين نتيجة للشقاقات بينهم. أيضا، أسهم القمع السياسى وافتقادهم لأى برنامج سياسى متسق فى عدم دعم غالبية الناس لهم. كما أنهم لم يكن لهم أى إسهام مؤثر فى الأوساط التى يحظون فيها ببعض التأييد مثل الحركات العمالية كما ظلوا أقلية فى الاتحادات العمالية ذات القيادات الموالية للحكومة.

أما بالنسبة لناشطات حقوق النساء فإن موقف اليسار العلمانى والقوميين ظل ملتبسا حيث إنهم لم يولوا مساواة النوعين أية أولوية. وفى عام ١٩٨٢ هاجمت نوال السعداوى التفرقة بين الإناث والذكور فى محيط الأسرة وفى المجتمع ككل. وفى عهد مبارك استمرت عدد من ناشطات حقوق النساء فى النضال من أجل قضايا المرأة. تذهب ليلى أبولغد إلى أن الإسلاميين، بتبنيهم الأفكار الحداثية عن دور المرأة فى المجتمع والعلاقات الزوجية والأسرة، بدأوا ينافسون اليسار العلمانى والليبراليين والقوميين فى هذا المجال. وفى عهد مبارك، أخذت المنظمات التابعة للأمم المتحدة وهيئات التمويل الدولية تعمل على تشكيل سياسات الدولة وأجندات الأنشطة النسائية المعاصرة وكان لهذا أثره السلبى على

(١) قول مرسل آخر يفتقد الدقة الأكاديمية والموضوعية، بل ويتناقض مع ما ذكرته المؤلفة من أن الخلافات دبت بين عبدالناصر والإخوان المسلمين بعد وقت قصير من توليه السلطة، ولم يُعرف عنه أبدا أنه قمع التيارات القومية بل العكس هو الصحيح. أيضا فهناك اختلاف كبير بين تعاطى كل من السادات ومبارك مع التيارات الإسلامية، ونرى أن أساليب التعاطى هذه أكثر تعقيدا بكثير مما توحى به مثل هذه المقولات التبسيطية المرسلة. (الترجمة).

الرأى العام وأدى إلى تزايد شعبية التنظيمات النسائية الإسلامية التى لا تعتمد على الدولة أو التمويلات الدولية.

استغل نظام مبارك الهجوم الذى يتعرض له الإسلاميون من قبل اليسار العلمانى والقوميين فرصة لإقصاء الإسلاميين، من ثم، وجدت هذه القوى العلمانية نفسها تقف فى صف الدولة القامعة. ولهذه الأسباب مجتمعة عجزت التيارات العلمانية اليسارية والقومية عن توفير البديل عن الحركات الإسلامية، وأدى ذلك إلى تهميشها وفتح الطريق أمام التوجهات الإسلامية. فى السبعينيات، كان اليساريون والقوميون يتصدون لنظام السادات من خلال تنظيم الاحتجاجات الدورية، لكننا نجدهم بعد أربعة عقود، وعلى الرغم من أنهم مازالوا جزءا من الحركة الديموقراطية ضد مبارك، فإن تأثيرهم قد خبا فيما تعاظم تأثير التيارات الإسلامية.

ناشطات حقوق النساء الإسلاميات:

منذ بداية القرن الحادى والعشرين، ظل تواجد ناشطات حقوق النساء الإسلاميات دالا ومهما. لعبن دورا مهما فى الحركة الإسلامية المتنامية التى تؤمن بعدم وجود تعارض بين الإسلام والحداثة والديموقراطية. ومن خلال إعادة تأويلهن للتعاليم الإسلامية يخضن نضالهن للمساواة بين الرجل والمرأة فى إطار النموذج الإسلامى المعيارى، وقد اكتسب هذا التوجه شعبية بين المتعلمات اللاتى تبنين حقوق النساء نشاطا رئيسيا لهن ويستخدمن لغة وممارسات دينية لتوسيع تلك الحقوق. ووفقا للسياقات المختلفة، فأحيانا يجدن أنفسهن فى أوضاع هيمنة تمكنهن من ممارسة السطوة داخل الأسرة والمجتمع، وأحيانا يجدن أنفسهن فى أوضاع تبعية وخضوع.

تعمل أميمة أبوبكر أستاذاً للأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة وإحدى العضوات الرئيسيات فى «تنظيم الذاكرة» بالقاهرة. ومثل الناشطات الإيرانيات اللاتى ورد ذكرهن في الفصل الثانى، تقرأ النساء المصريات تاريخ الإسلام من منظور نسوى بهدف توضيح دور النساء فى الإسلام. فقد لعبت النساء أدوارا سياسية وثقافية مهمة فى تاريخ مصر والعراق وسوريا ولبنان والجزيرة العربية، ويجعلهن تلك النماذج التاريخية واضحة جلية تتحدى الناشطات نظام مبارك العلمانى التابع للغرب ورجال الدين المحافظين فى آن، وهذه مهمة صعبة إذ إنهن يتعرضن للهجوم من المعسكرين. لكن أجيال الشباب من النساء والرجال يتجاوبون مع دعوتهن لتحدى النظام من جهة، والإسلاميين المحافظين فى الإعلام والمساجد من جهة أخرى.

أيضا، تقوم ناشطات إسلاميات كثيرات بتوفير الرعاية الاجتماعية إذ إن فشل الدولة فى توفير تلك الخدمات للفقراء أتاح الفرصة للنساء لتوفير الرعاية الصحية والتعليم للنساء الأكثر فقرا فى أنحاء البلاد واللاتى يعشن أوضاعا مهمشة بائسة. ترى هؤلاء الناشطات أن مشاركة النساء فى خدمة المجتمع ضرورى لتحسين الأوضاع فى مصر، ويرين أن تغيير المدركات عن دور النساء المسلمات كأمهات وزوجات سلبيات هو واجب دينى. لا ينتمين إلى أية منظمات إسلامية ولا يتلقين أموالا من الدولة، إذ إنهن يعتمدن على مواردهن الخاصة وعلى المتطوعات مثل الطبيبات والممرضات وغيرهن من المهنيات، ويعتنين بالأيتام ويقمن بتوزيع الأطعمة والضروريات الأخرى على فقيرات النساء وأسرهن. وفى أحيان كثيرة، حينما تتحسن أوضاع متلقيات المساعدات يصبحن متطوعات بدورهن ويساعدن مجتمعاتهن.

الإسلاميون وتوفير الخدمات:

يعمل الإسلاميون فى مصر، مثل حزب الله فى لبنان وحماس بفلسطين، على توفير الموارد وتنمية المجتمعات وإقامة الشبكات الاجتماعية. وبهذا الأسلوب، استطاعوا اكتساب تأييد غالبية المصريين لأنهم غدوا بديلا سياسيا واقتصاديا وثقافيا لنظام مكرس للنيوليبرالية والسلطوية والصهيونية والإمبريالية. تسارعت عملية التحرير الاقتصادى فى عهد مبارك. وفى التسعينيات بخاصة توسع القطاع الخاص من خلال بيع الصناعات التى تملكها الدولة ومؤسسات القطاع العام. كانت الدولة منذ نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، قد انسحبت من دورها لتوفير الرفاه الاجتماعى والخدمات الاجتماعية مما أدى إلى ظهور شبكات مؤلفة من مئات جميعات المساعدات والجمعيات الخيرية الإسلامية والمنظمات غير الحكومية العلمانية والإسلامية، وغالبية هذه المنظمات تديرها تنظيمات إسلامية مختلفة وتوفر العون للمجموعات الفقيرة. كما تقوم مساجد عديدة بتوفير الخدمات الاجتماعية. تأتى أموال هذه المنظمات من الزكاة ومن رجال الأعمال والعاملين فى الخليج، ويقال إن المنظمات غير الحكومية الإسلامية أفضل تمويلا وإدارة من نظيراتها العلمانية.

فى الثمانينيات، كان ثلث المنظمات التطوعية يديرها إسلاميون وتوفر الخدمات الاجتماعية لملايين الأفراد، وفى التسعينيات زاد عددها لتصبح نصف المجموع الكلى للمنظمات. فى الثمانينيات كانت التنظيمات الإسلامية توفر الرعاية الصحية لأربعة مليون ونصف المليون شخص، وفى التسعينيات بلغ مجموع عدد من يتلقون تلك الرعاية ١٥ مليون شخص. أقامت تلك التنظيمات أيضا المساجد والمدارس ونوادى الفيديو

ومراكز للتدريب على الكمبيوتر. وعلى الرغم من أن المنظمات غير الحكومية العلمانية تنشط في مجال العمل الاجتماعي، إلا أن مشاركة الأزهر، والإخوان المسلمين، والجهاد، والجمعية الإسلامية في هذا المجال جعل توفير الإسلاميين لتلك الخدمات أكثر فاعلية وتأثيرا.

ولهذا النشاط الإسلامي دلالات وأهمية خاصة. فمنذ بداية القرن الحادي والعشرين زادت الاستثمارات الأجنبية في البلد، ووصل النمو الاقتصادي منذ عام ٢٠٠٥ صعوداً إلى معدل ٧٪ سنويا. بيد أن معدل التضخم الذي وصل إلى ١٥٪ والأثمان الباهظة للأطعمة المستوردة أوجد حالة معاناة كبرى لمعظم الناس والفقراء بخاصة. قامت التظاهرات عام ٢٠٠٨ بسبب الطوابير الطويلة على مخابز العيش المدعوم التي نجم عنها قتل ستة أفراد وإصابة خمسة وثلاثين. و فيما تتوسع العشوائيات على أطراف القاهرة الكبرى، والتي تفتقر إلى الخدمات التعليمية والرعاية الصحية وتنتشر فيها البطالة، نجد أن الأحياء السكنية في أماكن أخرى من القاهرة ذات البوابات والأسوار والخدمات الأمنية الخاصة يتوسع نطاقها.

أدت خطط الخصخصة والاقتطاعات الهائلة من إنفاقات الحكومة على الخدمات والرعاية الاجتماعية إلى وصول نسبة البطالة إلى ٢٦,٣٪ من سكان مصر، ويزيد هذا المعدل أضعافا بين أفراد المجموعة العمرية من ١٥ إلى ٢٩ عاما. ويواجه من لديهم وظائف اقتطاعات مستمرة من أجورهم الواقعية، وتراجع قدرتهم الشرائية وتدهور مستوياتهم المعيشية. ووفقا لمعايير البنك الدولي، يصنَّف ٩٥٪ من موظفي الحكومة البالغ عددهم ٥,٨ مليون على أنهم فقراء. وفي نفس الوقت، يتلقى نسبة الـ ١٠٪ الأكثر ثراء في مصر ٢٩,٥٪ من دخل البلد.

وفى ظل هذه الأوضاع الاقتصادية غدا الإسلاميون القوة المعارضة المهيمنة فى أوساط الفقراء الحضريين، والمهنيين والطلبة والعمال. يساهم عدد من هذه التنظيمات مثل الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية، والجهاد، والتبليغ والدعوة فى النفوذ المتنامى للإسلاميين. كما يتنامى تأثير الكُتَّاب والمفكرين والوعاظ الإسلاميين غير المرتبطين بأية جماعة. أشعلت ممارسات إسرائيل العنيفة ضد الفلسطينيين وحروب الولايات المتحدة أشعلت المشاعر القومية/ الدينية وأدت إلى مزيد من نزع الشرعية عن النظام الحاكم.

الإخوان المسلمون والحياة السياسية الانتخابية:

الإخوان المسلمون أكبر التنظيمات الإسلامية الموجودة فى الساحة وقد نجحوا فى تعبئة عشرات الآلاف ضد نظام مبارك. يؤيدهم الأغنياء والفقراء والنساء والرجال والشباب وكبار السن، هذا على الرغم من أنهم يتلقون الدعم الأكبر من سكان المناطق الحضرية بخاصة. يواجه كثيرون من المتعلمين من الطبقات الدنيا الذين أفادوا من توسع النظام التعليمى فى الحقب السابقة البطالة منذ الثمانينيات ومن ثم، انضموا إلى مؤيدى الإخوان المسلمين، وبهذا وسعت الجماعة قاعدتها الجماهيرية فى الأحياء الحضرية الفقيرة لتشمل الخريجين والعمال وقطاعات من الفقراء الحضريين.

ومن خلال توفيرهم الخدمات الاجتماعية كسبوا دعما جماهيريا وقدموا أنفسهم بديلا للدولة التى تخلت عن مسئولياتها تجاه الشعب والتزمت بالنيوليبرالية الاقتصادية وبالتحالف مع الغرب.

ومنذ بداية القرن الحادى والعشرين، أيد غالبية الشعب المصرى دعم الجماعة للانتفاضة الفلسطينية وعلاقتها الوثيقة بحماس وموقفها

الرافض للحرب على العراق، بل إن الجماعة نقدت دول الخليج لعدم اعتراضها على عمليات الولايات المتحدة وممارساتها العدائية فى المنطقة. وفى غياب اليسار العلمانى والقوى القومية كبديل لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل فى المنطقة، قاد الإخوان المسلمون المعارضة الجماهيرية ضد الحرب على العراق والاحتجاجات ضد الوحشية الإسرائيلية فى فلسطين، بل إنهم أبدوا استعدادهم لمساندة حزب الله ضد إسرائيل عام ٢٠٠٦.

وفى استجابة منها للدعم الذى تتلقاه من مختلف المجموعات، أعلنت الجماعة أنها تؤيد الحقوق المتساوية فى المواطنة للرجال والنساء، والمسيحيين والمسلمين هذا على الرغم من إعلانها أنه بغير استطاعة الأقباط والنساء تولى رئاسة الدولة. ويرجع هذا التناقض إلى وجود أجنحة مختلفة داخل الجماعة يفضل بعضها المزيد من المواجهات القتالية مع الدولة والمزيد من التعاون مع المعارضة العلمانية. يذهب بعض الباحثين إلى أن التغيرات التى نشهدها فى موقف الجماعة ناتجة عن التوترات داخل التنظيم وعزم القيادات على إرضاء قاعدتها الجماهيرية المتنوعة.

بيد أن صعود قيادة جديدة من المحافظين المتطرفين فى انتخابات مكتب الإرشاد عام ٢٠١٠ كان هزيمة للجناح الإصلاحى فى الإخوان المسلمين، مما أثبط - بخاصة - الأعضاء والداعمين الشباب الذين ينادون بمقرطة الجماعة وانضمامها إلى صفوف اليسار العلمانى والقوميين ضد نظام مبارك.

كان لحرب إسرائيل على غزة وهجومها على أسطول الحرية عام ٢٠١٠ تداعيات سياسية هائلة فى مصر. وعلى الرغم من أن جماعة

الإخوان وجهت جميع أنواع النقد إلى إسرائيل، إلا أن شباب الجماعة ضموا أصواتهم إلى أصوات الاشتراكيين العلمانيين والقوميين وطالبوا حكومة مبارك بعكس دعمها وخنوعها لسياسة إسرائيل تجاه غزة، وطالبوها أيضا باحترام تطلعات الشعب المصرى إلى الديموقراطية.

وفى هذا الصدد، ذهب محمد البرادعى الحائز على جائزة نوبل للسلام والرئيس السابق لوكالة الطاقة النووية التابعة للأمم المتحدة، والذى يتوقع له أن يخوض الانتخابات الرئاسية عام ٢٠١١ ضد مبارك، ذهب إلى أنه على الحكومات الغربية أن تفتح أعينها لواقع الديموقراطية الزائفة فى مصر وإلا فإنها تخاطر بفقدان جميع مصداقيتها فى معركتها ضد التطرف. وأضاف أن الحكومات الغربية تخاطر بخلق جيل جديد من المتطرفين الإسلاميين إذا استمرت فى دعمها للنظم القامعة فى المنطقة. وعلى الرغم من هزيمة التيار الإصلاحى المتنامى فى انتخابات مجلس الإرشاد فى ٢٠١٠، بيد أن المتوقع لهذا التيار أن يتسبب فى التدمير الذاتى لقوى المحافظين داخل الجماعة.

وبنفس أسلوب حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين، يتحدى الإخوان المسلمون الدولة بخوض الانتخابات التشريعية وقد نجح مرشحوها فى كسب الدعم. بدأ نشاطها الانتخابى فى السبعينيات وخاضت الانتخابات التشريعية والمحلية كتنظيم مهنى حديث. وعلى مر العقود، أدت التغيرات فى تركيبة الجماعة الاجتماعية، والجدالات الداخلية بين الأجيال الشابة والأكبر سنا حول قضايا الجندر والموقف من الأقباط والأوضاع الاجتماعية/ الاقتصادية والقضايا الإقليمية والدولية أدت كلها إلى تغيير الجماعة سياسيا. طوال الثمانينيات والتسعينيات، استمرت التنظيمات الإسلامية الأخرى مثل الجهاد فى

أنشطتها القتالية المسلحة مما أخضعها لقمع عنيف من أجهزة الدولة وأفقدها الدعم من قبل عامة الناس، وبقيت الجماعة هي التنظيم الإسلامي المهم الوحيد وكانت نافذة بخاصة في الأوساط الطلابية. بدأت عام ١٩٨٤ في المشاركة في انتخابات نقابة الأطباء وفازت بخمسة وعشرين مقعدا في مجلس إدارتها.

قررت الجماعة في الثمانينيات المشاركة في الانتخابات المحلية والتشريعية لكنها خاضت الانتخابات متحالفة مع الوفد لأنها ليست حزبا سياسيا. وفي عام ١٩٨٤ فاز هذا التحالف بنسبة ١٥,١٪ من أصوات الناخبين، فيما فشلت أحزاب المعارضة الأخرى في الوصول إلى عتبة نسبة ٨٪ الضرورية كي تتأهل للتمثيل البرلماني. وفي عام ١٩٨٧ غيرت الجماعة شركاءها وشكلت تحالفا مع حزب العمل والحزب الليبرالي وفازت تلك الكتلة بنسبة ١٧,١٪ من مجموع الأصوات فيما فاز الوفد بنسبة ١٠,٩٪ والحزب القومي التقدمي الوحدوي [؟] بنسبة ٢,٢٪ فقط، أي أن الكتلة التي ضمت الجماعة فازت بأصوات تفوق ما فازت به أحزاب المعارضة الأخرى مجتمعة.

في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات كان الإخوان المسلمون يتحكمون في النقابات المهنية والاتحادات الكبرى في مصر ومن ضمنها نقابة الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وأطباء الأسنان واتحاد رجال الأعمال واتحادات طلبة الجامعات، ومن مواقعهم تلك تصدى قادة تلك الاتحادات للفساد، وأنشأوا أنظمة للرعاية الاجتماعية وتعاونيات استهلاكية. أيضا، قاموا بتنظيم بعثات الحج وطالبوا بالدفاع عن فلسطين وعن مختلف القضايا الحقوقية.

كان بعض من مؤيدي الإخوان المسلمين في الماضي يمتلكون عددا من

المشاريع الخاصة وفى نهاية الثمانينيات كانت نسبة المشاريع الخاصة المرتبطة بالإخوان تعادل ٤٠٪ من جميع المشروعات الخاصة بمصر، وكانت شركات الاستثمار هذه تقوم بدعم الأسر ذات الدخول المنخفضة. رحب الإخوان المسلمون بسياسات السادات الانفتاحية وطالبوا طوال الثمانينيات بمزيد من الإصلاحات الواسعة لتحرير السوق. وفى عام ١٩٩١، وبضغط من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى سارعت الدولة بتطبيق برنامج الإصلاح النيوليبرالى من خلال برنامج للتعديل الهيكلى. أدى هذا إلى ظهور تناقضات فى خطاب الإخوان الاقتصادى، حيث نقدت الجماعة فى انتخابات النقابات العمالية لعام ١٩٩١ البرنامج النيوليبرالى الاقتصادى ودعمت حق العمال فى الإضراب فيما كانت تؤيد تحرير الأسواق والسياسات النيوليبرالية.

فى عام ١٩٩٠، احتجت الجماعة على القمع السياسى وقاطعت الانتخابات؛ لكنها شاركت فى انتخابات عام ١٩٩٥ وفازت بمقعد واحد بالبرلمان؛ وسبعة عشر مقعدا فى انتخابات عام ٢٠٠٠، وفى انتخابات نقابة المحامين عام ٢٠٠١، فاز الإخوان بثمانية مقاعد من مجموع أربعة وعشرين مقعدا وتحالفت مع المرشحين العلمانيين وتجنبت أية ارتباطات بالجهاد والجماعة الإسلامية. وفى انتخابات عام ٢٠٠٥ التشريعية التى خاضها أفراد الجماعة كمستقلين فاز الإخوان بثمانية وثمانين مقعدا – أى حوالى ٢٠٪ من مقاعد البرلمان؛ هذا على الرغم من القيود السياسية التى لم تسمح للتنظيم سوى بمائة وخمسين مرشحا. وفى نفس الانتخابات لم يفز اليساريون والليبراليون سوى بأربعة عشر مقعدا، أى بما يربو قليلا على ٣٪ من مجموع الأصوات.

وفى عام ١٩٩٦، تمرد عدد من شباب الإخوان على الأسلوب

السلطوى للجماعة وانشقوا عنها وقاموا بتشكيل حزب الوسط الذى تبنى الدعوة للمساواة بين الرجل والمرأة والتعددية السياسية. دعم الحزب عدد من المثقفين العلمانيين البارزين الذين رأوا أنه يمثل شكلا من الإسلام السياسى أكثر اعتدالا واستنارة.

وكما أشرنا سابقا، فقد نقدت جماعة الإخوان، التى كانت قد دعمت السياسة الاقتصادية النيوليبرالية، الخصخصة وحل القطاع العام فى برنامجها الانتخابى لانتخابات مجلس الشورى عام ٢٠٠٧، وذلك بضغط من مؤيديها فى الاتحادات العمالية وفى القطاعات الفقيرة من المجتمع.

ومنذ عام ٢٠٠٠، طرحت الجماعة عددا من المرشحات فى الانتخابات المحلية لكن لم تفز أية واحدة منهن حتى الآن. وفى انتخابات عام ٢٠٠٠ التشريعية كان لترشيح الإخوان جيهان الحلفاوى أهمية خاصة حيث فازت على منافسها مرشح الحزب الوطنى الحاكم فى الجولة الأولى من الانتخابات، ومن ثم ألغت وزارة الداخلية النتائج وأجلت الانتخابات عامين، ثم قامت بتزوير النتائج عام ٢٠٠٢ وأعلنت فوز مرشحين من الحزب الوطنى. أثار ترشيح جيهان الحلفاوى الجدل داخل الجماعة حول مستقبل الأنشطة النسائية، بيد أنه تم تنظيم تظاهرات داخل دائرتها شارك فيها أعضاء محافظون من الجماعة دعماً لها وحشدوا أصواتا مؤيدة لها. لعبت نساء الإخوان المسلمين فى انتخابات عام ٢٠٠٠ و٢٠٠٥ و٢٠٠٧، المحلية والتشريعية دورا مهما داخل الجماعة وشاركت فى الأنشطة السياسية والتظاهرات. تتحدى الأجيال الشابة من الأخوات الناشطات المتعلمات اللاتى يشعرن بالاستياء من وضعهن الهامشى فى بنية السلطة فى الجماعة، يتحدين القيادات الذكورية حول مكانتهن الثانوية، وهناك مجموعة من الإخوان يدعمون هؤلاء الأخوات، بل

ويطالبون الجماعة بعدم حظر ترشح النساء لمنصب رئاسة الجمهورية.

وكما الوضع فى إيران ولبنان وفلسطين، فإن لتغيير خطاب الإسلاميين فى مصر دلالته. يرى الباحثون أن الإخوان المسلمين وغيرهم من الإسلاميين فى مصر، بما فى هذا حزب الوسط، لم يذهبوا بعد أبعد مما ذهب إليه الإسلاميون فى القرنين التاسع عشر والعشرين مثل محمد عبده ورشيد رضا، ولم يناظروا «المفكرين المتدينين الجدد» فى إيران الذين ناقشناهم فى الفصل الثالث. وعلى الرغم من ذلك، فقد أوضحت حركة المعارضة السياسية فى مصر طريق العمل فى المستقبل من خلال العمل السياسى المشترك والتنسيق بين اليساريين والقوميين والإسلاميين. ورغم العداءات بين تلك المجموعات، فإن جيل الشباب منفتح على التعاون وينشط فى الدعوة إلى الديمقراطية بالاشتراك فى الحملات ضد الهيمنة الغربية والنظام الحاكم السلطوى القمعى.

تبعية الدولة للغرب تقوى الإسلاميين:

فى عام ٢٠٠٦، وفى رد فعل على سياسات مبارك، وقع أهم إضراب صناعى ذو أبعاد سياسية فى المحلة الكبرى حينما أضرب عمال شركة الغزل والنسيج هناك، حيث تبلغ نسبة النساء العاملات ٢٢٪ من قوة العمل (لا تستطيع ثلثا الأسر المصرية العيش على مرتب واحد).

لعبت النساء أيضا دوراً مهما فى إضراب مصنع المنصورة/ إسبانيا للملابس الجاهزة. لعب هؤلاء العمال، ومعهم موظفو جمع الضرائب الذين شكلوا اتحادهم المستقل، دورا رئيسيا فى حركة الديموقراطية وتحدوا نظام مبارك بالرغم من أساليب القمع السياسى.

أثناء إضراب موظفى جمع الضرائب، انضمت نساء كثيرات، بمن فيهن هؤلاء اللاتى يعلن عائلاتهن، إلى تظاهرات الشارع. وعلى الرغم

من توجيه السلطات، بمن فى هذا وزيرة العمل عائشة عبدالهادى، النقد لهن، فقد استمررن فى الاعتصامات والتظاهرات وقضين ليالى عديدة فى الشارع إلى جانب زملائهن الرجال.

فى المناطق الريفية، يناضل الناس أيضا ضد الدولة حيث يواجه الملايين من صغار المزارعين خطر سلبهم أرضهم نتيجة تنفيذ قانون يسمح للأسر الإقطاعية القديمة، التى تملكت الأرض فى ظل الاستعمار، من استرداد أراضيهم التى تملّكها صغار المزارعين بمقتضى قانون الإصلاح الزراعى فى الخمسينيات - وهذا تحول لصالح كبار الملاك ويؤدى إلى زيادة كبيرة فى عدد الفلاحين المحرومين الذين لا يملكون أراضى، وهؤلاء يناضلون برفضهم إعادة الأرض.

تعتبر حركة التغيير «كفاية» حركة مظلة ينضوى تحتها المثقفون والنشطاء الحقوقيون، والصحفيون، والقضاة، والفنانون، والعمال، والطلبة وأساتذة الجامعات والمنظمات غير الحكومية والمجموعات النسائية والمسلمون والأقباط وتضم ناشطين من جميع التوجهات - ليبراليين، اشتراكيين، قوميين، وإسلاميين، نظم أعضاء كفاية ومؤيدو الإخوان المسلمين تظاهرات واعتصامات للمطالبة بإنهاء العمل بقانون الطوارئ؛ وكانت الناشطات يشكلن حوالى نصف المتظاهرين، وبرز من بينهن بخاصة الناشطات الإسلاميات وهن يرتدين الحجاب. ذهبت الحركة إلى ما هو أبعد من المطالبة بالتغيير فى مصر، فهم يدعمون الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين فى مواجهة العدوان الصهيو/ أمريكى ويتخذون مواقف مناهضة للعولمة ولهيمنة الولايات المتحدة. تحدى القضاة المصريون الدولة أيضا وطالبوا بالإشراف القضائى الكامل على الانتخابات، وباستقلال حَقٍّ للسلطة القضائية، ودعمتهم

المنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية والإخوان المسلمون والنقابات المهنية والمثقفون وأساتذة الجامعات وطلبتها.

عُقِدت مؤتمرات دورية مناهضة للحرب والإمبريالية بالقاهرة (٢٠٠٣-٢٠٠٨) بالتعاون مع نقابة الصحفيين وبمشاركة من حزب الكرامة القومى، والإخوان المسلمين وحزب الوسط، والاشتراكيين الثوريين، وحزب الإعمار [؟].

لهذه المؤتمرات أهمية خاصة حيث يوضح التعاون بين الإسلاميين والقوميين واليسار ملمحا مهما للأنشطة السياسية الجديدة فى مصر: من جهة يتضح أن كثيرا من النشطاء السياسيين الإسلاميين منفتحون على النقاش السياسى؛ ومن جهة أخرى، يتبين أن كثيرا من اليساريين العلمانيين والقوميين، وعلى الرغم من موقفهم الناقد للمشروع الإسلامى، يرفضون قمع النظام للإسلاميين. ويمثل هذا الشكل الجديد من التعاون بين مختلف القوى تحديا جديدا لنظام مبارك.

حضر هذه المؤتمرات نشطاء إسلاميون وعلمانيون واشتراكيون مناهضون للحرب من أنحاء الشرق الأوسط وأوربا وأمريكا الشمالية وغيرها من مختلف الأنحاء. وفى مواجهة الأزمات وحالة الفوضى الآخذة فى التعمق فى جميع أرجاء الشرق الأوسط، وكنتيجة لفشل سياسات الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل الكارثى بالمنطقة، وفّرت تلك المؤتمرات فرصة لإقامة الشبكات وتبادل الأفكار، والحوارات. قالت لى زينب، عضوة حزب الكرامة والناشطة فى حركة كفاية:

«أنشأنا، فى عامى ١٩٩٧ و١٩٩٨، وأثناء العقوبات على العراق «اللجنة الشعبية لإنقاذ أطفال العراق». نظمت اللجنة إرسال سبع قوافل مساعدات طبية للعراقيين، إلى جانب دعمها السياسى لهم. عارضنا

الغزو الأمريكى لأننا كنا نؤمن أن على العراقيين أنفسهم التعاطى مع نظام صدام حسين. فيما بعد، تحولت هذه اللجنة إلى «الحملة الدولية ضد الاستعمار الصهيونى والأمريكى»، والتى قامت بتنظيم مؤتمر القاهرة السنوى لمناهضة الحرب، وهو تجمع دولى تحضره المنظمات الدولية المناهضة للحروب، وتقوم أيضا بمناقشة مناهضة الصهيونية ودور الحكومات العربية فيما يتعلق بإسرائيل والغرب، وقضايا حقوق الإنسان».

تقول رباب المهدى، إن المرحلة الأولى لحركة التغيير بدأت بتحدى تولى مبارك لفترة خامسة مدتها ست سنوات ويرفض مخطط توريث ابنه الحكم؛ وكانت قد سبقتها حركة تعبئة شاملة لمناصرة انتفاضة ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ الفلسطينية رفعت شعار «الطريق إلى القدس يمر عبر القاهرة»، ثم حركة مناهضة الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، كانت حركة كفاية هى الدورة الثالثة للنشاط السياسى، وحينما بدأت كفاية تهدأ عام ٢٠٠٥، نشط قضاة مصر عام ٢٠٠٦ مطالبين باستقلال السلطة القضائية، وفيما خفتت حملة القضاة تطورت موجة نشطاء جديدة فى أوساط العمال والمهنيين.

وفى رد منها على حركات الاحتجاج، عاظمت الدولة من أساليبها القمعية. يواجه العمال والناشطون السياسيون الاعتقال والتعذيب المنهجى. تم تجديد العمل بقانون الطوارئ سيئ السمعة والذى يمنح الجهات سلطة توقيف الأشخاص واحتجازهم دونما توجيه تهم أو إجراء محاكمات، وقد أدى هذا إلى مزيد من وحشية الجهات الأمنية. وإضافة إلى المسجونين السياسيين، تعتقل الجهات الأمنية أطفال الشوارع ويتعرضون للانتهاكات الجسدية والجنسية. ويخضع الصحفيون

والنشطاء والقضاة بل وحتى أعضاء البرلمان للسجن والعنف. وعلى الرغم من خطاب الإصلاح السياسى ودعوات الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى إلى تطبيق الديموقراطية، فإن الحكومة المصرية تحتفظ بعشرة آلاف موقوف محتجزين منذ مدد مستطالة دونما توجيه تُهم.

فى عام ٢٠٠٦، تلقت مصر من الولايات المتحدة ما قيمته ١,٣ مليار دولار مساعدات عسكرية [وأمنية] و٤٩٠ مليون دولار مساعدات اقتصادية. تقرّر هذه المساعدات العسكرية والاقتصادية ومعها مخطط العمل المشترك بين الاتحاد الأوربى ومصر للدفع بصفقة عملية السلام، وشن الحرب على الإرهاب، تقرر النفوذ الذى تمارسه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى على مصر. يقال إن نظام مبارك يفرض إتاوة على «المجتمع الدولى» نظير دوره فى «الحرب على الإرهاب»، وكسمسار لهم فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. يرى مصريون كثيرون ممن يعانون الضيق الاقتصادى والقمع السياسى أن التواطؤ الوثيق بين النظام وبين الولايات المتحدة وإسرائيل يضمن الشرعية على معارضتهم له، وبخاصة أن البلاد تقترب من انتخابات ٢٠١١ الرئاسية.

مدى شعبية إيران فى مصر

كما ذهبنا فى الفصول السابقة، تشكل علاقات إيران بالحكومة السورية وحزب الله وحماس كتلة قوية ممانعة لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل فى المنطقة. وكما رأينا، فعلى الرغم من أن الحكومة العراقية الآن تجعل من العراق دولة عميلة للولايات المتحدة، فإن علاقات إيران الطيبة بالحكومة العراقية ودعمها للقوى المناوئة للاستعمار والمؤيدة للاستعمار معا أكسبتها نوعا من الأمن ضد التهديدات المحتملة من الولايات المتحدة وحلفائها والأهم هو أن دعم القواعد الشعبية فى المنطقة

لسياسات إيران المعادية للولايات المتحدة وإسرائيل تضع البلد فى موقع قوى للدفاع عن نفسها ضد أى هجوم محتمل. وعلى الرغم من الاختلاف السنى/ الشيعى، وعداء الحكومة المصرية لإيران، وتصوير الإعلام الرئيسى فى مصر والدول العربية لإيران على أنها قوة شيعية فى المنطقة تهدد الثقافة والهوية السنية، فإن إيران تتمتع بقدر لا بأس به من الشعبية فى مصر. يراها كثيرون نموذجا لهزيمة سطوة الدولة ونموذجا للممارسة الثورية. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أهمية الانقسامات بين القومية العربية مقابل القومية الإيرانية والاختلافات السنية الشيعية، فقد غيرت انتصارات حزب الله طبيعة تلك العلاقات. اكتسبت قناة المنار والسيد حسن نصر الله شعبية فى مصر. ونذكر فى هذا السياق كلام الشيخ القرضاوى عن تهديد إيران والمذهب الشيعى فى المنطقة والذى وجد أصداءً بالتأكيد لكنه أيضا ولّد كثيرا من الجدل فى مصر. فى عام ٢٠٠٨ ذهب الشيخ القرضاوى العالم السنى المصرى والداعية المؤثر المقيم فى قطر إلى أن إيران تنشر المذهب الشيعى الاثنى عشرى فى المنطقة ومن ثم تهدد المجتمعات السنية. لم تأت تلك الاتهامات من النظام المصرى أو إعلام التيار الرئيسى بل من داعية حداثى مؤثر كان قد أصدر فتوى أثناء الحرب الإسرائيلية على لبنان عام ٢٠٠٦ دعا فيها المسلمين إلى مناصرة حزب الله فى قتاله مع إسرائيل. كما عُرِف عنه أنه يرى أن المذهبين السنى والشيعى يتوافقان على المبادئ المهمة الأمر الذى زاد من شعبيته وبخاصة حينما دعا الجماعات السنية والشيعية فى العراق إلى إنهاء صراعها.

بيد أن تعليقاته بشأن إيران أثارت جدلا فى أوساط المثقفين العلمانيين والإسلاميين حتى أن بعض معجبيه ينقدون تعليقاته ويعتقدون

أنه وعلى الرغم من وجود اختلافات فقهية وتاريخية بين المذهبين فالخلافات القائمة اليوم هى سياسية لا مذهبية ويرون أن الوحدة ضد الصهيونية التى تدعمها الولايات المتحدة أكثر أهمية بكثير من الاختلاف الشيعى السنى. أخبرنى مصطفى، وهو عضو بجماعة الإخوان المسلمين بالقاهرة قائلاً:

«لا أومن أن الاختلاف السنى الشيعى قضية مهمة فقد كان الشيخ حسن البنا من أوائل الذين شجعوا التقارب بين السنة والشيعة وقال إن الشيعة هم الجناح الآخر للأمة ويجب أن تقوى العلاقة بين الاثنين. لا يعرف عامة المصريين الكثير عن الشيعة ويخلطون بينهم وبين الشيوعية لتشابه اللفظين. أما المتعلمون فيعتبرون الشيعة جزءا مهما من الأمة الإسلامية. قبل غزو العراق لم يكن أحد يذكر أى خلاف بين المذهبين ولم يكن ثمة انقسام، لكن الغزو الأمريكى أوجد الاعتقاد بوجود اختلاف خطير. علينا أن نتوحد ضد الصهيونية فى المنطقة. عملت الحرب على لبنان على تقارب السنة والشيعة والتآلف بينهم وفتح انتصار حزب الله فى تلك الحرب أعين المصريين على الحقائق».

أيضا، بينت لى أهداف الناشطة فى الجمعيات غير الحكومية الإسلامية والتى تزوج ابنها فتاة شيعية من لبنان، أنه:

«طالما يؤمن الإنسان بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله ونبيّه، فهو مسلم. نُعلم أحفادنا أن يؤدوا الصلاة بالأسلوبين. من المفيد أن تشكل إيران قوة فى المنطقة، فالبلدان الإسلامية بحاجة لقوة تتصدى لإسرائيل. لا يجوز أن نسمح للقوى الأجنبية ببث الفرقة بيننا، علينا أن نتوحد. وعلى الرغم من أن إعلام التيار الرئيسى يهاجم إيران والشيعة، إلا أن غالبية الشعب ينظرون إلى نضال حزب الله وإلى موقف إيران ضد إسرائيل ولا يصدقون الإعلام».

تمثل فلسطين قضية مهمة للشعب المصرى، وتنظم الحملات الشعبية دعما للفلسطينيين على الرغم من الأزمات الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية الداخلية، وعلى الرغم من محاولات سياسيي التيار الرئيسى وإعلامه إبعاد أنفسهم عن القضية الفلسطينية بذريعة أن للمصريين مشاكلهم وليس عليهم أن يدعموا الفلسطينيين. زاد دعم المصريين للفلسطينيين منذ عام ٢٠٠٥ لدى انسحاب إسرائيل من غزة، وفى كل مرة تهاجم فيها إسرائيل فلسطين أو لبنان يتزايد دعم المصريين الشعبين. أثناء حرب إسرائيل على غزة فى بداية ٢٠٠٩، كان رد فعل الحكومة المصرية هو نشر ٧٥٠ رجل أمن مسلح فى شمال سيناء لمراقبة الحدود مع غزة. ومع عجز الحكومة المصرية عن الحفاظ على مصالح البلد الاقتصادية والسياسية وتعزيزها، يعمل دعم إيران لفلسطين ولبنان على زيادة وعى المصريين بالموقف المتردى. قالت لى جيهان، العضو فى حزب الكرامة، والتى شاركت فى حملة لدعم أهالى غزة:

«لقد نظمنا قوافل تحمل ٤٠ طنا من الإمدادات الطبية لشقيقاتنا وأشقائنا فى غزة. طالبنا بطرد السفير الإسرائيلى وفتح معبر رفح لنقل المساعدات الطبية وإمدادات الإغاثة إلى شعب غزة. كانت القوافل تضم عمال بناء، وكهربائيين، ومعماريين لإعادة إعمار غزة. إن إغلاق معبر رفح وعدم السماح بوصول تلك الإمدادات إلى غزة جريمة يرتكبها النظام. وعلى عكس مصر، تتصدى إيران لأمريكا وإسرائيل، وعلى الرغم من أنها ليست بلدا عربيا فإنها تقوى مطالب العرب فى المنطقة. إنها بلد يسعى لاستقلاله ويحرص عليه. وقد تمكنت من بناء قدراتها العسكرية كى تستطيع مواجهة أمريكا والعدو الصهيونى. تبذل الحكومة المصرية جهدها لتصوير إيران على أنها هى عدو الأمة العربية وأنها تمثل تهديداً

أكبر مما تمثله إسرائيل. لكن غالبية المصريين لا يصدقون تلك البروباجندا. علينا أن نقوى وجودنا كقوتين متمايزتين - إيرانية وعربية كى نواجه إسرائيل وأمريكا. يحاول الإعلام الحكومى خلق فجوة أكبر بين المذهب السنى والشيعى، لكن بالنسبة لمعظم المصريين فإن إيران هى البلد الوحيد الذى يتصدى لإسرائيل ونحن نُعجب بها لذلك».

علقت أمانى من الاشتراكيين الثوريين قائلة:

«بالنسبة لمعظم المصريين فإن إيران هى الدولة التى أغلقت السفارة الإسرائيلية بعد ثورة ١٩٧٩ وطردت السفير الإسرائيلى وفتحت سفارة للفلسطينيين ومضت تدعمهم منذ وقتئذ. وفى هذا السياق فإن العلاقة بين السنة والشيعة أقوى من أى وقت مضى».

عبّر حسام من الإخوان المسلمين عن آراء مماثلة:

«إيران بلد لا تخضع للهيمنة الأمريكية على المنطقة، وبإمكانها صنع قراراتها المستقلة. يحترم المصريون إيران لدعمها حركات التحرر فى المنطقة ويرونها نقيضا تاما للنظام المصرى. أتمنى لو فعل النظام هنا ما تفعله إيران. تحاول حكومات المنطقة والإعلام العربى تصوير إيران على أنها العدو. لكن اعتداءات إسرائيل المستمرة على الفلسطينيين تخلق صورة إيجابية عن إيران. يدعم كثير من المصريين قدرات إيران النووية ويعتقدون أن على مصر أن تمتلك مثل تلك القدرات لأننا نجاور إسرائيل التى تمتلك ترسانة نووية تمثل تهديدا حقيقيا لنا. يجب أن تتوحد إيران وتركيا والعالم العربى فى مواجهة إسرائيل والإمبريالية الأمريكية».

ورغم إعجابهم بإيران، ينقد كثير من المصريين دورها فى العراق. ومثل الفلسطينيين يرون فى تركيا النموذج الحقيقى وبخاصة منذ أن غيرت مواقفها ودعمت الفلسطينيين. يقول سامح:

«أشيد بإيران لدعمها حركات التحرر بالمنطقة لكننى أنقد دورها فى العراق، كما أننى مستاء من روابط الحكومة التركية العسكرية والاقتصادية مع إسرائيل، لكن حرب غزة أدت إلى تغير علاقة تركيا بإسرائيل، كما أن تركيا نموذج صالح إذ إنها شاهد على أن بإمكان حركة إسلامية أن تتولى السلطة. أُعجب أيضا بالأسلوب التركى لعلمنة المجتمع. ومن هذه المنطلقات، فأنا أفضل تركيا على إيران».

مازالت القومية المصرية والقومية العربية تمثلان قوى مؤثرة فى مصر، ويميز الكثيرون بين القومية والوطنية والدولة – فقد فقدوا الثقة فى أن تحميهما الدولة. وفى نفس الوقت، يؤمن الإسلاميون وغيرهم بالقومية الإسلامية وبأنهم ينتمون إلى العالم الإسلامى بأجمعه، من ثم، فإن فكرة العلاقات الطيبة بين إيران وتركيا والعالم العربى قد اكتسبت شعبية كبيرة. بعد غزو أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣، ظلت مصر ممانعة فى إقامة علاقات مع النظام العراقى الجديد فى وجود روابطه بإيران. بيد أنه فى نهاية ٢٠٠٩ وبداية ٢٠١٠، فتحت الحكومة المصرية علاقات تجارية مع العراق من أجل تقليص النفوذ الإيرانى هناك. بيد أن مصريين كثيرين يرون أن الروابط بين إيران وتركيا والعالم العربى من شأنها أن تعمل على تقوية المنطقة فى مواجهة الصهيونية وداعميها الغربيين، وكما يؤكد كثير من المصريين والفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين تكرارا «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب».



-8-

السياق الكوكبى للدولة والمجتمع فى إيران

يُعنى هذا الكتاب بدينامیات إيران الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية الداخلية. ونفوذها وتأثيرها فى المنطقة نتيجة لطبيعتها كدولة دينية/ سياسية. تُبيِّن الأصوات المُطّلعة للإيرانيين واللبنانيين والعراقيين والفلسطينيين والمصريين التى سجّلها الكتاب كيف أن ضغط مختلف الجماعات بالداخل الإيرانى وفى أنحاء المنطقة ظل يعمل على تشكيل أدوار إيران الداخلية والإقليمية والدولية.

تُركِّز الفصول الثلاثة الأولى على تعقيد بُنى إيران المؤسسية، وتوضح التطورات الاجتماعية/ الاقتصادية وأيضا أوجه القصور التى لا يمكن إنكارها للدولة الإيرانية والمجتمع الإيرانى منذ ثورة عام ١٩٧٩. أدت تلك التطورات إلى خلق تناقضات داخل الدولة والمجتمع الإيرانى تشكلت على إثرها حركة ديموقراطية قوية منذ منتصف التسعينيات. وليس هذا بالأمر الجديد، إذ إنه استمرار للحركات التاريخية منذ الثورة الدستورية فيما بين عامى ١٩٠٦– ١٩٠٧. وتأميم النفط عام ١٩٥١ وثورة ١٩٧٩، والتى تتشارك جميعها فى عامل النضال من أجل الديموقراطية والاستقلال عن الهيمنة الإمبريالية.

وعلى مدى عقود طويلة، هدد هذا النضال المصالح الغربية الاقتصادية

والسياسية فى إيران. وكان الرد المعتاد من اللاعبين الكوكبيين، وبخاصة الولايات المتحدة، يأتى فى شكل قمع حركات اليسار العلمانى والقوميين فى إيران، بل وحقا فى المنطقة جميعها، ثم تطور مؤخرا ووُجِّه القمع ضد الحركات الإسلامية. ظلت تلك القوى الغربية تدعم الأنظمة الديكتاتورية. بل وذهبت إلى خلق جماعات متطرفة مثل طالبان والقاعدة كى تضمن مصالحها الاقتصادية والسياسية فى المنطقة. بيد أن الحركات الإسلامية الحديثة التى حلت محل حركات اليسار والحركات القومية الاجتماعية اكتسبت دعم غالبية شعوب المنطقة تحديدا من خلال التعبير عن معارضتها للسياسة الأمريكية والإسرائيلية. من ثم، مازال الغرب يواصل عداءه ضد تلك الحركات على الرغم من أن الحركات الإسلامية الرئيسية،

وبضغط من الغالبية، تعتقد فى عدم وجود تعارض بين الإسلام والحداثة والديموقراطية. عمّقت ظاهرة الإسلاموفوبيا الملموسة مشاعر الغضب والاستياء العميق بين غالبية شعوب المنطقة، والذين يشعرون أن ثقافتهم تتعرض لهجمة خبيثة شرسة مما دفعهم لتبنى مزيد من مظاهر التدين والتوجهات القومية. أشعلت مطالبات الولايات المتحدة فرض الديموقراطية من أعلى المشاعر القومية/ الدينية وأدت إلى نزع الشرعية عن حكومات المنطقة الموالية للغرب. فضحت الحرب على العراق وأفغانستان، ومعها «الحرب على الإرهاب»، وما حدث فى جوانتنامو، وأبوغريب فى العراق وباجرام فى أفغانستان - فضحت خطاب الغرب المعيب حول إقامة الديموقراطية الغربية فى الشرق الأوسط. وكما ورد فى هذا الكتاب، فحيثما سنحت الفرصة للشعوب بالتصويت الانتخابى، كانت أصواتهم تذهب بغالبيتها إلى التنظيمات الإسلامية مثل حزب الله وحماس. وكما يرى عدد من الباحثين والمراقبين، يواجه الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة أزمة شرعية إقليمية ودولية، ولم يعد خطاب حقوق الإنسان وحقوق النساء والديموقراطية يجد أصداء فى الشرق الأوسط وخارجه.

وفى هذا السياق، ركزت الفصول من ٤: ٧ على كيفية نظر الجماعات المختلفة في لبنان والعراق وفلسطين ومصر لإيران. فلكى نخرج بنظرية عن أثر إيران ونفوذها فى المنطقة، تفحصنا استجابات المجموعات المختلفة لسياسة إيران والولايات المتحدة الخارجية، وكانت الخلاصة هى أن فشل سياسات إسرائيل والغرب فى المنطقة عملت على تقوية وضع إيران وعلاقتها بجيرانها حيث عزّز موقفها المتحدى للغرب تأثيرها ودورها إلى حد كبير. أدى هذا إلى أن ينظر معظم أهالى المنطقة إلى

حكومات بصفتها عميلة للولايات المتحدة تضحى بمصالح شعوبها الاقتصادية والسياسية والثقافية فى سبيل خدمة النيوليبرالية والصهيونية. ينظر كثيرون إلى إيران بصفتها نموذجا لهزيمة سلطة الدولة، وللممارسة الثورية. وفى هذا السياق، فإنه بالرغم من مختلف أشكال القوميات، والاختلاف السنى الشيعى، وتصوير الإعلام الكوكبى النافذ لإيران على أنها قوة شيعية تهدد الثقافة السنية والهوية العربية القومية، تستمر شعبية إيران فى التنامى. يركز هذا الفصل الآخر على السياق الكوكبى لدولة الإيران الدينية/ السياسية، وعلى كيفية أن شعبية السياسة الخارجية الإيرانية لدى شعوب المنطقة أدت إلى نفورهم من الغرب وإلى عداء الغرب وحكومات المنطقة لإيران.

«إما معنا أو مع الإرهاب»:

أدت ثورة ١٩٧٩ وانسحاب إيران من التعاون العسكرى والتجارى مع الغرب إلى تهديد المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للولايات المتحدة وحلفائها فى المنطقة. تحدت الثورة أيضا مصالح الغرب الاجتماعية/ السياسية، حيث إن غالبية شعوب المنطقة، وقد استلهموا الثورة، بدأوا يسائلون أنظمتهم الموالية للغرب، كما إن عدم اهتمام تلك الأنظمة بقضايا الفقر والبطالة وغياب حقوق الإنسان الأساسية، أدى إلى تحدى تلك الشعوب لقياداتها. ومن هذا المنطلق، فإن شعبية النموذج الإيرانى تهدد النفوذ الغربى فى المنطقة.

فى يناير ١٩٨٠، أعلن الرئيس جيمى كارتر أن أية محاولة للتحكم فى الخليج الفارسى ستُعتبر هجوما على مصالح الولايات المتحدة وستواجه بأية وسائل ضرورية بما فى هذا المواجهة العسكرية. كذلك، فقد ذهب هنرى كيسنجر تكرارا إلى أن الولايات المتحدة على استعداد للتعاون مع

إيران طالما توافقت سياساتها مع آراء واشنطون، وإلا ستتخذ واشنطون ما يلزم من التدابير لتدمير تأثير إيران ونفوذها فى المنطقة. فى بداية التسعينيات، وضع پول وولفويتز، وكيل وزارة الدفاع ما بين عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٥، الخطوط الأساسية لاستراتيجية المحافظين الجدد فى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا بحيث تظل الولايات المتحدة القوة المهيمنة على المنطقة وتحافظ على إتاحة بترولها للولايات المتحدة والغرب من خلال الحروب الاستباقية. وفى يناير ٢٠١٠، وأثناء استجوابه أمام لجنة Chilcot حول الحرب على العراق، ذكر طونى بلير رئيس وزراء المملكة المتحدة فيما بين عامى ١٩٩٧ و٢٠٠٧، ذكر إيران ثمان وخمسين مرة، وبدون أن يُبدى أى أسف لإراقة دماء العراقيين التى ساعدت عليها سياسته، دعا إلى شن حرب ضد إيران بذريعة أنها بارتباطها بالمجموعات الإرهابية تمثل تهديدا خطيرا بخاصة كما أنها مسئولة عن كثير من زعزعة الأوضاع فى الشرق الأوسط.

العامل المشترك بين مثل تلك التعليقات جميعها هو ما عبر عنه تصريح چورچ دبليو بوش سيئ السمعة فى سبتمبر ٢٠٠١ فى خطاب له أمام كونجرس الولايات المتحدة حينما أبلغ بلدان العالم «إما أنكم معنا أو مع الإرهابيين». بتعبير آخر، فإن أى بلد فى الشرق الأوسط يتحدى مصالح الغرب سياسيا أو اقتصاديا يواجه تهديدات ثأرية.

الحرب على إيران:

أثناء الحرب الإيرانية/ العراقية فيما بين عامى ١٩٨٠ و١٩٨٨، دعمت الولايات المتحدة نظام صدام حسين كوسيلة لاحتواء الثورة الإيرانية وأثناء ١٩٨٦ - ١٩٨٨، وفى رد على احتمال انتصار إيران على العراق، تم نشر القوات البحرية والجوية الأمريكية لضمان عدم خسارة العراق

الحرب. بيد أنه، وكما جاء فى الفصل الخامس، قام صدام حسين (الذى كانت الولايات المتحدة تدعمه كثقل مضاد لإيران) بتجاوز الخط المرسوم له فى تراتبية القوة الاقتصادية والعسكرية الكوكبية بأن اجتاح الكويت عام ١٩٩٠. وبناء على ذلك، تم غزو العراق واحتلالها والإطاحة بصدام. لم ينجم عن الحرب على العراق التصالح مع إيران، بل كانت الحرب هى ضمن سياسة «الاحتواء المزدوج» التى كانت موجهة ضد البلدين معا، والتى بدأها بوش الأب، وواصلها بيل كلينتون بعد حرب الخليج عام ١٩٩١.

وكما جاء فى الفصل الأول كان من تبعات الحرب الإيرانية/ العراقية خلق حالة طوارئ أدت إلى وجود دولة أكثر مركزية وسلطوية فرضت مزيدا من الأسلحة ، وقمع النساء واليسار العلمانى والقوميين. كانت سنوات الحرب قد عملت على تراجع القومية الإيرانية وزيادة مظاهر التدين. من ثم، وكما هو الحال دائما، أنتجت الحرب دولة قوية وساعدت على تشكيل السياسات الداخلية والخارجية. أتاحت للأجنحة المحافظة من الإسلاميين تدعيم سطوتهم، وبمرور الوقت، نجم عن تهديد الغرب المستدام بالحرب على إيران، وفرضه العقوبات عليها، مستوى متعاظم من القمع السياسى. وطوال التسعينيات وحتى الآن، وفى ظل حكومة خاتمى الإصلاحية (١٩٩٧- ٢٠٠٥) وحكومة أحمدى نجاد المحافظة منذ عام ٢٠٠٥، استمر عداء الغرب لإيران، على الرغم من حقيقة أن النظامين تبنيا النيوليبرالية الاقتصادية، ودعوات فى مناسبات عدة، إلى تحسين العلاقات مع الغرب.

ظلت ثمة تقارير؛ منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بأن الولايات المتحدة تخطط لضربة عسكرية ضد إيران. ذهب سيمور هيرش الكاتب والمحقق

الصـحـفى، والذى يكتب بانتظام فى دورية النيـويوركـر، ذهب إلى أن الاستعدادات للحرب على إيران بدأت عام ٢٠٠٢. بعيد انتخاب جورج دبليو. بوش، دعا علناً وبوضوح إلى «تغيير النظام» فى إيران. تقول التقارير أن ديك تشينى، نائب الرئيس أعد فى عام ٢٠٠٥، خطة للحرب على إيران تشمل استخدام الأسلحة النووية. كانت الخطة تقضى بنشر ٢٠٠ قاصفة استراتيجية ضد ١٠٠٠٠ هدف، قُدِّر فيها قتل ٢ مليون شخص فى وقت قصير.

وعلى الرغم من التهديدات المستدامة بالحرب، قامت إيران فى عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٣، فى ظل إدارة خاتمى، وفى عام ٢٠٠٨، فى عهد أحمدى نجاد بتقديم مجموعة من المقترحات إلى الولايات المتحدة تضمن استقرار الوضع فى أفغانستان، وحلاً للصراع الإسرائيلى الفلسطينى. كان ما طالبت به إيران نظير ذلك هو ضمان بعدم هجوم الولايات المتحدة عليها أو محاولة فرض «تغيير النظام» بالقوة، وبأن ترفع الحظر على عضوية إيران لمنظمة التجارة العالمية. ومن المفارقات، أن كان رد فعل إدارة بوش هو مزيد من العداء. قام بتزويد إسرائيل بأسلحة خاصة لتهديد إيران. تعمل القوات الجوية الإسرائيلية (والتى هى الأكثر تقدما وتطورا من قوات أى من بلاد النايتو باستثناء الولايات المتحدة) من قواعد أمريكية موجودة شرقى تركيا و تقوم بطلعات مستدامة حول الحدود الإيرانية بهدف تهديد إيران.

علاوة على ذلك، فإن إيران، منذ احتلال الولايات المتحدة للعراق، وغزو قوات النايتو لأفغانستان، ونشر الولايات المتحدة لقوات هائلة فى الخليج وتركيا وباكستان، والتواجد العسكرى الأمريكى المؤيد فى أزربيجان، فإن إيران محاطة بقوات عسكرية أمريكية وقوات متحالفة معها. وفى عام

٢٠٠٧ بدأت الولايات المتحدة فى إنشاء قاعدة عسكرية لها فى العراق على مسافة أقل من خمسة أميال من الحدود الإيرانية.

أدت هذه التهديدات والعقوبات، وبدلا من تغيير النظام، إلى معاناة الشعب الإيرانى. أُنشِئت بنية إيران الأساسية، وبخاصة صناعتها النفطية وخطوط طيرانها المدنية، فى عهد الشاه، ومازالت تعتمد على قطع الغيار المصنوعة فى الولايات المتحدة وغير المتاحة فى ظل نظام العقوبات المفروض نتيجة لهذا، تواجه الخطوط المدنية أخطار الحوادث. علاوة على ذلك، فإن للعقوبات أثراً ساحقاً على قدرة إيران على إعادة بناء مصافيها النفطية وتحسينها، ومن ثم لا تقلص فقط صادرات نفطها الخام إلى الأسواق النفطية بل استخدامه محليا. بل إنه حتى ما يُسمى بـ «العقوبات الذكية» التى تستهدف مؤسسات الدولة بما فيها الحرس الثورى، كان لها تأثير على عدد كبير من عامة الناس لأن هذه المؤسسات، هى فى النهاية جزء من دولة إيران واقتصادها.

تغيير النظام:

مازال الغرب مستمرا فى خطاب «تغيير النظام» فى إيران بأساليب متنوعة. فى عام ٢٠٠٥، دعا مايكل لدين، من المحافظين الجدد، والذى يعمل بالأمريكان إنترابرايز إنستيتيوت، دعا إلى فكرة وجوب فدرلة إيران. تقوم القوات الخاصة الأمريكية والاستخبارات الإسرائيلية والعملاء العسكريون، بعمليات سرية داخل إيران لإشعال النزاعات الإثنية فى عدة أقاليم. يقول سيمور هيرش، إن كونجرس الولايات المتحدة وافق فى عام ٢٠٠٧ على تصعيد كبير فى العمليات السرية ضد إيران، وخصص ٤٠٠ مليون دولار لزعزعة البلد من خلال التجسس على برنامجه النووى واختراق الأقليات الإثنية.

وباسم تمويل الديموقراطية فى إيران، خصصت كونديليزا رايس ٧٥ مليون دولار إضافية للإنفاق على وسائل الدعاية القائمة التى شملت بث التليفزيونات الفضائية مثل صوت أمريكا باللغة الفارسية، والتى تهدف إلى تغيير النظام فى إيران. كان رد الحكومة الإيرانية هو اعتقال النشطاء وإغلاق كثير من المنظمات غير الحكومية. وفى عام ٢٠٠٨، خصصت «يوسايد» ٢٠ مليون دولار للمساعدة على «تعزيز الديموقراطية وحقوق الإنسان وحكم القانون فى إيران». ظل كثير من نشطاء المجتمع المدنى فى إيران يدينون هذه التمويلات لأنها تؤدى إلى نتائج عكسية ويقولون إن الأموال لا تصل إلى الناس بل تذهب إلى المجموعات التى تتخذ الغرب مقرا لها مثل المجاهدين الإيرانيين والمجموعات المؤيدة للنظام الملكى. إن هذا التمويل الذى توسع فى عهد چورچ دبليو. بوش مازال مستمرا فى عهد أوباما رغم تصريحاته بأن الولايات المتحدة لن تتدخل فى الشئون الإيرانية.

ومنذ انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية، والحركات التى تدعمها الغرب مثل مجاهدى إيران والملكيين، تحاول اختراق الحركة الخضراء. عمدت قيادات الحركة إلى النأى بنفسها عن هؤلاء المُغرضين أو أفعالهم، وعن الحكومات الغربية من منطلق اعتقادهم أن هدف هؤلاء ليس هو نشر الديموقراطية وتعزيزها بل تحويل إيران إلى نظام تابع عميل ووقف برنامج إيران النووى وتغيير موقفها من إسرائيل. وكما ذكرنا فى الفصل الثانى، فقد أعلن قادة حركة الإصلاح والديموقراطية مرارا أنهم لا يهدفون إلى تقويض الدولة الإسلامية، أو الاعتراف بإسرائيل أو تقليص تأثير إيران فى المنطقة. وفى تلك الأثناء، تتواصل العمليات العلنية والسرية ضد إيران، الأمر الذى سيؤدى إلى إضعاف حركة الديموقراطية.

القنبلة النووية:

استخدم الغرب أيضا مسألة برنامج إيران النووى لدعم تهديداته وتبريرها، وفى هذا السياق، فمن المهم توضيح أن هذا البرنامج كان قد بدأ فى الخمسينيات والستينيات بتشجيع تكنولوچى وسياسى من الولايات المتحدة. توقف برنامج إيران النووى لخمس سنوات بعد سقوط الشاه وثورة ١٩٧٩. وأثناء الحرب العراقية، عمد صدام حسين إلى قصف مواقع إيران النووية عدة مرات وبعد الحرب، وقّعت إيران مع الاتحاد السوڤييتى معاهدة تعاون نووى لبناء موقع بوشهر فى جنوب البلاد. وفى عام ١٩٩٥ وقّعت إيران اتفاقية أخرى مع روسيا لإعادة بناء المفاعل النووى وتقديم الدعم التكنولوچى لإنتاج الطاقة النووية بإيران.

ومنذ وقتئذ والولايات المتحدة وإسرائيل تتهمان إيران بتطوير أسلحة «دمار شامل». بيد أن إيران هى إحدى الموقعين على معاهدة منع الانتشار النووى، ومثل بقية الموقعين، يؤكد البند الحادى عشر من هذه المعاهدة على حق الموقعين فى إنتاج الطاقة النووية من أجل الاستخدامات السلمية. وقد صرحت إيران تكرارا بأنها ملتزمة بإجراء التفاوضات، بدلا من المواجهة، مع القوى الغربية، من موقع الندية، للوصول إلى حل سلمى للمسألة النووية. كما أن مسئوليها صرحوا أيضا بالتزام إيران بعدم انتشار الأسلحة النووية، بل ونزعها والقضاء عليها على مستوى العالم، لأن مثل تلك الأسلحة تعتبر تهديدا لأمنها وللحياة البشرية جمعاء. من ثم، فقد أعلنت استعدادها للالتزام بنصوص معاهدة منع الانتشار النووى وبالعمل على إنشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل فى الشرق الأوسط. ومقابل ذلك، وبضغط من المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة وداعميهم الدوليين، ظلت إيران تواجه التهديدات

والترويع بناء على تكهنات لا أساس لها بنواياها لإنتاج أسلحة دمار شامل.

أيضا، استخدم الإعلام والسياسيون الغربيون تصريح أحمدى نجاد الذى ينكر فيه الهلوكوست ذريعة لشيطنة إيران وتمهيد الطريق لتوسيع مدى الحروب القائمة بالمنطقة لتشمل إيران. ربما كان موقف الرئيس الإيرانى يمثل محاولة ساذجة منه لتأكيد وضعه القيادى فى المنطقة. وفيما أنه يجب شجب مثل هذه التصريحات بأسلوب مطلق فلابد من القول إن إنكار الهلوكوست والمشاعر المعادية للسامية قد أصبحت منتشرة فى المنطقة(١)، وهذا أمر يبعث على عميق القلق إذ إن هذا النمط من معاداة السامية بجذوره الأوربية لم يكن معروفا فى العالم الإسلامى، وثمة أدلة كثيرة على التعاون بين اليهود والمسلمين وقت ازدهار الحضارة الإسلامية. وكما ذكرنا فى الفصل السادس، فإن تصاعد معاداة السامية سببه إسرائيل وسياساتها الصهيونية العدوانية. يسعى أحمدى نجاد،

(١) ليس أحمدى نجاد وحده هو من ينكر الهلوكوست، فقد أنكرها مؤرخون غربيون انتهى بهم الأمر إلى فقدان وظائفهم ومحاكمتهم. كما أن ثمة شبه إجماع على أن النازيين لم يرتكبوا البشاعات فى حق اليهود وحدهم بل فى حق كثير من الأقليات مثل الغجر بل وبعض الألمان المسيحيين، وكل من لا ينتمى للجنس الآرى. علاوة على ذلك، لم يتعرض يهود إسرائيل ومنشئوها فى غالبيتهم للاضطهاد، بل إن بعض مؤسسى الحركة الصهيونية تعاونوا مع النازيين فى مجالات عدة مالية وسياسية (انظر كتاب لنى برنر «٥١ وثيقة، تعاون الصهيونية مع النازيين») لكن إسرائيل جعلت من الهلوكوست صناعة تبتز بها الغرب وتُرهب بها كل من يحاول نقد سياسة إسرائيل. (انظر «صناعة الهلوكوست» للكاتب اليهودى نورمان فنكلشتاين) أما القول بأن إنكار الهلوكوست والمشاعر المعادية للسامية أصبحت منتشرة فى المنطقة فهو قول مغلوط، لأن المشاعر المنتشرة هى معاداة السامية والسياسة الإسرائيلية العدوانية التوسعية إذ إن «معاداة السامية» فكرة ومصطلحا وممارسة هى إبداع غربى ولا علاقة لعالمنا به. (الترجمة)

من خلال مثل تلك التصريحات إلى تعزيز وضع إيران فى العالم الإسلامى وبخاصة فى وقت يحاول فيه الساسة الغربيون والإعلام الكوكبى إثارة المشاعر المعادية للشيعة فى المنطقة وبث الفتنة المذهبية.

وعلى الرغم من الدعاية الإعلامية حول برنامج إيران النووى فقد أوضح «تقرير الاستخبارات القومية NIE» الأمريكية حول إيران أنه ليس لدى إيران برنامج لإنتاج الأسلحة النووية على عكس ما تزعمه السى أى إيه. وعلى الرغم من ذلك أعلنت إدارة بوش وإسرائيل، فى عام ٢٠٠٨، أن هذا التقرير لن يغير سياستهما تجاه إيران.

تذهب سيدة لطفيان، وهى متخصصة إيرانية تعارض إنتاج الأسلحة النووية، إلى أن تهديد إسرائيل والولايات المتحدة بشن عدوان مسلح على إيران، أدى إلى مناقشات فى أوساط صناع القرار، والأكاديميين، والسياسيين فى إيران حول القضايا النووية. وبتحليلها لتلك النقاشات وجدت أن الإيرانيين من جميع الأطياف السياسية منقسمون إلى معسكرين يؤيد أحدهما المضى قدما فى البرامج النووية ويعارضهم المعسكر الآخر. ومن موقعها كمعارضة، تؤكد لطفيان أن «من مسئوليات المجتمع الدولى تلافى أية إجراءات قد تؤدى إلى رد فعل إيران إما بالانسحاب من معاهدة منع الانتشار النووى أو الإسراع فى تحديث أسلحتها».

تدعم غالبية الشعب الإيرانى من جميع الانتماءات السياسية، وبغض النظر عما يوجهونه من نقد للحكومة، حق بلدهم فى الدفاع عن نفسه ضد أى تهديد من إسرائيل أو الولايات المتحدة. يرى الشعب الإيرانى إسرائيل على أنها قوة نووية كبرى لديها احتكار إقليمى للردع والابتزاز النوويين. وبوضعها كقوة نووية، فقد انتهكت إسرائيل دوما القانون

الدولي، ومضت تشن الهجمات على الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين وتوجه التهديدات ضد إيران بأسلوب مستدام. وفى هذا السياق، تدعم شعوب المنطقة امتلاك بلادهم للقوة النووية، ويتساءلون عن سبب تجاهل الولايات المتحدة وإسرائيل مطالبات مصر، وهى دولة حليفة للغرب وموقعة على معاهدة عدم الانتشار النووى، جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من الأسلحة النووية. ذكرتُ فى تمهيدى لهذا الكتاب تعليق حارس الأحذية فى أحد مساجد القاهرة الذى امتدح به إيران وعبر عن أمنيته فى أن تمتلك إيران القنبلة. وتوضح التعليقات التى سمعتها والتى تعبر عن مشاعر مماثلة، شعبية إيران فى المنطقة، وكيف أن الكثيرين يرون تقدم إيران فى مجال التكنولوجيا وامتلاكها المعركة التكنولوجية واحتمال إنتاجها للأسلحة النووية على أنه رد إيجابى من دولة مسلمة على ممارسات الغرب وإسرائيل العدوانية فى المنطقة.

يرى باحثون ومعلقون من أمثال تشومسكى، أن الولايات المتحدة وإسرائيل تريدان منع إيران من امتلاك أسلحة نووية ليس لأنها ستشن عليهما أو على دول المنطقة هجوما - لأن هذا سيكون انتحارا بلا شك - بل لأن امتلاك إيران لمثل تلك الأسلحة سيجعل منها قوة ردع فى مواجهتهما. وتوضح العلاقات بين باكستان والهند وإسرائيل (وكلها دول نووية) وبين الغرب بما لا يدع مجالا للشك أنه فى حال أصبحت إيران نظاما عميلا للغرب ستكسب كل الدعم لبرنامجها النووى بل وربما لإنتاج أسلحة نووية. ومن الواضح أن العداء الذى يبديه الغرب لبرنامج إيران النووى هو فى واقع الأمر بسبب أن إيران لم تعد دولة عميلة له ورغبته فى أن تصبح كذلك (الأمر الذى سيفيد بخاصة شركات النفط الأمريكية)، وأيضا من أجل الحيلولة دون أن تطور إيران قدرات مستقلة

على توليد الكهرباء، وتوفر لنفسها الأمن فى مجالات الطاقة المختلفة.

دولة راعية للإرهاب:

ظلت الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وإسرائيل منذ ثورة ١٩٧٩ تتهم إيران بأنها دولة راعية للإرهاب، وهو عامل آخر يُستَخدم لإضفاء الشرعية على هجماتهم عليها. لكن فكرة تورط إيران فى أية عمليات إرهابية، أو دعمها للإرهاب ليس لها أى أساس شرعى أو قانونى لأنه ليس ثمة دليل أو قرينة تدعم هذه المزاعم.

وكما أسلفنا، فإن دعم إيران لحماس وحزب الله ظل ذا طبيعة سياسية، علاوة على أن المنظمتين قد تحولتا منذ الثمانينيات إلى حزبين سياسيين لهما تواجدهما فى الحياة السياسية لبلديهما. قد يقال إن لكليهما جناحين عسكريين وإن بعض أنشطتهما شملت هجمات على مدنيين فى انتهاك للقانون الدولى، وإن بعض تلك الهجمات قد تعتبر «إرهابا». لكن، وكما بينًا فى الفصلين الرابع والسادس، فإن مساعدات إيران المالية للتنظيمين هى مساعدات حد أدنى كما أنهما ليسا بحاجة إلى دعم إيران العسكرى، إذ إنهما يستمدان جميع أنواع الدعم من شعوب المنطقة التى تعارض سياسات الولايات المتحدة وإسرائيل وممارساتهما العدوانية فى المنطقة.

يصور الساسة الغربيون والإعلام الغربى الشرق الأوسط على أنه منطقة يهيمن عليها المتطرفون الذين تدعمهم، جميعهم، إيران. وعلى النقيض من ذلك، فإن مجموعات الإسلام السياسى السائدة فى المنطقة تتسم بالاعتدال وتسعى لتحقيق أهدافها من خلال العمليات السياسية والانتخابية، أما هؤلاء الذين يستخدمون العنف والتطرف لبلوغ أهدافهم فهم الأقلية.

وفى الواقع، فإنه يمكن القول إن صعود التطرف فى المنطقة، وعلى مدى عقود، هو نتيجة للسياسات والعلاقات الدولية. إن المملكة العربية السعودية، إضافة إلى إسرائيل، هى أهم حليف للولايات المتحدة بالمنطقة. أثناء الحرب الباردة، عملت الولايات المتحدة عن عمد مع الإسلاميين المحافظين المرتبطين بالسعودية لمجابهة اليسار العلمانى والقوميين في المنطقة، وهى سياسة استمرت طوال الحرب السوفييتية فى أفغانستان حيث جندت الولايات المتحدة المجاهدين الأفغان وعبأتهم وسلحتهم ودربتهم لقتال الاتحاد السوفييتى، أى أن الولايات المتحدة هى التي خلقت تنظيم القاعدة وطالبان اللذين انقلبا عليها فيما بعد مما أدى إلى أحداث ٢٠٠١/٩/١١.

علاوة على ذلك، فقد أدى احتلال العراق وغزو أفغانستان إلى وجود أراض جديدة لتدريب الإرهابيين الذين أصبحوا منتشرين فى أنحاء العالم، بل إن بعض المراقبين والباحثين يذهبون إلى أن التحكم فى موارد الطاقة فى الشرق الأوسط والهيمنة السياسية والثقافية على المنطقة أصبحت لها الأولوية على مجابهة الإرهاب الذى يهدد الولايات المتحدة وبريطانيا. وكان مؤتمر لندن الذى عقد فى يناير ٢٠١٠ دليلا على ذلك، إذ أعلن رؤساء الدول الغربية والأمم المتحدة والناتو، أن بإمكانهم، بمساعدة المملكة العربية السعودية تبادل المصالح والتعاملات مع طالبان بل حتى السماح لها، وهى التنظيم المسلح المتطرف، بالمشاركة فى السلطة. وهكذا، وبعد ثمانى سنوات من احتلال أفغانستان، وقتل ووفاة عشرات آلاف المدنيين والعسكريين، وتعاظم الفساد، وعدم تغير الأوضاع بالنسبة للشعب من حيث إتاحة فرص العمل والتعليم والرعاية الصحية أو تحسين وضع المرأة، يخطط الغرب

مرة أخرى للتواطؤ مع طالبان التى تتعاون مع تنظيم القاعدة وتتقاسم الأموال معها، والذين، معاً، يسيطرون على معظم البلد، ويمتلكون القدرة على الإطاحة بحكومة كرزاى. وفقا لسوماس ميلن، فإن هذه السياسة لا تهدف إلى إنهاء الحرب حيث إن باراك أوباما مازال يرسل عشرات الآلاف من الجنود إلى أفغانستان، لكنها تهدف إلى شق صفوف طالبان والقاعدة كى تضمن الولايات المتحدة مصالحها الاقتصادية والسياسية فى المنطقة.

تراجع الهيمنة الأمريكية:

يرى كالينيكوس (٢٠٠٣) وهارفى (٢٠٠٣) أن الولايات المتحدة تملك التفوق العسكرى لكنها تواجه تحديات اقتصادية فى الشرق الأوسط من أوربا وروسيا والصين واليابان، التى تعتمد أيضا على صادرات النفط [باستثناء روسيا] من المنطقة. أما الصين (تلك القوة الاقتصادية الكوكبية الصاعدة والتى تنافس الولايات المتحدة على مجالات سيطرتها]، فعلى الرغم مما للولايات المتحدة من تفوق عليها، فإن ذلك التفوق يكبحه بدرجة هائلة اعتمادها المفرط على تدفق رأس المال عليها من الصين ودول الشرق الأخرى. كان أحد أهداف «الحرب الكوكبية على الإرهاب» واحتلال العراق وغزو أفغانستان استخدام تفوق الولايات المتحدة العسكرى لتعزيز سيطرتها على المنطقة وتذكير الجميع بتكلفة تحدى الهيمنة الأمريكية. بيد أنه، وعلى الرغم من أن ذلك التفوق العسكرى كان كافيا لغزو أفغانستان والعراق واحتلالهما، فلم تتمكن الولايات المتحدة من التحكم فى هذين البلدين أو فى مواردهما، والنتيجة هى أن الولايات المتحدة وحلفاءها من النايتو مازالوا غارقين فى مستنقع تلك الحروب التى لا يمكن كسبها.

لتراجع هيمنة الولايات المتحدة تضميناته بالنسبة للتحالف بين إسرائيل وواشنطون أيضا. يمثل مثل هذا التحالف قوة عسكرية هائلة مرعبة فى مواجهة التهديد الذى تمثله الحركات الإسلامية (الذى يماثل تهديد القومية العربية فى الماضى) واحتوائه. بيد أن تنامى الحركات الإسلامية فى المنطقة، وانتصار حزب الله على إسرائيل فى عام ٢٠٠٦، وفوز حماس فى الانتخابات التشريعية [وصمودها فى مواجهة العدوان الإسرائيلى]، تمثل جميعها صعوبات مماثلة لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل. حينما هاجمت إسرائيل لبنان فى عام ٢٠٠٦، رأت إدارة بوش فى الحرب على حزب الله، حليف إيران، فرصة لإضعاف الجمهورية الإسلامية بيد أن هزيمة إسرائيل فى تلك الحرب، ركز الأنظار بوضوح على مأزق شرعية أمريكا الدولية إذ إن واشنطون ولندن كانتا الداعمتين الوحيدتين [على المستوى العسكرى واللوچستى] لإسرائيل فى تلك الحرب. قوى انتصار حزب الله وضعه ووضع إيران، ومن ثم، أضعف قبضة إسرائيل والولايات المتحدة. وبالمثل، فقد أدى انسحاب إسرائيل من غزة إلى تقوية حماس.

كان وصول باراك أوباما إلى الرئاسة بعد إدارة چورچ دبليو. بوش التى ساءت سمعتها فى جميع الأنحاء، محل ترحيب فى أنحاء الكوكب، ورأى كثيرون فى الولايات المتحدة أن هذا قد يؤدى إلى مداواة الجراح والندبات التى خلفها الاسترقاق والعنصرية فى المجتمع الأمريكى. بيد أن السلطة التى يملكها رئيس الولايات المتحدة متناسجة بإحكام فى سياسة واشنطون الخارجية، وبخاصة سياستها فى الشرق الأوسط. ولهذا أهمية خاصة اليوم فى وقت تصارع فيه واشنطون أزمة هيمنتها المتراجعة على النظام العالمى، تلك الهيمنة التى تتحداها الصين. من ثم،

نرى أن سياسة الولايات المتحدة التى تهدف إلى توكيد تحكمها الكوكبى على الموارد الاستراتيجية - والنفط بخاصة - وتوسيع مدى سطوتها عسكريا واقتصاديا وسياسيا مازالت مستمرة فى عهد أوباما. اتضح هذا فى خطاب أوباما الذى ألقاه أمام منظمة إيباك، اللوبى الإسرائيلى الرئيسى فى الولايات المتحدة، قبل انتخابه وأكد فيه أن أمن إسرائيل مقدس وغير قابل للنقاش، وأن القدس ستظل عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية. كما أنه وعد إسرائيل بمساعدات قدرها ٣٠ مليار دولار على مدى السنوات العشر القادمة. كان خطابه بمناسبة العام الفارسى الجديد يوم ٢١ مارس ٢٠٠٩، وخطابه بجامعة القاهرة فى ٤ يونيو ٢٠٠٩، قد ألمحا إلى الخطو بعيداً عن سياسات بوش وتفهم لأسباب الاستياء من الغرب وعدم الثقة فيه فى الشرق الأوسط، إلا أن كثيرين أظهروا تشككهم ورأوا أن خطابه كان بدون فحوى، وقد ثبت صحة هذا. لم تتعلم إدارة أوباما من فشل تلك السياسات وما أحدثته من قتل وتدمير لشعوب المنطقة، ولجيش الولايات المتحدة [بقدر]. من ثم، مازال فرض العقوبات، و«تغيير الأنظمة» وفرض «الديموقراطية» بأسلوب العراق وأفغانستان على الأجندة الأمريكية، ومازال تهديد إيران بالحرب قائما. وعلى الرغم من أن أحادية القرار والتصرف غير محتملة فى عهد أوباما، فإن استراتيجية تعددية الأطراف هى مجرد تعديل تكتيكى يعكس تكيّفا لإدراك أمريكا لحدود قوتها، لا إعادة توجه استراتيجى.

فى فبراير ٢٠١٠، عاد أوباما إلى السياسة التى كانت سلطة دبليو. بوش قد انتهجتها إزاء إيران. ففيما ذهب دانييل بايبس، عضو المحافظين الجدد، إلى أن الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها أوباما إنقاذ موقعه الرئاسى هو قصف إيران، جددت إسرائيل تهديداتها بشن الحرب

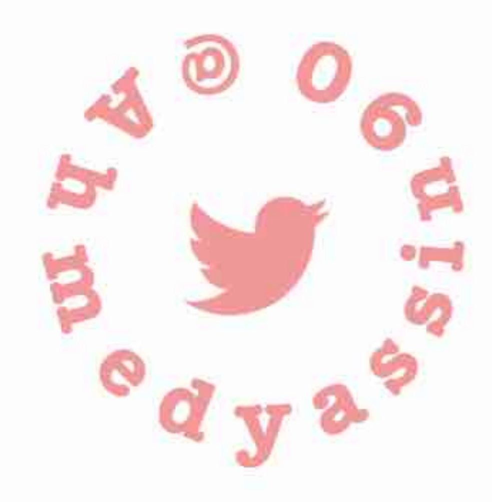
على إيران وحلفائها، حزب الله فى لبنان، وحماس فى فلسطين. وحينما وافقت إيران على شحن اليورانيوم المخصب إلى الخارج لمعالجته وإعادته إليها على شكل قضبان وقود لأغراض الأبحاث، وكانت هذه صفقة تم الاتفاق عليها فى جنيف فى أكتوبر ٢٠٠٩، تجاهلت الولايات المتحدة والمسئولون الأوربيون العَرض وصاعدوا الاستعدادات العسكرية فى الخليج. أمد أوباما الكويت، والإمارات العربية وقطر والسعودية والبحرين بما قيمته عشرات المليارات من الأسلحة الحديثة.

فى مايو ٢٠١٠، طرح إعلان طهران المشترك بين البرازيل وتركيا وإيران حلا يضمن ممارسة إيران الكاملة لحقها المشروع للاستخدام السلمى للطاقة النووية، ويقدم فى نفس الوقت ضمانات بأن برنامج إيران هو حصريا للاستخدامات السلمية. أزال هذا الإعلان العقبات السياسية من أمام اقتراح وكالة الطاقة الدولية عام ٢٠٠٩. غيّر الرئيس أوباما، الذى كان قد رحب فى إبريل ٢٠١٠ بتلك التفاوضات (إقناع إيران بإرسال ١٢٠٠ كجم من اليورانيوم منخفض التخصيب إلى تركيا لمبادلته بقضبان وقود لمفاعل أبحاث طهران) غيّر موقفه بالكامل. تجاهلت وزيرة خارجيته، هيلارى كلينتون عرض البرازيل/ إيران/ تركيا وأعلنت بدلا من ذلك عن مشروع قرار لمجلس الأمن الدولى لفرض عقوبات جديدة أكثر تشددًا على إيران.

بإمكان التهديدات المستدامة بالضربات العسكرية، والعقوبات، والعمليات السرية وتمويل «تغيير النظام» القضاء على حركة الديموقراطية القاعدية فى إيران وزيادة تأثير إيران فى المنطقة. كان لإرسال أوباما لمزيد من البوارج والصواريخ إلى الخليج أثر سلبى على حركة الديموقراطية فى إيران إذ إن المحافظين داخل النظام يستخدمون

الضغوط الخارجية ذريعة إضافية للهجوم بضراوة على نشطاء الحركة. وفى هذا السياق، فإن التاريخ يكرر نفسه: دمّر الغرب فى الماضى الحركات العلمانية والقومية التى كانت تناضل من أجل الديموقراطية والاستقلال فى إيران وأنحاء أخرى من المنطقة؛ والآن، فهم يدمرون الإسلاميين المعتدلين من خلال التهديد المستدام بالتدخل العسكرى.

ووفقا لأطروحة هذا الكتاب، تناضل شعوب المنطقة من أجل الديموقراطية والتحرر من الصهيونية والإمبريالية. أوضحت تجاربهم التاريخية أنه بدون الديموقراطية والاستقلال، تفتقد حكوماتهم الإرادة والشرعية لتنفيذ التنمية الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية المستدامة. إن عداء الغرب لإيران وللحركات الإسلامية المعتدلة الحداثية فى المنطقة يزيد من العداء السياسى للغرب ولدُوله العميلة، وسيعمل فى النهاية على تقوية التيارات الإسلامية المحافظة والمتشددة فى المنطقة. يوضح تاريخ النضالات السابقة ومسار الحركات المعاصرة فى المنطقة أن أنظمة الهيمنة والاستغلال الكوكبية والمحلية التى لا تعمل إلا لمصلحة القلة، ستواجه دائما بالمقاومة. وفى هذا السياق، فحتى لو افترضنا المستحيل وأن حزب الله وحماس وإيران والإخوان المسلمين رأوا أنه من المناسب تغيير سياساتهم لتتطابق مع سياسات الولايات المتحدة وتضمن أن يكون لمصالح الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية الأفضلية على مصالح شعوبهم، فمن المحتم أن تظهر قوى تواصل المقاومة ضد مثل تلك التيارات والحكومات العميلة والإمبريالية والصهيونية.


@Ahmedyassin90

صدر من هذه

السلسلة

١ ـ محمد (ص)

٢ ـ صدام الحضارات

٣ ـ عصر الجينات

٤ ـ القدس

٥ ـ العولمة والعولمة المضادة

٦ ـ التاريخ السرى للموساد

٧ ـ من يخاف استنساخ الإنسان؟

٨ ـ حريم محمد على

٩ ـ عولمة الفقر

١٠ ـ صور حية من إيران

١١ ـ البحث عن العدل

١٢ ـ لورانس: ملك العرب غير المتوج

١٣ ـ الصهيونية تلتهم العرب

١٤ ـ معارك فى سبيل الإله

١٥ ـ التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية

١٦ ـ التسوية: أى أرض.. أى سلام

١٧ ـ المكنز الكبير

١٨ ـ الحق يخاطب القوة

١٩ ـ نساء فى مواجهة نساء

٢٠ ـ مؤامرة الغرب الكبرى

٢١ ـ روسيا.. إلى أين

٢٢- موسوعة الأم والطفل

٢٣- الخدعة الرهيبة

٢٤- نهاية الإنسان

٢٥- خدعة التكنولوچيا

٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة

٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟

٢٨- أين الخطأ ؟

٢٩- اللولب المزدوج

٣٠- رجال بيض أغبياء

٣١- سادة العالم الجدد

٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل

٣٣- اللعب مع الصغار

٣٤- الإبادة السياسية

٣٥ - حكومة العالم السرية

٣٦ - ما بعد الإمبراطورية

٣٧ - بوش في بابل

٣٨ - المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى

٣٩ – تزييف الوعى

٤٠– القانون فى خدمة من ؟

٤١ ـ كفى

٤٢ – معنى هذا كله

٤٣– حياة بلا روابط

٤٤ – ٣٦٥ حدوتة وحدوتة

٤٥– أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..

٤٦– جسدى سلاحاً

٤٧– ثالوث الشر

٤٨– الحضارة الإسلامية المسيحية

٤٩– أمـــريكا العظمى.. أحـــزان الإمبراطورية

٥٠– الطَّريقُ إلى السُّوبَرمَان

٥١– مدربون على القتـــل

٥٢– معاداة السامية الجديدة

٥٣– إبادة العالم الثالث

٥٤– بيولوجيا الخوف

٥٥– لغز اسمه الألم

٥٦– تعليم بلا دموع

٥٧– أحمد مستجير

٥٨–العين بالعين

٥٩– شافيز

٦٠– قصص الأشباح

٦١– حزب الله

٦٢– الإنسان هو الحل

٦٣– السيارات المفخخة

٦٤– بلاكووتر

٦٥– حضارتهم وخلاصنا

٦٦– نحو الحرية.. نلسون منديلا

٦٧– العهد

٦٨– مزرعة الحيوانات

٦٩– أطفال الإنترنت

٧٠– لعبة الملايين

٧١– تجارة الجنس

٧٢– الأمريكى الساذج

٧٣– الأبرياء

٧٤– الشباب والجنس

٧٥ – التربية من عام إلي عشرين عام

٧٦– فلورانس وإداورد

٧٧- الجهاد في سبيل الحقيقة

٧٨- غاندي (٢)، رؤي، تأملات، اعترافات

٧٩- شرف البنت

٨٠- الزواج المحرم

٨١- أنبياء مزيفون

٨٢- إمبراطورية العار

٨٣- اختطاف أمريكا

٨٤- شريعة الجستابو

٨٥- رومانسية العلم

٨٦- اختفاء فلسطين

٨٧- من هم إسرائيل

٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب

٨٩- اقتصاد الاحتيال البرىء

٩٠- الله.. لماذا؟

٩١- الأمراض المعدية

٩٢- الطريق إلي بئر سبع

٩٣- مجمع الشيطان

٩٤- فى ذكرى المقاومة

٩٥- خطابا تحرير المرأة

٩٦- دساتير من ورق؟

٩٧- صُناع الملوك

٩٨- صناعة الأكاذيب

٩٩- عندما تحكم الصين العالم

١٠١- الحركة العامة للاقتصاد المصرى فى نصف قرن

١٠٢ - رحلة السندباد

١٠٣- وجه أوباما الأبيض

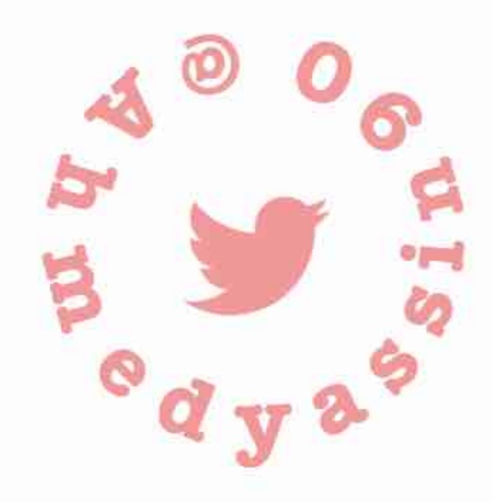
١٠٤- تشى جيفارا سيرة للنشء

١٠٥- أنا أقترض.. أنا موجود

١٠٦- قصة فيس بوك

١٠٧- غواية الرجال

قائمة المحتويات


@Ahmedyassin90



همتى فى كتابى هذا مزدوجة. أولا. سأناقش ديناميات السياسة الداخلية فى إيران منذ عام ١٩٧٩. فعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة. بزغت إيران كدولة دينية / سياسية- أى دولة دينية ذات تركيز كبير على الأيديولوجيات القومية والمعادية للإمبريالية. سيوضح تحليلى لإيران منذ عام ١٩٧٩ أن التناقضات المتأصلة فى الدولة الإسلامية آخذة فى العمل على تغيير حدود الإسلام المحافظ وفى سبيلها لأن تؤدى إلى ظهور حركة ديموقراطية مهمة.

ثانيا. أناقش المدركات الكوكبية والإقليمية عن سياسة إيران الخارجية منذ ثورة عام ١٩٧٩ والتى اكتسبت تأييدا لدى غالبية شعوب الشرق الأوسط. سأحاول تقديم الحجج على أن تأثير إيران ونفوذها يعكسان كيف أن الجماعات المتنوعة فى البلدان المختلفة ترى سياسة إيران الخارجية نقيضا لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. وعلى الرغم من تنوع الهويات الدينية والقومية. تتماهى غالبية الشرق الأوسط مع موقف إيران ضد الولايات المتحدة وإسرائيل فى مواجهة ما يسمى «الحرب على الإرهاب» والنيوليبرالية. وتوجهات المحافظين الجدد. والصهيونية.

يركز الكتاب أيضا على حركة الديموقراطية فى إيران التى تقود النضال ضد الاستبداد وتعمل على ترسيخ الحقوق الديموقراطية والفردية..إذ يعتقد الغالبية أن انتشار الفكر الأيديولوجى الحديث فى سياق إيران والإسلام ويرفضون. فى هذا السياق. الثنائيات المتعارضة مثل «الحديث / التقليدى» و «الغرب / الإسلام» ويحرصون على عدم تحديد حركتهم بصفتها مجرد تابعة لـ « الثقافة الغربية أو محاكية لها. ذهب اليسار العلمانى والقوميون داخل هذة الحركة إلى ما هو أبعد من ذلك ورأوا أن الديموقراطية لا بد أن تضم تمثيلا أكبر للتنوع الاجتماعى فى إيران.

إلهه روستامى - پوفى

إلهه روستامى - پوفى
تأثير إيران ونفوذها فى المنطقة
ترجمة: د. فاطمة نصر